

الشيخ منصور الرفاعي عبيد
وكيل وزارة الأوقاف الأسبق

الأوقاف

مَاضِيهَا وَحَاضِرُهَا

المراة

مَاضِيهَا وَحَاضِرُهَا

الشيخ منصور الرفاعي عبيد
وكيل وزارة الأوقاف الأسبق

المراة

مَاضِيهَا وَحَاضِرُهَا

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ . ٢٠٠٠ م

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

كورنيش بشارة الخوري - بناية تمارا - ص.ب. ١٤/٥٢٧٦ - بيروت - لبنان

هاتف: ٦٥٦٦٥٧ - ٦٥٦٦٥٨ - فاكس:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى الأم، والأخت، والزوجة، والابنة، والعمّة، والخالة.. إلى كل أنثى فى
أى مكان. ليكون هذا السفر بين يديها نبراساً يّنير لها الطريق الصحيح، ويهدّيها
إلى الصراط المستقيم.

منصور الرفاعى عبّيد

عضو اتحاد الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقَدِّمَةٌ

الحمد لله، الذى خلق الإنسان فى أحسن صورة وأبمل هيئة، وعلمه البيان، بعد أن نفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، ثم فضله على كثير من خلقه، واستخلفه فى الأرض، وأسبغ عليه نعمة ظاهرة وباطنة.. أحمده - سبحانه وتعالى - حمداً أستديم به جليل نعمائه، وأستدفع به أليم بلائه.. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الحمد فى الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون.. وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله، بعثه الله رحمة للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه المصطفين الأخيار، وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين.. وبعد:

فإن الإسلام ينظر إلى المرأة على أنها «إنسان»، وهذه الكلمة وردت فى اللغة العربية على أنها للذكر والأنثى.. وقد وردت كلمة «إنسان» فى القرآن أكثر من خمس وستين مرة، فى حين لم ترد كلمة «إنسانة» ولا مرة واحدة، وهذا من باب التأكيد على أن الإسلام خاطب الإنسان بصفة عامة، حتى لا يستشعر أحد أن الإسلام وضع فارقاً بين الذكر والأنثى، حيث إن كل ما تضمنه الإسلام من عقائد، وعبادات، وأخلاق، ومعاملات، تتعلق بالإنسان - أى بكل فرد - وإن كان هناك بعض الاختلافات فى التطبيق فذلك بحسب التكوين الجسماني لكل من الرجل والمرأة.. وعلى هذا الأساس، فإنه ليس هناك مشكلة للمرأة فى ظل تطبيق النظم الدينية والأسس الإسلامية. ثم إنه لم يرد فى القرآن أو السنة النبوية إشارة إلى مشكلة خاصة بالرجل أو المرأة وعاش المجتمع الإسلامى فى هذا المناخ الكريم ولم تظهر أى إشارة إلى ما يسمى بالمشكلة، إلى أن خضع الشرق لسيطرة الغرب

فطرح هذه المشكلة ليجزّ المجتمع الإسلامى إلى دوّامة من المشاكل، خاصة ما أثاره من موضوع الميراث، وحق العمل، والمساواة فيه، وتنظيم الأسرة، وغير ذلك من المشاكل التى خطط لها الاستعمار وأعداء الإسلام بمهارة ودقة، ومع ذلك فكلها لها حلول واضحة لا لبسَ فيها ولا غموض.

وإذا كان الغرب الآن يطرح قضية المساواة بين الرجل والمرأة، ومعاملتها على قدم المساواة، فإننا نقول: إن هذا يتنافى مع تعاليم الإسلام، حيث خلق الله الذكر والأنثى وهما متساويان فى الحقوق الدينية والواجبات الإسلامية، أمّا الوظائف الاجتماعية فإن الله منح كل نوع خصائص يتميز بها عن النوع الآخر، وكل نوع له وظائف مكلف بها تتفق والخصائص التى بنى الله عليها جسمه وتمّ تكوينه، فقد خصّ الله المرأة برسالة الأمومة، وخص الرجل برسالة الأبوة، ثم إن كل نوع له فضائل وخصائص لا ينبغى أن يتمنى أحدهما ما للآخر، لأن العلاقة تكاملية بين الاثنين وليست علاقة تصارعية. وإذا كانت المرأة لها استثناءات من حيث الشهادة والميراث وغير ذلك فهى مُسَبَّبة، ولها شروطها وقواعدها المقررة فى كتب الفقه وشروح السنّة النبوية. لهذا نقول للعالم: ليس عندنا مشكلة للمرأة أو صراع بين الجنسين، وأنهما جميعاً من نفسٍ واحدة، وصدق الله العظيم إذ يقول فى أول سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(١)، ويقول سبحانه فى سورة النساء: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١).

والإسلام منح المرأة نصيبها من الحياة الكريمة عندما أشرق نوره وأسفر عن جو مشرق بالحياة الطيبة، وبالأمل المشحون بالخير، وبالأسلوب العظيم المثمّم بالأدب والاحترام فى الحياة الجديدة. ذلك حكم للحقيقة وللتاريخ، وليس لعاطفة الدين. ثم إن طبيعة المرأة الكامنة فى نفسها إن وُفِّقت إلى من يتعهدها ويصلح شأنها ويزيل العوائق من أمامها كانت سبيل الكمال والنهوض بالأمة، إذ هى الخير

(١) سورة النساء، الآية ٣٢.

كل الخير، وهي الأستاذة الكبيرة للأجيال.. وإن هي مُنيت بمن يُموّه لها الباطل ويُرّين لها الشر ويغويها ويدفع بها إلى الفساد والانحراف، انعكست آيتها، وانتكست حالتها، وأهدرت كرامتها. وإن هي تُركت وأمرها وخُلّيت وسبيلها كان شأنها كشأن دقائق الكنوز في قفر الأرض، تتحول الأزمنة وتبديل الأمم وهي على حالها، لا خير فيها، ولا أثر لها، لذلك طرح المصلحون سؤالاً: أي طرق التربية أصلح للمرأة وأثر في حياتها؟ وكانت الإجابة: الدين.. فهو الكفيل بإصلاح حال المرأة.

لقد نهض الإسلام بالمرأة ورفع من شأنها، وكان أثرها في تكوين الرجال وتصريف حوادثه أشبه ما يكون بأثر الغدير الهادي الفيّاض في زهر الحدائق والبساتين. وتعالوا بنا نطالع صفحة من تاريخنا الذي نعتز به ونطرب له، فسنجد أن المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها سجّلت أروع الصفحات بعظائم الأمور مع مشاركتها للرجل في سياسة الأمة، وولاية الأمر، وجدّ العمل، ومختلف شئون الحياة.. وكانت مع ذلك تستقبل الوجود بعواطف فيّاضة، يظهر أثر ذلك في قلبها الخفّاق الذي يفهم ويعي ويدرك الأمور بذكاء وشفافية.

لقد رفع الله مكانة المرأة إلى المنزلة السامية ليكل إليها أشرف منازل الحياة، لأنها أستاذة الأساتذة في التربية والتنشئة، والتعليم والتوجيه، لذلك فهي ليست بالمخلوق الضعيف، فلقد احتملت على مر العصور الكثير من عنّت الأيام، وظلم الأهل والعشيرة، وتكبر الرّجل وتجرّبه، ومشقة الحمل، ووصب الوضع، وسهر الليالي بجوار الطفل، وما تعانيه من قيام بحقوقه ورعايته بنفس راضية، وعاطفة جيّاشة، وقلب عطوف، لذلك فهي دعامة الكون الذي لا يزال ناهضاً قوياً، ما نهضت هي به، فإن هي ضعفت وتخاذلت تهاوت عُمدته، وتصدّع بُنيانه، ومن هنا قيل عنها:

الأم مدرسة إذا أَعَدَدْتَهَا أَعَدَدْتَ شَعْباً طيب الأعراف

كانت المرأة شريكة في حياة الرجل، فقد أوصى الأصمعي من يريد الزواج بقوله: «إذا هممت بالزواج وأخذت في الاختيار فإيّاك أن يغلبك هواك على

عقلك، فتؤثر بريق الجمال العارى من الكمال على كريم الخلال، وشريف الخصال، فأنت إنما تختار شريكة العمر، وعشيرة الدهر، ولست تختار اليوم لتحلل غداً، وإذا فمن الخير تغليب العقل على الهوى. فمن صواب الرأي استعمال الأناة والتؤدة إلى أن تظفر بذات الدين والخلق فتؤثرها بالاختيار على غيرها من سائر النساء. وفي ذلك السعادة الزوجية التي لا تكلفك من أمرها عُسراً، ولا تطلب ما لا قُدرة لك عليه، ترضى بالمقسوم وتكون معك على الأيام، ولا تكون مع الأيام عليك. لا تتشكى ولا تتسخط، إن وجدت حمدت، وإن لم تجد صبرت. تملأ دارها أمناً ورضى واطمئناناً. زوجها منها فى يسر ومسرة، وولدها معها فى خير. هى خير النساء جميعاً».

ويقول ابن عمر رضى الله عنهما: «النساء ثلاثة: هَيَّئِ لَيْتَةً مُسَلِّمَةً، تُعِينُ أَهْلَهَا عَلَى الْعَيْشِ وَلَا تُعِينُ الْعَيْشَ عَلَى أَهْلِهَا. والثانية: وعاء للولد، وكُودٌ تنجب. والثالثة: غُلٌّ يضعه الله فى عُنُقِ مَنْ يَشَاءُ».

وسئل خالد بن صفوان: أى الزوجات أفضل؟؟ قال: «التي تطيع زوجها، وتلزم بيتها. إذا غضبت حلّمت، وإذا ضحكت تبسّمت، وإن صنعت شيئاً جَوَدَتْ، وإن قالت صدقت. العزيزة فى قومها، الذليلة فى نفسها، الودود الولود التي كل أمرها محمود».

وقال بعض العرب: «إِيَّاكَ وَكُلُّ امْرَأَةٍ كَلَامُهَا وَعَيْدٌ، وَصَوْتُهَا شَدِيدٌ، تَدْفِنُ الْحَسَنَاتِ، وَتُفْشِي السَّيِّئَاتِ. تعين الزمان على بعلها، ولا تعين بعلها على الزمان. ليس فى قلبها رافة، ولا عليها منه مخافة، إن دَخَلَ خَرَجَتْ، وإن خَرَجَ دَخَلَتْ. إن ضحك بكى، وإن بكى ضحكت. كثيرة الادّعاء، قليلة الارعواء، تأكل لَمًّا (أى: تأكل الطعام كله دون أن تترك منه شيئاً دون تفرقة بين حلاله وحرامه)، وتوسع الحمى ذمًّا. صخوب غضوب، بذية دنيّة. لا تطفأ نارها ولا يهدأ إعصارها. صبيها مهزول، وبيتها مزبول (أى مملوء بالقمامة). إن حدثت تشير بالأصابع، وتبكي فى المجامع وهى ظالمة، وتشهد وهى غائبة».

وبعد: فإن هذا الكتاب يحوى بين دفتيه موضوعات متعددة عن المرأة منذ

حواء أم البشر إلى المرأة في عالمنا المعاصر . . ولم يغفل الكتاب تاريخ المرأة في العالم الغربي والعالم العربي والإسلامي - قديماً وحديثاً - وذلك من بعض الجوانب الدينية والاجتماعية، والعادات والتقاليد التي كانت تخضع لها في تلك الأزمنة، وتلك المجتمعات .

كما حلينا كتابنا هذا بالقصص التاريخية الواقعية التي لها صلة بالمرأة لتكون خير شاهد على ما نريد أن نقوله، ولتعرف المرأة من خلاله أن محرر المرأة بحق هو الذي رَفَعَ شأنها، وأعلى قدرها، كأم وأخت وعمّة وخالة وزوجة وإنسانة . . . إنه سيدنا «محمد» ﷺ . . . لذلك نقول لكل أنثى اقرأى تاريخ هذا النبي العظيم وتعرّفى من خلال حياته كيف أمر باحترام المرأة ورفع الضيم عنها، ونهَى عن الإساءة إليها . . ثم اقرأى ما كتبه المصلحون والمنادون بحرية المرأة . . إنك ستجدين أن الفرق كبير جداً بين ما قاله نبي الإسلام وطبّقه، وبين ما يقوله هؤلاء، وسوف تتضح لك الحقيقة بأن سيدنا محمداً ﷺ هو الذى أنصف المرأة . فالعاقلة تسير على هديه، لأن الذى خَلَصَ حواء من الظلم والاضطهاد . . وهذا ما سوف نوضحه فيما بين يديك .

وإنى أضرع إلى الله أن يتقبل هذا العمل، وأن يرزقنا الإخلاص فى حياتنا، وأن يوفقنا إلى عمل الخير . إن ربي على ما يشاء قدير . .

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

منصور الرفاعى عبید

عضو اتحاد الكتاب

سراى القبة - القاهرة

فى شهر رمضان ١٤٢٠ هـ

الموافق شهر ديسمبر ١٩٩٩ م

هل صحيح أن تفاحة حواء هي التي أخرجت آدم من الجنة؟

لحظة تأمل

وقفنا على حافة نهر نقلب النظر فيما حولنا: هذه الأرض قد غطى وجهها بساط أخضر جميل من نبات شتّى، وأشجار أثقلت أغصانها هذه الثمار المتنوعة. جو جميل بديع يسرّ النفس، وتتمتع العين برؤيته، من منظر هذه الأزهار المتعددة الألوان، لقد صاغت يد القدرة الإلهية هذا المنظر الرائع الجميل وهذا الجو البديع، ليكون بهجة لعيون الناظرين، مما دفعنى لأجلس فأفكر، هذه الشمس التي كانت ترسل بأشعتها المحرقة ها هي الآن وقد قلّت حرارتها، ثم ها هي ذى تختفى وراء الأفق بعد أن سبحت فى هذا الكون الواسع وسارت فى فلكها المحدد لها، وطريقها المرسوم، وكانت للكون مصباحاً منيراً، وسراجاً وهّاجاً.. وإذا كانت الشمس قد أذنت بالغروب بعد أن أدّت مهمتها، يكون هذا السؤال الذى يطرح نفسه، ويلح على الإنسان: أين تذهب الشمس فى الليل الطويل؟ ويكون الجواب، إنها لا تغيب، لأنها أدّت رسالتها فى منطقة وهى ذاهبة إلى منطقة أخرى، تؤدى رسالتها المكلفة بها من الذى سخرها، وهو الله - جلّ وعلا - خالق كل شىء.

إن الأرض التى نعيش عليها، وهى تلك الكتلة الضخمة العظيمة بما فيها من جبال وأنهار وسهول ووديان شاسعة مع تعدد القارات والبلدان، هذه الأرض محمولة فى الفضاء، سابحة فى ذلك الخضمّ غير المتناهى، والشمس لا تغرب أبداً، فهى تغرب عن قوم من سكان الأرض لتشرق على سكان آخرين، والقرآن عندما تحدث عن غروب الشمس فلائه شىء مُشاهد لكل ناظر، فالشمس تشرق فى الصباح، وتغرب فى المساء، ويخيل للإنسان المُشاهد أنها تختفى وتسقط فى

اللانهاى ، ولكن الواقع غير ذلك ، فهنا نهار وهناك ليل ، لأن الشمس كوكب يدور حول نفسه ، وهكذا إن غابت عن قارات أشرق على قارات أخرى .

وها هو ذا الكون بدأت تسرى فيه ظلمة الليل الخفيفة حتى لا ينزعج الشخص ، ويستطيع أن يرتب أعماله ، إنها ظلمة تتزايد شيئاً فشيئاً ، حتى لا يضطرب الكون ، لأن الانسجام بين الليل والنهار قائم على نسق عظيم ، فالظلام يسرى سرياناً خفيفاً فى أول الليل ، فى هذه اللحظات كان التأمل بالنظر ، لتجلى أمام الإنسان قدرة الله التى لا حدود لها ، ولا يعجزها شىء ، وبهذا المنظر الفريد تظهر النفس على حقيقتها ، ويتحقق لها أن الله العظيم القادر هو الذى أبدع هذا الكون على نسق فريد غير مسبوق ، واقرأ معى ما قاله الحق فى سورة النحل : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُبْدِئُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزِّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالَّتِي فِي الْأَرْضِ رَوَّسَى أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ بِالنُّجُومِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ ۞ .

ليس من يواجه الحقيقة بذاتها ويعاينها بنفسه كمن يسمع بها من الآخرين .

إن المعرفة المتفجرة فى القلب لتجعل المرء يشهد على صفحات نفسه من آيات الجلال والجمال والعظمة والقدرة والإبداع والحكمة ما لا يستطيع أن يشهده لو قرأ آلاف الكتب ومئات المجلدات . إن النفس البشرية فى حالة التأمل تشهد فى علنها ما يؤثر فى نفسها ، فتخر ساجدة لعظمة خالقها ، خاضعة لجلاله وكبريائه ، مقرّة بعظيم قدرته ، وبالغ حكمته ، وإبداع صنعه ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

إن هذا الكون يسير وفق قوانين محكمة ، وسنن ثابتة ، وكل ما فيه يشير إلى

دقة التنظيم، وإبداع التدبير، وإحكام الصنعة، إن الأرض التي نشاهدها عندما تغيب الشمس عنها، ويبدأ الليل يزحف عليها ليكون ستراً للناس، ولباساً فهذا من تدبير الله عزَّ وجلَّ، حتى تكون عند الإنسان فرصة ليمنح جسده راحة بعد عناء، وسكناً بعد حركة، ليحدث التوازن بين القوى الكامنة في الإنسان، وليكون التزاوج بين الروح والجسد. والنوم في الليل فيه استجمام للنفس، واسترجاع لما فقدته الإنسان من الطاقة طوال النهار، لهذا قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۗ وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِبَاسًا ۗ﴾^(١) والنوم هو صورة مصغرة من الموت، وانطلاق الروح في حال النوم وسياحتها ورحلتها المنطلقة بعيداً عن الجسد هو أشبه بانطلاقها انطلاقاً مطلقاً بعد الموت، وارتحالها الأبدى فيما وراء المادة، وهذا ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ۚ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَىٰ مَرَجِعِكُم ۚ﴾^(٢).

لقد كنت أتابع هذا المنظر البديع الخلاب الذي يبدو للعين عند غروب الشمس، لأنك تجد تناسق الألوان في هذه التركيبة الفنية المتفردة التي لا يستطيع أى فنان - مهما أوتى من قوة الرسم بالريشة - أن يأتي بجزئى من الميون من هذا المنظر الرائع، الذى يقول لك مَنْ نَظَّمَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۗ﴾^(٣)، ويقول: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۗ﴾^(٤) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِجْسًا وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجْسًا مِّن كُلِّ نَجَسٍ ۗ وَذَكَرْنَا لِكُلِّ عِبْدٍ مُّسِيبٍ ۗ﴾^(٥).

ولقد رجعت ببصرى إلى جهة الشرق فرأيت هذا المنظر الجميل الذى صاغته يد القدرة الإلهية، فيها هو ذا القمر بدأ يظهر متربّعاً على بساط أزرق، تتلأأ حوله النجوم لامعات، تظهر وهى مختلفات فى الضوء واللمعان، منشورات هنا وهناك،

(١) سورة النبأ.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٦٠.

(٣) سورة الملوك.

(٤) سورة «ق».

منظر رائع حُرِّمَ منه مَنْ عاش في نور الكهرباء، فحجبت عنه هذه الرؤية التي تنبئه في الإنسان مشاعر الإحساس بالجمال فيتحلَّى بالذوق والأدب، لأنه يعايش الجمال الطبيعي، الذي صاغته يد القدرة، وأبدعت هذا الانسجام في الكون حتى يتذوق الإنسان هذا الجمال، فيجعله أسلوب حياة يتعايش مع غيره بجمال الروح، وهدوء الأعصاب، حتى يسرى الانسجام بين الكون والإنسان.

ولا شك أن الإنسان يأنس بالقمر، ويسرُّ به، خاصة عندما يكتمل في الليلة الرابعة عشرة من الشهر. ومن جمال القمر وسحر منظره لم يجد صحابة رسول الله ﷺ غيره يستعيرون صورته ليصفوا به الرسول العظيم، والسيد الكريم، وذلك عندما استقبلوه عند قدومه للمدينة فقالوا:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوُدَاعِ
وَجَبَّ الشُّكْرَ عَلَيْنَا مَا دَعَا اللَّهُ دَاعِ

وإنك لتجد في تقلُّب منظر القمر خلال الشهر الواحد - من هلال إلى بدر، ثم من بدر إلى هلال، ثم انمحاق، وظلام - تجد في ذلك متعة للنفس، حيث يذكِّرنا بأيام الطفولة والشباب والشيخوخة والكهولة وانتهاء العمر. إن مشاعر الإنسان تكون مع القمر مرهفة، والعواطف جيَّاشة، حيث يسبح الإنسان في جمال الكون، وينطلق فكره في اللانهائي، وتسمو نفسه، وعندئذ يصحو القلب الغافل، وينتبه إلى يد القدرة وهي تنبئنا إلى العظمة في الإبداع، فيقول لنا الحق سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿١٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيِّدُونَ ﴿١٨﴾﴾^(١). إن القمر مع كونه ضياءً للسائرين، فهو مؤنس للذين أصابهم الأرق ولم يستطيعوا النوم لهموم تسيطر على نفوسهم، أو أمراض تؤرق أجسامهم، فإذا كانت الشمس سراجاً وهَّاجاً، فإن القمر يسطع بنوره اللطيف وشعاعه الهادئ، وفي ضوئه تستريح النفس وتهدأ، حيث يتطلع الإنسان إلى الراحة، وينشد الهدوء والطمأنينة.

في هذا الجو الرائع الذي يعيش الإنسان فيه وهو يسبح بروحه لتمتع بهذا

(١) سورة الداريات.

الجمال الإلهي، وكأن الإنسان يشرب كأس الرضا والسعادة، سمعتُ صوتاً يقترب من مجلسي، حيث كنت قد أسندت ظهري إلى شجرة عالية وفي مجلسي هذا لا ترانى العين، لأن الأشجار حجبت ضوء القمر عني، فالتفتُ فرأيت «فتى» و«فتاة» يهمس الفتى بكلمات لم أسمعها في أذن الفتاة، فتضحك، ولقد رأيتها سبحت بفكرها، وشردت بعقلها في هذا المنظر الفريد، والفتى يصفق ويلوح بيده في نشوة، والفتاة ليست معه بروحها، لأنها شاردة، فرفعتُ صوتي بقولي: «الحمد لله»، وقد انزعج الاثنان، لكنى عرفتهما، فأقبلا إليّ، وجلسا بجوارى، فقلت: «يا... أنت حبيب؟».. فاستحيا ونظر إلى الأرض وقد بدا عليه الخجل، فقلت له: لا عليك، أما سمعت قول الشاعر:

إذا أنت لم تعشق ولم تعرف الهوى فأنت وعيرٌ في الفلاة سواء؟

ولقد ظهر الحب العذرى في الجزيرة العربية حتى ظهر هناك امرؤ القيس، وكثير عزة، وعمرو بن أبي ربيعة، وغيرهم كثير، حتى قال أحدهم في تذكرة لحبيته:

أصلى فلا أدري إذا ما ذكرتها أثنين صليت العشا أم ثمانيا

لهذا يا بني إن الحب ليس عيباً، لكن عليك أن تذكر لو أنك في مكانى هذا ورأيت شاباً مع أختك ماذا تفعل؟ على ضوء إيجابك حدّد موقفك، المهم أن يكون غرضك شريفاً وتذهب إلى بيت حبيبك، وتطرق الباب فيفتح لك، واعمل بتوصية الإسلام، حيث لا تنفرد بخطيبك إلا بعد القران الشرعى، لأن البنت هي شرف الأب، وكرامة الأخ، وعز الخال، فلا تخن هؤلاء، ولا تلوث شرفهم وتهدر كرامتهم، لأن أى شخص عندما يزوج أخته أو ابنته تجده من أسعد الناس، ولك أن تتأمل عندما يظهر الحمل على المرأة من زواج صحيح، تجد الأب سعيداً، والأم فرحة، والخال مبسوطاً، والفتاة نفسها تزهو وتفتخر بما تحمله في أحشائها، أما إذا كان الحمل من سفاح، فالويل للأسرة، والقضاء على الفتاة، والعار لكل من يحيط بها.

وكنت أرقب الفتاة فإذا بجسدها يهتز، ودموعها تنهمر من عينيها، فاتجهتُ

إليها، وقلت لها: يا بنيتي، أنتِ تهوين هذا النوع من الممارسة الشبابية؟ قالت: لا، لكنه هو الذى أغوانى. قلت لها: لا تعلقى أخطاءك عليه، فأنت شريكته، بل أنت السبب. فازداد بكاءؤها، فقال هو: إن الحب حلال، قلت له: «نعم لكنه الحب المؤسس على القيم الدينية والأخلاق الاجتماعية، والعادات البيئية، ولا شك أن هذا النوع من الخروج وحدكما فيه مخالفة للآداب الإسلامية، وفساد للأخلاق الاجتماعية، وإهدار للعادات البيئية، بدليل لو رآكما أحد من أهلها لقامت الدنيا ولم تقعد، حتى تُراقَ فى الطرق الدماء ويكون بالمستشفى البعض، وبالمقابر البعض. فتنهَّد الشاب وقال: الهوى هو السبب، فقلت له ما قاله الشاعر:

إِنِ الْهَوَى لَهْوُ الْهَوَانِ بَعِينُهُ فَإِذَا هَوَيْتَ فَقَدْ لَقِيتَ هَوَانَا

ثم قلت للفتاة: إن الإسلام رسم لك أفضل منهج لتفرحى بشبابك، وتهتنى بأيامك، ويَبَيِّنُ أن مرحلة الشباب أحسن مرحلة فى تاريخ الإنسان، ومَنْ حافظ على نفسه فى أيام شبابه سَعِدَ بَصِحْتَهُ فى كبره، ومن ضَيَّعَ أيام شبابه هلك وأُصِيب بالضياع.

وهنا انبرى الشاب وقال لى: إن المرأة هى السبب فى كل المصائب، فقلت له: لا، هذا فهم خاطئ، فقال الشاب: إن المرأة هى السبب، لأنها هى التى أغوت آدم، وزَيَّنَتْ له الأكل من الشجرة، وكانت هى الساعد الأيمن لإبليس، فقلت له: هذا أيضاً فهم خاطئ. فقال: نحن نعلم أن أول معصية وقعت فى السماء كانت من إبليس عندما تكبَّر ولم يطع الأمر الإلهى. والمعصية الثانية هى من المرأة عندما أغوت آدم وزَيَّنَتْ له الأكل من الشجرة. والمعصية الثالثة كانت بسبب المرأة كذلك، لأن أول دم سُفِكَ على الأرض كان بسببها، لهذا وصف الله كيد الشيطان بأنه ضعيف، أما كيد النساء فعظيم، وإلى هذا تشير الآية فى حق الشيطان: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾^(١). وعن كيد النساء يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُمْ عَظِيمٌ﴾^(٢). فقلت له: كيد الشيطان ضعيف لأن الله ينصر المؤمن

(١) سورة النساء.

(٢) سورة يوسف.

ويؤيده ويعينه على الشيطان، لأنه خَنَاس، أما المرأة فهي تُعَيشك، وتلحُّ على أذنك، وتغويك، فإن كان الإيمان قويًا تنتصر على غرائزك، وتحمي نفسك، وتتسلح بقوة الإرادة.. وتعالَ معي يا بني لنزيد الأمور وضوحاً: ألا ترى معي أن الليل قارب على الانتصاف، ونحن معنا جوهرة غالية يجب أن نعيدها إلى أهلها، فإن الله يأمر بأداء الأمانة إلى أصحابها. فقالت الفتاة: شكراً، قلت: لا شكر على واجب، لكن لي معكما عودة في الغد، ولتكن الجلسة على المصطبة، لعل بعض الصاحب يجلس معنا ونتحدث في موضوع المرأة، وهل التي أغوت آدم حقاً؟ أو هذا كلام لا أساس له؟.

وانطلقنا إلى القرية وقد أغلقت أبواب المنازل، وقُفلت الشبابيك، وليس هناك من صوت إلا نقيق الضفادع أو نباح الكلاب يأتي من بعيد. وعند منزل أسرة الفتاة وجدت أمها تقف على باب المنزل ملهوفة، وعندما رأتها أقبلت عليها قائلة بلهفة: الحمد لله، أين كنت؟؟ قلتُ لها: جلسنا وطال بنا الحديث. فقالت الأم: سأقول لأبيها إنها كانت بصحبتك، وأنت الذي أوصلتها. قلت: نعم.

وفي اليوم التالي بعد أن فرغ الناس من صلاة العشاء تحلقنا على المصطبة التي تقع أمام المسجد في ميدان فسيح، وجاء جَمْعٌ من الشباب، همس أحدهم في أذن الآخر ببعض الأطروحات، فقلت لهم: دعونا من هذه الأطروحات وتعالوا نتحدث في شيء مهم يؤصل فينا المعارف العلمية، وينمّي القيم الأخلاقية، لأن الفرد منا قيمته فيما يتعلمه ويعلمه، فالعائلة الحقيقية للفرد هي علمه، والأسرة هي على قدر ما تعرف من علم، لأن الناس مَوْتَى وأهل العلم أحياء، وقد قيل:

بالعلم والمال يبني الناس مُلْكَهُمْو لم يُبْنِ مُلْكٌ على جهلٍ وإقلال

وكما تحرص على العلم واكتسابه وتحصيله فيجب عليك أيضاً أن تتمسك بالمروءة والشهامة، والكرم والعفو، والتسامح والتعاون، والأخلاق الحسنة النبيلة، وتأمل قول الشاعر:

وإنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتْ فإن هُمُ ذهبَ أخلاقُهُم ذهبوا

وآخر يقول:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقيم عليهم ماتماً وعويلاً

فانبرى الشخص الذى كان معى أمس وقال: يا شيخنا، لقد دعوت الصبح لتحدث معاً عن قضية المرأة، وخاصة أنها سبب شقاء المجتمع الإنسانى ومصدر تعاسته، ذلك لأنها هى التى أغوت آدم بالأكل من الشجرة التى نهى الله عن الأكل منها، عندما أسكنهما الجنة، وأصبحت البشرية منذ هذا الإغواء وهى تعاني من الشر والانقسام فى رأى، والتشتت الفكرى، والأصل فى ذلك والسبب هو إغواء حواء لآدم، وتزيين الخطأ له، حتى وقع فى المحذور وحدث ما كان، وما هو قائم، ولهذا نجد أن أى مشكلة تقع فى المجتمع الإنسانى يقولون: «فتش عن المرأة»، فهى سبب النكد والهّم والمشاجرات، والسبب «تفاحة حواء». فقال آخر: نعم صحيح.. تفاحة حواء هى التى أخرجت آدم من الجنة.

فرفعت صوتى وقلت: كفى ذلك وتعالوا نتدارس القضية لنستبين الحقيقة أمامنا، إننا - والحمد لله - من المسلمين الموحّدين، وعندنا كتاب مقدس طاهر لا تحريف فيه، ولا اضطراب فى آياته، ولا غموض فى معانيه، وإنما القرآن الكريم كتاب يسّرهُ الله للقارئ، فماذا يقول القرآن عن قضية آدم وحواء؟ ومن أجل الوصول إلى الحقيقة الناصعة التى لا غموض فيها لا بد إذن من أن نرجع إلى القرآن، نستلهم آياته ونتعرف على الحقيقة.

البداية

هذا الكون الذى نعيش فيه كيف خُلق؟ وماذا كان قبل ذلك؟ من المعلوم أنه كان الله ولا شىء معه، لأن الله سبحانه وتعالى هو الأول بلا ابتداء، ولهذا فهو صاحب الأمر، وهو القادر على كل شىء، لهذا فإننا نؤمن بأن الله بقدرته وإرادته وعلمه خلق الأرض فى يومين، ثم قَدَّرَ لكل كائن حى رزقه، وقَدَّرَ ذلك بموازين دقيقة، ثم خلق الجبال والأنهار، ونظم على ذلك كميات الهواء، وما يحمله من الأوكسجين، وقَدَّرَهُ تقديراً، لأنه لو زادت نسبة الأوكسجين عن مُعدّلها المضبوط لاحترق الأحياء، ولو نقصت كميته ونسبته لاختنق الناس، وكُلُّ ما على ظَهْر

الأرض، وقد قَدَّرَ ذلك في يومين، فتكون الأرض بما عليها وما في باطنها مما ينتفع الناس به في معاشهم، ويسهّل لهم الحياة بكل ما يحتاجون إليه من حيوان، وزرع، ومياه، وهواء، وكل ما يصلح للانتفاع به، خلقه الله تعالى في أربعة أيام، والأيام هي من أيام الله، وما يحويها ذلك الوجود، لأنه لكل ذلك زمن معلوم تتم فيه دورته، وتلك الدورة هي يوم، فإذا قلنا إن الله سبحانه، وله العظمة والمجد، خَلَقَ الأرض ثم قَدَّرَ فيها أوقاتها في أربعة أيام، فلا يعلم إلا الله قدر هذه الأيام، ثم بعد أن تهيأت الأرض لاستقبال الحياة عليها، نظر الحق سبحانه إلى السماء، وكانت السماء عندئذٍ دخاناً، فتماسكت بقدره الله وإرادته، فقال الحق عندئذٍ بعد أن استوت السماء وأصبحت كالسقف للأرض والغطاء عليها، وبعد أن تماسكت السماء وأصبحت كأنها بناء لا ينفك وأصبحت بقدرته تعالى سبع سموات رتّب في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وعددهم، وما فيها من أشياء لا يعلمها إلا العليم الحكيم، بعد ذلك قال الله للسموات والأرض ستطيعان أمرى رغبة منكما أو رغماً عنكما. قالتا: أتيناك طائعين منقادين لأمرك، فَلَكَ الأمرُ وعلينا الطاعة، وأنت القوى الكبير المتعال.

فأمر الله السماء الدنيا التي يراها أهل الأرض أن تتزين بمصابيح: الشمس، والقمر، والنجوم، وكل الكواكب المنيرة المشرقة لأهل الأرض، وقال للأرض: شُقِّي أنهارك، وأخرجي ثمارك. قال الحسن البصرى: «إن السماء والأرض لو أبا أمر الله ولم يستجيبا لَعَذَّبَهُمَا عذاباً أليماً يجدان ألمه، لأنه سبحانه خاطبهما مخاطبة مَنْ يعقل». ثم بعد أن اكتملت السموات سبعا ومن الأرض مثلهن، عرض الحق سبحانه على السموات والأراضين تصريف شئونهن بإرادتهن، فأبَيْنَ ذلك وأسلمنَ الأمر لله، فهو سبحانه المحيط بكل شيء، القادر على كل شيء، نقرأ ذلك في القرآن الكريم في قول الحق سبحانه: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أنداداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (١٠١) وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَى مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ (١٠٢) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١٠٣) فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ

وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١١٢﴾^(١). وكذلك قوله: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَرْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١١٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿١٢٢﴾﴾^(٢). وكذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾^(٣).

وأريد أن أوضح لكم شيئاً مهماً يا أبناءى: هذه النجوم التى زينت بها السماء الأولى، مع أنها زينة للسماء فهى للإنسان استرشاد يهتدى بها فى الظلام وهو يسير بالبواخر فى البحار، ويمشى بين الجبال فى الصحراء، أو يطير فى الهواء على متن الطائرات، فيقول الله تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١١٦﴾﴾^(٤)، ويقول سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴿٥٥﴾﴾. ثم إن الحق سبحانه وتعالى اقتضت مشيئته فخلق الملائكة من نور وجعلهم أجساماً نورانية لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون، يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لا يفترون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون به من تكاليف يُكَلِّفُونَ بها من قِبَلِ الحق، وقد أسكنهم السموات، وكُلُّ على حسب مكانه المخصص له، ولهم فى السماء السابعة البيت المعمور يشبه البيت الحرام على الأرض يحججون إليه ويطوفون به ليروا عظمة الله وبهاءه وجماله وقدرته وإرادته.

وإذا كانت الملائكة مسكنها السماء فإنه سبحانه خلق الجنَّ من نار السموم، وجعل مساكنهم فى الوديان والجبال وشواطئ البحار والأنهار، والأماكن الخربة. ثم اقتضت حكمته أن يخلق الإنسان، فأرسل ملكاً إلى الأرض، فقبض قبضة منها شكَّلَ منها الإنسان، فجاء بنو آدم من جنس الأرض، منها السهل ومنها الحَزَن، منها الطيب ومنها الصعب، فلما خلق الله آدم وصَوَّرَ جسمه كان هذا الهيكل من تراب، ثم نفخ فيه من روحه، وبهذه الروح صار الإنسان إنساناً مكوَّناً من شيئين،

(١) سورة فصلت.

(٢) سورة الحجر.

(٣) سورة الأحزاب.

(٤) سورة النحل.

(٥) سورة الأنعام، الآية ٩٧.

جسد من تراب، وروح من الله سبحانه، فمن ناحية الجسد يحن الإنسان إلى الأرض لأنها أصله، وهو من ترابها، وسوف يرجع الإنسان بجسده إلى الأرض، لأنها أمه انفصل عنها، ولا بد للجزء أن يعود يوماً إلى كُله الذي انفصل عنه، ثم يعود مرة أخرى للحساب والجزاء، ثم الخلود، إما في جنة وإما في نار، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ (١). ويقول في حق الخلود الأبدى بعد القيام من القبور والحساب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ (٢).

ولما اكتمل تصوير الإنسان وسُوِّيَ على أجمل صورة وأحسن هيئة نفخ الله في هذا الجسد من روحه، وبهذه النفخة نوراً باطنه وأذهب عنه حماة الطين وظلمته، ثم جمع الله ملائكته - وكان معهم إبليس زعيم الجان ورئيسهم - فقال لهم جميعاً: انظروا هذا خلقى الذى سيكون خليفة عنى فى الأرض، لأن مشيئتى اقتضت أن يكون هذا هو خليفتى فى الأرض. فقالت الملائكة: «إلهنا وسيدنا، أتجعل فى الأرض مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ؟»، وهذا الاستفهام إنما جاء عن شىء سبق لهم معرفته، لأن البعض يقول إنه كان يسكن الأرض الجن، وقد أفسدوا فى الأرض، فأرسل الله إليهم جماعة من الملائكة أبادوهم، وأن الشيطان انضم إلى الملائكة، فلما صدت الملائكة إلى الملائكة الأعلى صحتهم إبليس وأصبح يقلدهم فى العبادة، لكن الطبع يغلب التطبع، ولم يستطع إبليس أن يبعد عنه الشر وأن يكون كالملائكة، لذلك عندما جمع الله الملائكة حضر فى صحبتهم، فلما استفهموا كان الرد عليهم من رب العزة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (٣)، أى إنه سبق فى علمى أن

(١) سورة طه.

(٢) سورة البيئ.

(٣) سورة البقرة.

هذا الإنسان سيكون له شأن، حيث يعمر الأرض ويستخرج ما فى بطنها، ويكون هذا من دلائل قدرتى وإظهار مشيئتى، حيث إن الكون بما حوى، تحت أمرى يسير حسبما أريد، وليس معى إله آخر، فأنا الواحد الأحد، القوى الكبير المتعال، إذا أردتُ شيئاً أقول له «كن» فيكون.

وهنا استجابت الملائكة ووقفت تنتظر نفخ الروح فى هذا الإنسان، فلما نفخ الله فيه تَنَاءَبَ، فعَلَّمَهُ اللهُ أن يلقى السلام على الملائكة، فلما سلّم ردوا عليه السلام، فقيل له: هذه تحيتك وتحية بَنِيكَ مِنْ بَعْدِكَ. ولما اكتمل آدم عَلَّمَهُ اللهُ أسماءَ الأشياء، كالشجر، والشمس، والقمر، والنجوم، وبعض مظاهر الكون البارزة أمام آدم والملائكة، ثم قال الله للملائكة: أنبئوني بأسماء هذه الأشياء. قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. ثم وَجَّهَ اللهُ الخطاب إلى آدم وقال: أنبئهم بأسماء هذه الأشياء. فقال: هذه شجرة كذا، وهذه الشمس، وهذا القمر، وتلك النجوم، وبدأ يعدد ما هو مُتَّاح لرؤيته. فقال الله للملائكة: ألم أَقُلْ لَكُمْ إني أعلم غيب السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما، وما تحت الثرى، وكل شىء فى الوجود عندى عَلَّمُهُ وخبره.

تقرأ هذا فى كتابه الكريم حيث يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَيَنْحَرُ نُسُوحًا بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰٓؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰٓدِقِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٢٣﴾﴾^(١). ثم قال الله للملائكة: ها هو ذا آدم قد اكتمل أماكم، وأخبركم بأسماء الأشياء التى لم تستطيعوا معرفتها كما عرفها هو، إذن فَفَعَّلُوا له ساجدين. والسجود هنا ليس سجود عبادة، وإنما هو تحية وتقدير لشخصه، لأنه دليل على قُدرة الله وإبداعه، يقول الله تعالى مبيناً ذلك:

(١) سورة البقرة.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢١) (١)، فقال الله لإبليس: لماذا لم تسجد وأنا الذي خلقتُ هذا بيدي وقدرتي؟ كان رد إبليس أسوأ ردًا، نقرأ هذا في قول الله تعالى: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) (٢).

واستمر إبليس في تعنته وتكبره، يقول إبليس لله: سوف ترى أن آدم الذي كرمته وأمرت الملائكة أن تحييه وتحترمه، سوف أستولى عليه وأغويه وأجعله وذريته معي. يقول الله سبحانه وتعالى مبيناً قول إبليس كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٦٢) (٣). وقال الحق سبحانه وهو يبين لنا ما قاله الشيطان بعد طرده من الملائكة الأعلى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٨٣) (٤).

وهكذا نستخلص من هذا الحوار الذي دار في الملائكة الأعلى وانتهى بطرد الشيطان لينزل إلى الأرض، ويعيش في وديانها، وعلى شواطئ الأنهار، وفي الأماكن الخربة، وفي نفس الوقت هو مطرود من رحمة الله، إلا من آمن من ذريته، كما حدث مع سيدنا محمد ﷺ عندما صرف الله إليه نفراً من الجن واستمعوه وهو يقرأ القرآن فآمنوا برسالته، واعترفوا بأن القرآن يهدي للتي هي أقوم، بل دُعوا قومهم كذلك إلى الإيمان به.. نقرأ في هذا سورة الجن بأكملها. ثم ما قاله الحق جلَّ وعلا في سورة الأحقاف: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ (٢١) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا

(١) سورة البقرة.

(٢) سورة «ص».

(٣) سورة الإسراء.

(٤) سورة «ص».

بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ
وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴿١﴾ .

من نفس واحدة

آدم هو أبو البشر، وعندما وجّه الله الأمر للملائكة بالسجود لآدم وحدث ما حدث من إبليس لم يكن هناك أحد يشهد هذا الحدث وما دار فيه، إلا من حَدَّثَنَا اللهُ عَنْهُمْ، ولم يشهد وقائع هذه الأحداث أحد، بل الحق سبحانه هو الذي أخبرنا وقصّ ذلك في القرآن، وأنت عندما تقرؤه كأنك تشاهد ما كان، وترى بنور بصيرتك الملائكة وهم يسجدون لآدم سجود تحية، كما أشار الحق إلى إخوة يوسف وأبويه عندما دخلوا عليه في مصر وهو على كرسى الرئاسة، وقصّ الله علينا ما حدث فقال: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١٩١﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْنَوتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴿٢٢﴾ . ثم يقول الحق: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴿٣﴾ . ويقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿١٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴿٤﴾ .

وفى سياق الأحداث التي حدثت من خلق آدم وتصويره، ونفخ الروح وتعليمه الأسماء، وردّه على الملائكة بأن أنبأهم بأسمائهم، لم ترد الإشارة إلى حواء «زوج آدم» لا تلميحاً ولا تصريحاً، ولكن جاء ذكر زوج آدم عندما أمره الله أن يسكن الجنة ويدخلها مع زوجته، يقول الله فى بيان هذا: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴿٥﴾ .

(١) سورة الأحقاف .

(٢) سورة يوسف، الآيتان ٩٩ - ١٠٠ .

(٣) سورة يوسف، الآية ١٠٢ .

(٤) سورة «ص» .

(٥) سورة البقرة .

كما جاء في سورة الأعراف: ﴿ وَبَعَادُمْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) فيدل ذلك على أن آدم خلق أولاً ثم خلقت حواء وسكنت معه الجنة، وأن التوجيه والإرشاد وجه إليهما معاً ألا يقربا شجرة حدّد الله لهما مكانها وصفتها، لكن الشيطان كان يترصد لآدم وحواء، لأنه يشعر - بعد طرده من رحمة الله وغضبه عليه - أن ذلك كان بسبب آدم، لذلك أضمر الشيطان العداوة لآدم وحواء وذريتهما ومن يتناسل منهما، وإلى هذا أشار الحق، مبيناً هذه العداوة وتأصلها في نفس الشيطان الملعون عندما قال: ﴿ وَقَالَ لَا أَخَذَنَّ مِنَ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ (١١٨) وَلَا أَضِلَّهُمْ وَلَا مَنِّينَهُمْ وَلَا أَمْرَهُمْ فَلَيُبْتِغِينَ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا أَمْرَهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴾ (١١٩) يَعْذُهُمْ وَيَمْنِنُهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (١٢٠) (٢). ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُذَّابٌ فَآخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٦) (٣). ويقول سبحانه: ﴿ يَنْبَغِي آدَمَ لَا يَفْنِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٢٧) وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (١٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ (١٣٠) (٤).

كل هذا يبيّن لنا عداوة الشيطان لآدم، وأنه يتربص لنا ويغويننا ليعبدا عن طريق الحق والعدل والجمال، ويقودنا إلى طريق الغواية والهلاك والفساد. ولما كانت حواء مخلوقة من ضلع آدم والضلع بطبيعته فيه اعوجاج، لذلك نشأ فيها تعقيد طبيعي، لكنها خلقت من الضلع لتكون مصدر حنان وعطف على الرجل،

(١) سورة الأعراف.

(٢) سورة النساء.

(٣) سورة فاطر.

(٤) سورة الأعراف.

كما أن الأضلاع تحنو على الصدر فتحمي القلب، وهذه حكمة تدق على الأفهام ونحن لا نستطيع التوصل إلى مغزاها، لكن يفهم من سياق الآية: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾^(١). ويقول الرسول ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع أعوج، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً»^(٢). نعم، إن المرأة خلقت من ضلع آدم والضلع فيه اعوجاج، وتلك حكمة الله.

إن المرأة في ذلك لا ذنب لها، حيث خلقها الله من ضلع آدم، وهي بدورها - وفي مراحل التاريخ - تتعدد طبيعتها، فكانت تتمرد، ولكن في أشكال الدلال والمكر، فلا يتماسك الرجل أمامها، فتخمد عزمته، فتتدخل هي في شئونه، لهذا كانت عندما تحين لها الفرصة تُتَوَجُّ ملكة - مثل بلقيس، وحتشبسوت، ونفرتيتي، وشجرة الدر، إلى غير ذلك ممن لهن في التاريخ ذكر وخبر - لكن لا تنسى أن المرأة نشأت تحت سيطرة الرجل وغطرسته، يطوف بها حيثما أراد، ويلقى عليها كل الواجبات في الحقل والمنزل، علاوة على الحمل والإرضاع ورعاية المولود، ثم لا يعترف لها بعد ذلك بحق، لكن عندما جاء عصر الاستقرار تمثلت زعامة الرجل في الاستحواذ عليها والاستئثار بها، وكان أحياناً يهتقرها هي وأولادها ويتخذهم عبيداً، وهذا الأمر ما زال سائداً في بعض الجهات الاستوائية وجبال الهملايا.

مَنْ السبب؟

سكن آدم ومعه زوجته الجنة، لكن الشيطان الذي حُرِمَ منها وطُرد من رحمة الله وأحاطت به خطيئته، كان يترصد لآدم وزوجته ليغويهما حتى يخرجهما من الجنة، وحتى يكون صراع يؤدي الشيطان فيه دوره لعله يصل إلى هدفه وغايته من إضلال

(١) سورة الأعراف، الآية ١٨٩.

(٢) حديث متفق عليه.

آدم وذريته، لذلك تحايَل حتى دخل الجنة، ووسوس لهما بأن الله ما منعهما من الأكل من الشجرة إلا ليعدهما عن أمرين، أولهما: أن يكونا مَلَكَين، وكان يُهَيِّج فيهما عاطفة هما في حاجة إليها، لأن المَلَك في طاعة الله ومسكنه السماء، فكان الشيطان يوسوس لآدم وزوجته بهذا الموضوع حتى يأكلا من الشجرة. الأمر الثاني: الخلود، فمن أكل من هذه الشجرة لا يموت أبداً ويبقى مُخَلِّداً، وهذه عاطفة تميل إليها النفس، لأن الموت له مذاق كله آلام، لذلك وسوس الشيطان بهذا، وإلى هذا يشير الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰ رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَذَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ (١).

إن المؤمن صافى النفس نقى القلب إذا أقسم عليه أحد بالله خدعه، لذلك خُذع آدم وزوجته في الشيطان عندما أقسم لهما بالله أنه صادق، ووقع المحذور، يقول الله تعالى: ﴿فَأَرَاهُمَا الشَّيْطَانُ عَنَّا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ (٢). وباستعراض الآيات من القرآن الكريم، لأنه أصدق كتاب وأوثق مصدر، فليس هناك من هو أصدق من الله حديثاً، لهذا نؤمن بما جاء فيه ونقبله ولا نتردد فيه، لأنه الوحي المنزل من عند الله بواسطة أمين الوحي جبريل على نبي عظيم، لم يقل فيه كلمة من عند نفسه، ولم يزد آية فيه، وإنما بلغ ما نزل عليه من رب العالمين، لهذا كل ما جاء عن قصة آدم وغيره حق وواقع وصدق، ويجب الإيمان به، لأنه من عند رب العالمين. إن الشيطان وسوس لهما فَمَنْ أَعْرَى مَنْ؟ لم يبيِّن القرآن ذلك، وإنما جاءت روايات إسرائيلية تتهم حواء، من ذلك ما ذكره الإمام القرطبي في كتابه «الجامع لأحكام القرآن» رواية ساقها مُرْسَلَةٌ من غير إسناد عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (٣)، وهى عن وهب بن منبه، قال: «إن إبليس دخل الجنة فى

(١) سورة الأعراف.

(٢) سورة البقرة، الآية ٣٦.

(٣) سورة البقرة، الآية ٣٥.

فم حية وهى ذات أربع، وكانت من أحسن الدواب التى خلقها الله، وكان إبليس قد عرض نفسه على كثير غيرها من الحيوان فلم يدخله الجنة إلا الحية، فلما دخلت به الجنة خرج إبليس من جوفها، فأخذ من الشجرة التى نهى الله آدم وزوجته عنها، فجاء إلى حواء وقال لها: انظرى إلى هذه الشجرة، ما أطيّب ريحها وطعمها! وما أحسن لونها! فلم يزل يغويها حتى أخذتها فأكلتها، ثم أغوت آدم بأن قالت له حواء: كُلْ، فإنى أكلتُ فلم يضرنى. فأكلَ منها، ودخل آدم فى جوف الشجرة، فناداه ربه: أين أنت؟ ألا تخرج؟ قال: أستحى منك يا رب! قال: اهبط إلى الأرض التى خلقتك منها، ولعنتُ الحية وجعلتُ العداوة بينها وبين بنى آدم. ولذلك أمرنا بقتلها. وقيل لحواء: كما أدميتِ الشجرة فكذلك يصيبك الدم كل شهر وتحميلن وتضعين كرهاً تشرفين به على الموت».

هذا ما ساقه القرطبي، وعندما نحلل هذا النص يتبين الخلل واضحاً فيه، لأنه ينسب إلى الله عدم معرفته مكان آدم، ولذلك سأله عن مكانه، وهذا لا يليق أبداً، فالله سبحانه لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء، لكن هكذا يحب اليهود دائماً أن يغمزوا ويلمزوا، فهم القائلون: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(١)، كما جاء ذلك فى القرآن الكريم حكاية عنهم، وقالوا كذلك: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾^(٢)، وقد لعنهم الله بسبب افتراءاتهم وتمردهم على الحق.

ثم قال القائلون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ﴾^(٣)، وهم يعلمون كغيرهم أن الله ما اتخذ ولداً، وما كان له شريك فى الملك، ولم يتخذ صاحبة، فأئى يكون له الولد؟ لكنهم قتلة الأنبياء، ولصوص الفضيلة، وأساتذة الإجرام الدينى والديوى، لهذا نكّل الله بهم فى الدنيا وجعل منهم القردة والخنازير وعبدّة الطاغوت، وأضلّهم، وبسبب كفرهم وعنادهم تاهوا فى الأرض أربعين سنة، وكانوا من أخطّ الناس، فلا

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨١.

(٢) سورة المائدة، الآية ٦٤.

(٣) سورة المائدة، الآية ١٨.

يستبعد منهم أن يقولوا ما قالوا، حتى إنهم قالوا في «مريم» إثماً عظيماً، وهي الطاهرة العفيفة، لكن اليهود طبعهم التزيف والتحريف.

لهذا لا يستبعد أن يقولوا على حواء ظلماً وبهتاناً بأنها هي التي أغوت آدم، لذلك قالوا: إن أول من أكل من الشجرة حواء بإغواء إبليس إياها، وإن أول كلامه كان معها، لذلك وسوست لآدم حتى أكل من الشجرة، فلُقِّبت حواء بعد ذلك «بوسواس المخدّة»، وإن أول فتنة دخلت على الرجال من النساء، حيث إن إبليس قال لها: «ما منعكما ربكما عن هذه الشجرة إلا لأنها شجرة الخلد»، أي مَنْ أكل منها يخلد ولا يموت، فآتاها من حيث تحب، وَحُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيَصِمُّ، فلما قالت حواء لآدم ذلك أنكر عليها، وذكَّرها بالعهد، لكن إبليس ألحَّ عليها، وهي أَلَحَّتْ عَلَى آدَمَ، إلى أن قالت له: أنا آكل قبلك حتى إذا أصابني شيء سلمت أنت، فأكلت فلم يضرها شيء، فأتت آدم فقالت له: «كُلْ، فَإِنِّي أَكَلْتُ فَلَمْ يَضُرَّنِي شَيْءٌ»، فأكل فبدت لهما سواتهما حيث اقترفا الذنب.

هذا ما ردَّده الإسرائيليون وكتبوه في كتبهم وسجَّلوه بأيديهم، لكن حديث القرآن يكذب مزاعمهم، ويردُّ إفكهم، فقد أخبرنا القرآن أن الله عهِدَ إِلَى آدَمَ فَنَسِيَ، ومن فضل الله علينا أن رفع عنا الحَرَجَ إِذَا نَسِينَا، لأن الإنسان سُمِّيَ إِنْسَانًا لِنَسْيَانِهِ، إذ النسيان من طبعه، وقد علَّمنا ربنا أن نقول هذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾^(١). إن القرآن يؤكد على أن آدم أكل من الشجرة بوسوسة الشيطان وإغوائه، يقول ربنا: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^(٢). بل يوضح القرآن أن الوسوسة كانت لآدم وليست لحواء، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾^(٣). وإذا كان النسيان من آدم وأنه قبل بوسوسة الشيطان فإن ذلك تمَّ قبل أن يكون نبياً، لذلك قال الله مبيناً أنه سبحانه قَبِلَ تَوْبَتَهُ عِنْدَمَا نَدِمَ عَلَى فَعْلَتِهِ وَأَعْلَنَ

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

(٢) سورة طه.

(٣) سورة طه.

توبته لله الذي قال لنا: ﴿ثُمَّ أَجْبَبَهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (١). لكن هل يُعَدُّ النسيان معصية من آدم؟ قال بعض العلماء: كان العصيان من آدم قبل النبوة، ثم كان الاجتباء والهداية، وإذا كانت المعصية قبل النبوة فذلك من الصغائر، وجائز وقوع الصغائر من الأنبياء قبل نزول الرسالة عليهم، لأنه قبل النبوة لا شرع علينا في تصديقهم، فإذا بعثهم الله تعالى إلى خلقه كانوا مأمورين بالأداء، معصومين، ولم يضرهم ما سلف من صغائر الذنوب.

ولقد أخبرنا الحق سبحانه أن مثل هذه الأمور حدثت من أنبياء، وأن الله قد تجاوز عنها بفضلته وإحسانه، من ذلك ما حدث من موسى عليه السلام، ونقرأ ذلك في الحوار الذي بين موسى وفرعون، قال فرعون لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (١٨) ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٩)، وفرعون يريد أن يوقع موسى في الحرج ويعلم على الدنيا أن هذا الذي يدعو للإيمان هو قاتل وكافر بنعمة فرعون التي أسبغها على موسى من قبل، فكان رد موسى أن اعترف بما كان منه، فقال لفرعون: ﴿فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٢٠) ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢١) ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٢٢). (٣)

إن موسى اعترف بأن ما حدث منه كان قبل نزول الرسالة عليه، وأن الله غفر له ومنحه شرف حمل الرسالة وتبليغها، وأنه لم يكفر بنعمة فرعون وإن ما أخذه موسى هو جزء من ملايين الأجزاء التي أخذها فرعون من بني إسرائيل عندما استعبدهم واستغلهم في منافعه ومزارعه. لهذا فإن ما حدث من آدم وغيره من الأنبياء قبل الرسالة أشياء معفو عنها، لأن الله أعلم حيث يجعل رسالته، فهو يصطفى لها الأطهار الأخيار والأتقياء الأصفياء. هذا ولقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم، أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال آدم: يا موسى، اصطفاك الله عز

(١) سورة طه.

(٢) سورة الشعراء.

(٣) سورة الشعراء.

وجل بكلامه، أتلومني على أمر قَدَرَهُ اللهُ عليَّ قبل أن يخلقني؟ فحجَّ آدم موسى». قال شُرَّاحُ الحديث: غلبه بالحجة، وإنما صَحَّتْ الحُجَّةُ لآدم على موسى عليهما السلام من أجل أن الله قد غفر لآدم خطيئته وتاب عليه، فلم يكن لموسى أن يعيره بخطيئة قد غفرها الله، ثم إن الحكمة في إخراج آدم من الجنة إنما هي لعمارة الكون، حيث أخبر الله سبحانه الملائكة - على جهة الإعلام - أنه سيخلق آدم ويجعله في الأرض خليفة، لكن الحكمة أن الله جعل لكل شيء سبباً، وذلك مكتوب على آدم قبل أن يُخلق.

إن الإنصاف العلمي والبحث المتأنى يجعلنا نقرر أن الله - جلَّتْ حكمته - اقتضت مشيئته أن يخلق آدم لغاية عظيمة، هي أن يسكنه الأرض ليعمرها، حيث يستخلفه فيها ليستخرج كنوزها، وتظهر قدرة الله ومشيئته من خلق آدم وتفضيله على كثير من خلقه، وإذا كان قد حدث ما حدث فإن الأم حواء بريئة، ولا نسير مع ما رَدَّده الإسرائيليون حيث لم يقدِّم دليل على ذلك. كما أن آدم نَسِيَ وقد عفا الله عن النسيان الذي يقع من الشخص، وأن ما وقع من الأنبياء إنما ذلك قبل أن يُكَلَّفُوا بالرسالة، وأنها أخطاء غير مقصودة، لأن الأنبياء معصومون، فلهم العصمة والمنزلة السامية والمكانة العالية، لأنهم نماذج طيبة، وعناصر صالحة، ولأنهم قدوة للبشرية، ودعاة إلى كل خير، وحُماة الفضيلة، لأن الله اختارهم لحمل وحيه وتبليغه إلى الناس، والله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، فهم صفوة الخلق، وهُدَاة البشر إلى مكارم الأخلاق العالية، ومحاسن الصفات الكريمة، وآدم أبو البشر، وحواء زوجته أم البشرية.

إن الحقائق المؤكدة من قِبَلِ وحي الله سبحانه وتعالى لتَدُلُّ دلالة أكيدة على:

١ - أن الله سبحانه أخبر الملائكة أنه سيجعل في الأرض خليفة هو «آدم».

٢ - أن الله سبحانه وتعالى خلق حواء من آدم لتحقيق الخلافة في الأرض، وليجعل منهما الذرية والنسل، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَوَجَدَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ

رَقِيبًا ﴿١﴾ (١). وفي قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ (٢).

٣ - أسكن الله آدم وحواء الجنة، وهي مكان فيه نعيم ورزق وخير كثير، ومن باب الاختبار نهاما عن الأكل من شجرة معينة، وهذا من باب التدريب والتعرف على قوة العزيمة، ويقظة الضمير، وصحوة الإرادة، ليكون الإنسان منتبهاً يقظاً، فكان هذا التدريب.

٤ - هناك صراع بين آدم رمز الخير، والشيطان رمز الشر، وقد تحايل الشيطان حتى دخل على آدم وحواء في مكان النعيم والترف والراحة والهدوء.

٥ - أقسم إبليس - وهو الشيطان رمز الشر - لآدم أنه ناصح أمين، ومن أقسم علينا بالله خدعنا، لذلك خدع آدم وانخدع، لأنه يعرف أن القسم بالله شيء عظيم، وعندما سمع القسم نسي العهد، وذلك حتى تتحقق مشيئة الله، لينزل آدم إلى الأرض يعمرها ويشقى في رحابها بالعمل والتعب: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلَمَّ يُقْبِئِهِ ﴿٦﴾ (٣). والحق سبحانه خلق آدم ذلك، حيث قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٤﴾ (٤).

٦ - حواء مع آدم، وهي تعمل كما يعمل، وآدم عندما نسي العهد كما جاء النص صريحاً بذلك في قول الله: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١٥﴾ (٥) أكل من الشجرة، وهذا النسيان لا يُقَلُّ من قدر آدم أبداً، لأنه إذا جاء القدر عمى البصر، فأدم سمع القسم من الشيطان فخدع بهذا القسم، ثم هناك حكمة إلهية من خلق آدم، وهي الاستخلاف في الأرض. إن الإنسان عليه أن يسعى

(١) سورة النساء، الآية ١.

(٢) سورة الأعراف.

(٣) سورة الانشقاق.

(٤) سورة البقرة، الآية ٣٠.

(٥) سورة طه.

ويتخذ كافة الأسباب التي توصل إلى نجاحه في عمله، فإذا كانت النتائج لا ترضى الإنسان فعليه أن يرضى ويفوض أمره لله الذي لا يُضيع أجر من أحسن عملاً، والشخص يردد: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾^(١).

٧ - أن تفاحة حواء هي التي أخرجت آدم من الجنة مقولة لا أساس لها من الصحة، وكذلك المقولة التي تُقال في كل مصيبة تقع: «فتش عن المرأة»، فهي لا إرادة لها فيما يقع بين الناس، فالرجل شريك في التخطيط والتنفيذ كالمرأة تماماً، تخطط وتنفذ ما دام الجو مهيباً أمامها، والتربية لم تصقل نفسها، إن المجتمع بعقلائه عليه أن يخطط لنجاح المجتمع بجناحيه: «الرجل والمرأة»، فهما أمام المسؤولية الدينية سواء، وأمام القانون كذلك، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِيهَا شَيْئاً﴾^(٢).

٨ - والعجب أن إبليس أغوى آدم من ناحية الراحة الأبدية والخلود والنعمة الدائمة في قول إبليس، كما حكى القرآن: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾^(٣). وكان اتجاه آدم لذلك، وهذا ما كان من توجيه الله له، حيث قال الله لآدم عندما أسكنه الجنة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾^(٤) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ^(٤) والفرق بين الاثنين أن الله سبحانه قال لآدم: عِشْ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَشَاءُ، كُلْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَاهْنَأْ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا هَذِهِ الشَّجَرَةَ، وَهِيَ الَّتِي وَجَّهَ إِبْلِيسُ آدَمَ لِلْأَكْلِ مِنْهَا.

٩ - عجيب أمر ابن آدم، إنه يقرأ كل يوم قصة الصراع بين آدم والشيطان، أو يستمع إلى القرآن الكريم، وهو الذي نتعبد بتلاوته ونقرؤه في صلواتنا، ونحفظه لأولادنا، ونهتم به في كل شئون حياتنا، وأصبح الحلال بيئاً والحرام بيئاً، والله قال

(١) سورة التوبة، الآية ٥١.

(٢) سورة النساء.

(٣) سورة طه.

(٤) سورة طه.

لنا: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُرْهُدٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١)، ومع ذلك فالبشر لا يتعظون، فوسوسة إبليس لهم تجعلهم يتفتنون في الشر، ومسالكتهم مع بعضهم البعض بالترئص والإضلال، والشيطان بذلك فرح مسرور، لأنه أخذ على نفسه عهداً بإضلال آدم وذريته، وهو القائل: ﴿ لَا تَتَّبِعْتَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (٢)، فهم يعرفون أن الشيطان عدوهم ويسمعون لوسوسته، ويعرفون أنه يدعوهم إلى الشر، ويوسوس للنفس، ويستحوذ عليها إذا كانت ضعيفة الإرادة، خالية من العقيدة، لم تتأثر بالعبادة، ولم تنتفع بهدى الله، لذلك فهي أمارة بالسوء، وعندئذ يصبح الجو المحيط بالإنسان يغرى بالجريمة، حيث يزيئها هواة الشر، ونقول لشبابنا: إن البعد عن القيم الأخلاقية والتخلي عن أركان الإسلام وعدم قراءة القرآن والتكبر للمبادئ والعادات الدينية، والتخلي عن السلوك الحسن، كل ذلك يمثل الشجرة المنهى عنا، والتي حذر الله آدم من الأكل منها، فيقول الله سبحانه: ﴿ يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَيْتِهِمَا إِنَّهُ يَرْتِكُم هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣).

١٠ - إننا نهيب بالمرأة ونقول لها: لا تكوني عوناً للشيطان على أولاد آدم لأنهم أولادك، وسعادتهم سعادتك، فكوني قائدة لكل خير، وتذكرى المقولة التي قلت عنك وألصقت بك تهمة الإغراء الأولى، والتي كانت سبباً في شقاء الإنسانية، وكان من جراء ذلك ما سوف تطالعينه من ظلم الرجل لك عبر التاريخ، وجاء الإسلام فكركمك، ورفع قدرك، وأبعد التهمة عنك، وجعل لك خصائص متميزة من العطف والحنان لتكوني للرجل جنة في الدنيا ينعم في ظلالها، ويحيا سعيداً بين أبنائها، فكوني قدوة حسنة، وعلمي أولادك الرضا، ليعيش زوجك سعيداً في دنياه تحت ظلال الجنة التي غرست أشجارها الوارفة.

(١) سورة فاطر.

(٢) سورة الأعراف.

(٣) سورة الأعراف.

إن الله سبحانه هو الذى خلق آدم وحواء وجعل منهما الذرية، وهو يعلم أن هذا الإنسان بكل ملكاته ومكوّناته ضعيف، وهذا أمر لا حيلة لابن آدم فيه، فالله سبحانه يقول: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (١) لذلك أقام فى ابن آدم رقابة ذاتية فيه وعليه، إنه «الضمير» والإنسان قد يتنكب الطريق وينزلق فى الخطيئة، فهل يُطرَدُ من رحمة الله أم هناك أمل؟ إن الطمع فى رحمة الله أمل موجود لا يغيب عن بال الإنسان، وباب التوبة مفتوح، فإذا نسي الإنسان أو زلَّ وأخطأ وفعل الموبقات فإن باب الله مفتوح، ونداءه مستمر ودائم: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٢).

والله سبحانه يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده فى النهار ليتوب مسيء الليل، وينادى على عباده: «مَنْ أَقْبَلَ عَلَيَّ مِنْكُمْ تَلَقَّيْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي نَادَيْتُهُ مِنْ قَرِيبٍ». وإذا كان الله سبحانه ذكّرنا بنعمته ونبّهنا إلى رحمته فإنه فى الوقت نفسه حدّرنا من نعمته، وقال لنا: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (٣). وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾ (٤).

إن رحمة الله تشمل كل الوجود، وهو أرحم بعباده، فهو الرحمن الرحيم، ورحمة الله واسعة، وكل ذلك لمن رحم نفسه وابتعد عن المعاصى، واتخذ إبليس عدوًّا، وفرّ من الشيطان كما يفر من المرض. والدنيا متاعها زائل، ونعيمها إلى فناء، وكل مَنْ عليها هالك، والباقى هو الله - جلَّ وعلا - الذى يرث الأرض ومَنْ عليها، وكل الناس يأتون إليه للحساب والمساءلة: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا (١٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (١٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (١٥)﴾ (٥).

(١) سورة النساء.

(٢) سورة الزمر.

(٣) سورة البروج، الآية ١٢.

(٤) سورة الفجر.

(٥) سورة مريم.

فيا أختاه، إن باب الله مفتوح يوصل إلى سعادة الدنيا والفلاح في الآخرة، والدخول إليه ومنه بشروط: أن يكون بيدك جواز سفر مدوّن به العمل الصالح، وطهارة النفس، والإخلاص، والوفاء، والأمانة والصدق، والمروءة، وحين الرعاية لمن هم في ولايتك وتحت يدك، والالتزام، وحسن العشرة، وكرم المودّة، والشهامة، وغير ذلك مما نجده في القرآن الكريم، ومن جاء بغير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه، فالله سبحانه أرسل الرسل وأنزل الكتب ويبيّن أن الصلة بين الله والناس هي العمل، ثم قال لنا مبيّناً ذلك: ﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ (١). وقال: ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٢٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٢٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤١﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤٢﴾ (٢).

إن آدم بعد أن أحسّ بالذنب الذي اقترفه، والمعصية التي وقع فيها، ندم وأعلن مع زوجته حواء اعترافهما بأنهما ارتكبا خطيئة، فقرّرا التوبة: ﴿ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٣). إن الشيطان عندما ترصد لهما وأغواهما كما يقول ربنا: ﴿ فَازْلَمْهُمَا الشَّيْطَانُ عَنَّا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٤)، تابا إلى الله وندما: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ (٥). وقبّل الله توبة آدم وحواء، لكن بدأت مرحلة من الصراع مع الشيطان الرجيم الذي يترصد لأولاد آدم ويقودهم للهلاك عند اتّباعه، ثم الابتعاد عن هدى الله وهدى رسله الكرام الذين ترادفوا للإنسانية من قبّل الله لتصحيح المفاهيم وضبط حركة الحياة، حتى يكون الإنسان أهلاً للخلافة عن الله في الأرض، حسبما اقتضت مشيئة الله عز وجل: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٦).

(١) سورة الحجر.

(٢) سورة النازعات.

(٣) سورة الأعراف.

(٤) سورة البقرة.

(٥) سورة البقرة، الآية ٣٧.

(٦) سورة البقرة، الآية ٣٠.

أول دم سُفِكَ على الأرض

إن إبليس استكبر وقال لرب العزة عندما أمره بالسجود لآدم: أنا لن أسجد لهذا الذي خلقته من تراب، فأنا خير منه، لأنك خلقتني من نار وخلقته من طين، وفي زعم إبليس أن النار أزكى جوهرًا من التراب، ولما عرف إبليس أنه ضلّ ولم يعرف قدره طرده الله من رحمته لتمرده وعناده واستكباره، فقال إبليس: أرأيت هذا الذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ، لئن أَخَّرْتَنِي إلى يوم القيامة لأُضِلَّنَّهُ ومن يتناسل منه. قال الله له: اذهب وامض في سبيل الندامة وطريق الغواية، واستفز من استطعت منهم بصوتك، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك، وشاركهم في الأموال والأولاد، وأنت تفعل ذلك تصول وتجول فلن يتبعك منهم إلا الغاؤون، أمّا أصحاب القلوب الطاهرة والعزيمة القوية فلن تستطيع أن تغويهم أبداً مهما كانت حيلك والأعيك، ومع ذلك فإن من يتبعك له في الحياة الدنيا معيشة ضنكاً، وفي الآخرة ناراً وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم به من تعذيبكم وإهانتكم جزاءً وفاقاً، لأنني لن أترك آدم وذريته بلا ضوابط، بل جعلتُ العقل فيهم ميزان المعرفة، وأغذّيه بهدى السماء والوحي الذي ينزل عليهم، والأنبياء الذين يبعثون منهم وفيهم، ولن أعذب أحداً حتى أبعث إليه رسولاً.. وابن آدم أمامه كتاب مفتوح، إنه الكون، فيه دلائل قدرتي واضحة بالآيات الناطقة بعظمتي أمام عينيه في عُدُوّه ورواحه، وكتاب مقروء فيه منهج حياة الإنسان، ليحيا على بيّنة من أمره، وحتى لا يكون لأحد على الله حجة.

وطرد إبليس ولعن، ونسى آدم العهد وأكل من الشجرة المحرّمة، وأمر الله آدم وزوجته أن يهبطا إلى الأرض ليحتمد الصراع مع إبليس اللعين المحروم من الرحمة، يشير إلى ذلك ما جاء في القرآن الكريم: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾﴾^(١)، ويقول: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٣٠﴾﴾^(٢). وهبط إلى

(١) سورة البقرة.

(٢) سورة الأعراف.

الأرض آدم وزوجه، وسيكون منهما الذرية، وكذلك هبط الشيطان، وله ذريته الذين يعاونوه في الإضلال والإفساد والإغواء، وهنا تبدأ قصة الصراع على الأرض.

ويحلو للبعض أن يجعل من المرأة محور الشر دائماً، فعندما تقع أى مشكلة يقولون: «فتش عن المرأة». . . إن هذا آتٍ من كون المرأة نفثت فى الكون سحر الجنة الذى اقتبسته حواء من أنفاس الحور العين، فأثارت العواطف، وحرّكت المشاعر، لكن أى ذنب لحواء فى ذلك، إن المرأة لا ذنب لها، لأن الله سبحانه خلقها من الرجل، ومن ضلع أعوج، وقلنا بأن ذلك هو مصدر الحنان الذى فيها، لأنها تحنو على الرجل كما يحنو الضلع على الصدر والقلب، لهذا كانت تتمرد فى شكل من الدلال على الرجل، الذى لا يتماسك أمام هذا الدلال، فتخمد عزيمته، وتفتّر همّته، فتتدخل هى فى شئونه. إن من المعروف أن المرأة نشأت تحت سيطرة الرجل وغطرسته، يطوف بها حيثما أراد، ويلقى عليها كل الواجبات، فى الحقل، وفى المنزل، وهى راضية، علاوة على ما يعتريها من الإرهاق بسبب الحمل والوضع. إن المرأة شقيقة الرجل، فلها من الحقوق كما للرجل تماماً فى ظل القواعد الدينية والعرف الاجتماعى، ولا شك أنها تريد أن تنشر دفاء العاطفة وحنان القلب على الرجل لتهدأ نفسه ويؤدى واجبه الاجتماعى، وتتعايش هى معه فى ألفة ومودة، لكن الرجل يقلب الحقائق، ويميل مع الهوى، ثم يرمى عليها باللوم بعد ذلك. . . وتعالوا بنا لتتعرف على القصة التى بسببها سفك أول دم على الأرض، ومن لحظتها والعنف هنا وهناك، وينسبونه لولدى آدم، كما أن أسلوب الإرهاب والتصفية الجسدية بدأت تُعرف على الأرض، وأصبح لإبليس مدرسة ولها رُوّاد، وكل يوم يُزاد فيها درس، وتُوضع خطة، وذلك بسبب واحد، هو (الحسد)، فأول جريمة من الشيطان كانت بسبب (الكبر)، لأن إبليس انتفخت أوداجه وقال لرب العزة: أنا خير من آدم الذى خُلق من طين، أما أنا فُخُلِقْتُ من النار، وهذه نظرية التفاضل التى نادى بها بعض السفهاء، وردّها بعض الشعراء حيث قال:

إبليسُ خير من أيكم آدم فتذكروا يا معشر الأشرار
النار عنصره وآدم طينته والطين لا يسمو سُمُو النار

هكذا وبكل يساطة، ومثل هؤلاء كمن يقرأ قول الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ ويقف عليها، ويدلل على عدم الصلاة، ونحن نقول: أكمل الآية، لأنه لا يصح الوقف هنا، فإن بعدها كما يقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(١). ويقرأ أحدهم: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾^(٢) ونقول له: أكمل: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾^(٣) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾^(٤) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾^(٥) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾^(٦)﴾^(٢).

قصة ولدى آدم

منذ بدأ الفساد والانحراف، وكُلُّ يعلُّق أخطائه على شماعة الآخرين، فلتنبه إلى عناصر الفساد، وناشرى الإرهاب، ومؤسسى مدارس الانحراف، لأن أستاذهم الشيطان طريد الحق وملعون على كل لسان.. فهيا بنا لتعرف على قصة ولدى آدم:

عندما هبط آدم وزوجته إلى الأرض هبط معهما الشيطان، والعداوة بينهما متأصلة، والشر فى قلب الشيطان متجسّد، وآدم تاب الله عليه وقبِلَ توبته، وهذا من فضل الله الذى فتح باب التوبة أمام كل شخص تزل قدمه أو ينحرف أو يضل، فإن عاد تائباً نادماً مستغفراً فتح الله له باب التوبة، وإن كان صادقاً بدّل الله سيئاته حسنات، وهذا فضلٌ من الله لكل من يتوب توبة صادقة، وإلى هذا أشار الحق سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾^(١) يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا﴾^(٢) إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٣). لهذا قبِلَ الله توبة آدم وحواء، وقد بدءا يمارسان حياتهما المعيشية والأسرية، وبدأت حواء تحمل وتلد، فولدت توأماً «ذكراً وأنثى»، وهكذا فى كل

(١) سورة النساء، الآية ٤٣.

(٢) سورة الماعون.

(٣) سورة الفرقان.

حمل، وأوحى الله إلى آدم أن يزوّج ولد البطن الأولى لأنثى البطن الثانية^(١) وكذا، وقد تم ذلك نظراً لأنه ليس على وجه الأرض إلاّ هما «آدم وحواء»، ومن أجل إيجاد الجنس البشرى فلا بد أن يتم التزاوج، وقد قال آدم لأولاده ذلك ليعلمهما، كي يتواجد البشر، وتتكون المجتمعات، وكانت شقيقة قابيل التى وُلدت معه تتميز بجمال باهر، وجسم رشيق، فأراد أن يتزوجها، فأفهمه والده «آدم» بأن ذلك لا يجوز، لأنها شقيقته، وعليه أن يتزوج بشقيقة هايل.

كان قابيل يتخذ الزراعة مهنته، أمّا هايل فقد أصبح راعياً للأغنام، وأما البنتان فهما مع حواء فى المنزل، كان السلام يرفرف على الأسرة، وآدم وحواء سعيدان بزهرات الحياة - أولادهما - وهى تفتح فى رياض الكون وهم أول نفحات الخير فى تكوين البشرية.

كان الشيطان يتربص لهذه الأسرة ويخطط لضربها بقوة ليصل إلى مأربه، وهو يتسمع لأحاديث الأسرة دون أن يراه أحد، لأنه لا يراه الإنسان، والشيطان هو الذى يرى الإنسان، مصداقاً لما قاله ربنا جل جلاله: ﴿إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾^(٢)، وها هى ذى الفرصة أمامه، «آدم» يعرض على أولاده الزواج، وقابيل يرغب الزواج من أخته التى وُلدت معه فى بطن واحدة لجمالها الباهر وقدها الرشيق. وتربص الشيطان لقابيل واتخذه أول تلميذ فى مدرسة الفساد والإجرام، وأفهمه بأنّ أباه يحب «هايل» ويريد أن يزوّجه الجميلة، أما أنت فسوف تتزوج الدميمة القبيحة، فتمرد قابيل على أبيه ورفض الانصياع له، وقال له: لن أتزوج إلا شقيقتى. وكان الشيطان يغريه ويغويه. وألهم آدم أن يقترح على ولدته بأن يُقدّمها قرباناً لله، فمن قُبِلَ قربانه فهو الذى يتزوج بالجميلة، ومن لم يُقبَلَ قربانه فعليه الرضا بالأمر الواقع، لأنه لو اطلّع الإنسان على الغيب لاختار الواقع.

ذهب هايل وجاء بقربانه من أفضل وأحسن ما عنده، لأنه يتقدم به إلى الله

(١) البطن: ضد الظهر وهو مُدَكَّر، وتأنيثه لغة [انظر: مختار الصحاح - مادة: بطن].

(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٧.

تعالى، وهو يقول: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾^(١). ونظراً لأنه كان يرعى الغنم والجمال فجاء بجمل عظيم، أما قابيل، فنظراً لأنه كان زارعاً فجاء بقمح من أردأ ما عنده، حسبما زَيَّنَ له الشيطان، وكان كل واحد يتمنى أن يُقبَلَ قربانه ويفوز بقصب السبق. وتقدم كل واحد بقربانه، فقبل الله قربان هابيل، لأنه يتميز بصفاء النفس، وطيب القلب، وحب الناس من حوله - إخوته الصغار - أما قابيل فقد انطفاً الأمل في قلبه، وانبعث الشر من عينيه، علماً بأنه لم ينزل على حُكم أبيه، ولم يرضَ بحكم الله. ثار الدم في عروقه وتدفق مع الشر الذي انبعث من نفسه، لذلك قال قابيل لهابيل: لأقتلك حتى لا تتمتع بهذا الجمال وأعيش أنا مضطهداً محروماً العاطفة، قليلَ الرجاء. كان هابيل رجلاً مهذباً، فردَّ على أخيه قائلاً: ارضَ بأمر أبيك وانزل على حُكم الله وطَهَّرْ قلبك، والجمال جمال الروح والنفس، جمال الخلق والأدب. لكن قابيل أصمَّ أذنيه ولم يسمع إلا صوت الشيطان الذي زَيَّنَ له الجريمة ورسم له الخطة وبدأ يمد يده إلى أخيه، فقال هابيل: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢). وكان المفروض أن يتراجع قابيل ويحافظ على أخيه ويرضى أباه ويحفظ للأسرة كيانها الاجتماعي، لكن:

لقد أسمع لو ناديت حَيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي

لقد كان قابيل ميتَ العاطفة، متبلدَ الأحاسيس، متحجر القلب، لا تسمع أذنه إلا ما يريد، لذلك مد قابيل يده إلى هابيل وقتله، ووقع هابيل على الأرض أول قتيل، ولم يعرف قابيل كيف يتصرف في جثته، فوضعها في جراب وحملها على ظهره وهو مضطرب الفكر، قلق النفس، أحاط به الهم، حيث دَسَّ يديه بالقتل، وباء بالعار، وأصبح لا يدرى كيف يتصرف؟ ولا يعرف كيف يوارى سواة أخيه؟ خاصة أن رائحة الجثة بدأت تفوح، والحق سبحانه أرحم بعباده، فتدخلت العناية الإلهية لتعلم هذا الغبي الأحمق كيف يتصرف.. ولما كان قابيل ليس أهلاً

(١) سورة آل عمران، الآية ٩٢.

(٢) سورة المائدة.

لأن يُلهم من الله بعث له مَنْ يَعلمه، وأستاذه هنا يليق به، إنه الغراب، فبعث الله أمام عينيه بغرابين تنازعا، فقتل أحدهما الآخر، فأخذ الغراب القاتل يحفر بمنقاره فى الأرض حتى عمق الحفرة ودفن الغراب المقتول، ثم أهال عليه التراب، فصاح قاييل وقال: ﴿يَتَوَلَّىٰ أَعْرَجْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوَاءَ أَخِي﴾^(١). بدأ قاييل بالندم والحسرة بعد مقتل أخيه، وبعد أن تلقى الدرس على يد الغراب أستاذه.. إن هذا أول حداث وقع على الأرض، وأول معصية ارتكبت فوقها، ومع ذلك لم يتزوج بشقيقته، لأن الطبع السليم لا يقبل ذلك أبداً. هذه هى القصة ونرى من سياقها أنه لا دخل للمرأة فيها من قريب أو بعيد، وإنما يحلو للبعض عندما تقتل امرأة زوجها يقولون: «ألم يقتل قاييل هايل بسببها»، فهى التى تخطط، وقد تنفذ، ونحن نقول لهم ما قاله ربنا: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزِرَّ أُخْرَىٰ﴾^(٢). ويقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(٣).

إن آدم كان كلما سأل قاييل عن أخيه تهرب من الإجابة، وقد شعر آدم بما حدث، وحزن، ولأول مرة تعرف الأسرة الحزن يخيم عليها لغياب ولد شهم يتسم بالمروءة ويُعرف بالهمة والنجدة وأداء الواجب وحُب من يحيط به.

أمّا إبليس ففرح، لأن مدرسته بدأت تتكوّن، وتلاميذها شخصيات مهزوزة، يتسمون بالقلق والاضطراب، وعدم التركيز والحقد والحسد.

وقاييل ندم، لكن بعد فوات الأوان لأنه لم يستعمل عقله، ومن أجل تصرفه الأحمق جاء الحكم الإلهى الذى حدده الله وفصله وهو: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(٤). ثم إن ساحة المرأة بريئة، لأن البنت

(١) سورة المائدة، الآية ٣١.

(٢) سورة الإسراء، الآية ١٥.

(٣) سورة المدثر.

(٤) سورة المائدة، الآية ٣٢.

لم تسهم برأى، ولم تشارك بفعل، فإذا جاء المجرمون وتعلّلوا بأن المرأة هي السبب نقول لهم: أين الدليل؟.

إن القرآن وَضَّحَ الأمور، وأزالَ اللبس، وأبعد الغبن عن المرأة ليقول للرجال: «بعضكم من بعض». وجاء على لسان رسول الله ﷺ: «النساء شقائق الرجال»، فليكن الرجل في عرض القضية منصفاً ولا يُعلّق أخطاءه على سماعة المرأة، لأنها خُلقت منه، فهي تحنو عليه، وتكمل معه مسيرة الحياة، وإن كان لكل إنسان دوره، فإن المجتمع في حاجة إلى دور كل فرد في مكان أدائه، وكل شخص يُحاسب على عمله، كما يقول ربنا: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾^(١).

(١) سورة الزلزلة.

هل الذكر كالأنثى؟

فى ليلة رطبة الهواء، خفيفة النسمة بعد نهار شديد الحر، وقد غاب الشفق الأحمر، جلست على شاطئ نهر، وأسندت ظهري إلى شجرة الصفصاف أتأمل الكون الذى يحوى الكثير من الأسرار، وبينما أنا سابح بفكرى فى اللانهائى، وصل إلى مسامعى صوت فتاة من فتيات الريف تقول لفتى بالقرب منها: إن الله بنا رحيم، فبعد حر الشمس اللافتح تكون هذه النسمة الرطبة التى تنعش النفس وترطب الجسد وتحرك المشاعر الدافئة فى الإنسان... بعد ذلك سمعت صرخة من الفتاة مع ارتطام شىء على الأرض، فتحركت إلى هناك فإذا بالفتى يضرب الفتاة، وقد تبين لى أنها شقيقته، فقلت له: لِمَ تضربها؟ فقال: لأنها تقول كلاماً هو من كلام الرجال.. لكن الفتاة ردّت قائلة: ولِمَ تعيب على؟ أليس الذكر كالأنثى؟ وهنا صدرت منى ضحكة عالية، وأمسكت بهما وأجلستهما وقلت: هذه قضية نريد أن نتحدث فيها تلك الليلة وندعو إلى مجلسنا العديد من الرجال والنساء.. وقد حضر العديد من الذين يتعلّمون فى الجامعات إلى القرية حيث يعملون فى الصيف مع أهليهم فى الحقول، وقلت لهم: الموضوع الآن ينقسم إلى شقين، هما: الحرية وأليس الذكر كالأنثى؟.

الحرية: كل إنسان حر، له أن يفعل ما يشاء، لكن هذه الحرية لها ضوابط تضبط حركة الإنسان حتى لا تكون فوضى وعبثاً بحياة الآخرين.. الحرية التى لا يكون معها قيد يوفر الحق والكرامة للناس الذين يعيشون معك فى المجتمع ليست بحرية، وإنما هى فوضى وتخبط فى ظلام الفكر، لأنه ليس من المصلحة أن يُقال للرجل: انطلق كما شئت فأنت حر ولو داست على أقدامك فلذات الأكبادة، وهتكت حرمة البيوت، نقول هذه ليست حرية، وإنما ذلك اعتداء صارخ على حرية

الآخرين.. إن من حَقك أن تلوح بيدك في الفصاء وأنت حر ولكن لا تمس بيدك أنف الآخرين.. من حَقك أن تتكلم لكن لا تتلفظ بألفاظ تخذش حياء الآخرين.. وما يقال للرجل هنا يقال للمرأة، لا نقول لها: انطلقى كما شئتِ فأنت حرة ولو سفكت عفة الأحرار واعتديت بما صنعت على حياة الأمنين، ولوئت شرف الأسرة، وأهدرت كرامة الأب والعم والخال.. إن المناخ الاجتماعي في كل بلد، والتقاليد الموروثة من الآباء والأجداد لا بد أن يكون لها احترام، فلا يليق بنا أن نسفّه رأى الآخرين ولا نتناول على معتقداتهم الدينية ولو كانت خاطئة، وإنما علينا أن نلتزم بالأدب أولاً في أنفسنا، ونحترم غيرنا، ولا نسفّه رأى أحد، وإنما نناقش بالحجة والدليل والمنطق، وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(١). وقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢). هذا هو الأدب الذي يجب أن نلتزم به في حريتنا وتصرفاتنا. حافظ على حقوق الآخرين ليحافظوا على حقوقك، هذه هي الحرية، انضباط على القيم، واحترام لحقوق الآخرين، وغير ذلك تكون فوضى واضطراباً وخلخلة في المجتمع، وتصعداً للقيم، وانهيأراً للمبادئ، وهذا لا يقره دين ولا يرضى به عُرف اجتماعي ولا تقاليد بيئة، لأن ذلك يؤدي إلى فساد، لذلك كانت الحرية الممنوحة لك في نفس الوقت محافظة على حقوق الآخرين.

أما كون كلمتك يا فتاتي: «أليس الذكر كالأنثى؟»: فلا، لأن لكل منهما خصائص، فالذكر يختلف عن الأنثى في أصل التكوين الجسماني، ولكل منهما فطرة، فلا نحاول الخروج على مقتضى هذه الفطرة، لأنها أصيلة لا تتغير: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾^(٣).

ولقد أثبتت البحوث الفسيولوجية أن يد القدرة الإلهية والعناية الربانية قد كوَّنت كلاً من الرجل والمرأة تكويناً يختلف عن الآخر، فمن الناحية الجسمية:

(١) سورة الأنعام، الآية ١٠٨.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٦.

(٣) سورة الروم، الآية ٣٠.

جعلت هيكل المرأة العظمى دقيقاً خفيفاً، وجمجمتها تشبه وجوه الأطفال، وسعة صدرها أضيق من الرجل، والعمود الفقري أقل طولاً، وأطرافها أخف وزناً، كما جعلت عضلاتها أقل نموًا من عضلات الرجل، وكميات الدهن في المرأة أكثر، وبخاصة في الصدر والفخذين. . وجلدها رقيق، وتحتوى على سائلات مائية أكثر، وشعرها على الجسم قليل جداً، بل يكاد يكون معدوماً، ولذلك يقال عنها: الجنس الناعم، ومخها أصغر وأخف وزناً من مخ الرجل.

إذا كان هذا الاختلاف في الناحية الفسيولوجية، فهناك اختلاف في الوظائف العضوية: فهي مصابة بالطمث، والحمل، والوضع، والإرضاع، كما أن الرجل أقوى منها في سير الدورة الدموية في جسمه، لذا فهو قوى التنفس، ويفرز كمية من العرق أكثر منها. إن المرأة منذ سن المراهقة يتغير شكلها، وتظهر المعالم الدالة على أنوثتها، لأن غذاءها يُصرف إلى تكوين لحم وشحم، فيستدير وسطها، وينهد ثدياها، ويتسع حوضها، وقلماً يطرأ تغيير على تكوين مخها وأعصابها، في حين أن الفتى ينصرف غذاؤه إلى تكوين الأعصاب، ونمو المخ وكثرة تلافيفه، ولذلك هناك اختلاف من الوجهة العقلية، فالمرأة تدرك الأفكار الواضحة المختصرة، وتنقصها الدقة في إدراك الكليات، وذلك لعدم اهتمامها بالموازنة والتدقيق، لأنها عاطفية في تصرفاتها، يتحكم فيها الشعور والإحساس أكثر من تحكُّم الرأى والتدبير، لذلك فهي كثيرة الانفعالات، حادة المزاج، كما تقول الكاتبة (جينا لمبروزو) في كتابها «نفسية المرأة»: «إن هذا التكوين الذى أبدعته يد القدرة الإلهية - وليس لأحد التدخل فيه - ينشر على الفتاة الأنوثة الساحرة في دور المراهقة (ولذلك قالوا عنها: الجنس اللطيف)، في حين ينمى في الفتى مخه وتكوّن أعصابه. إن هذه الفوارق تُساير الفتى والفتاة وهما يتقدمان في سلّم الرقى الاجتماعى، لكن قد يتدخل الثقيف والترويض البدنى في تهذيب هذا الاختلاف بالتعديل، لكنه لا يتغير ولا يُمخى، ولذا قالوا: (الطبع يغلب التطبع)، وبمقتضى هذه الفوارق سنّت الأديان السماوية شرائعها متمشية مع الحالة الخلقية والاجتماعية للعصور التى ظهرت فيها، فاليهودية مثلاً فرّقت بين الرجل والمرأة، معتبرة الرجل كل شىء والمرأة صفرًا على الشمال، لذلك لا تبيح لها الوظائف العامة،

والمسيحية كذلك جعلت الرجل هو الرأس، ويتبين هذا من رسالة (بولس) إلى أهل (أفسس) إذ يقول فيها: «يا أيها النساء، أخفضن لرجالكن كما للرب، لأن الرجل هو الرأس للمرأة كما أن المسيح هو رأس الكنيسة، وكما تخضع الكنيسة للمسيح، كذلك النساء لرجالهن».

أَسْمِعْتِ أَيْتَهَا الفتاة أن الذكر ليس كالأنثى في الخلق والتكوين، والاستعداد والمواهب، وعلى الفتاة أن تعرف أن لها فطرة لا تخالفها، ولا تبعتها الحضارة الحديثة عن الوظيفة الأصلية التي خُلقت لها ولا يخرج بها العلم إلى دعوى المشاركة في كل شيء، لأن داعي الفطرة في نفسها ونداء الطبيعة من بين جوانحها أقوى من كل شيء، وهذه هي القاعدة الأصيلة، ومما لا شك فيه أن كل قاعدة لها شواذ، فقد يكون من النساء من يتفوقن على الرجال، لكن ليس غالباً، ونقرأ في ذلك قول الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾^(١). ونبئنا ربنا إلى أن كل مخلوق يرضى بوضعه ولا يتطلع إلى وضع الآخرين، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٢).

إن أعداء الإسلام قالوا: لا فرق بين الرجل والمرأة، وتعالوا إلى بلادنا فانظروا، فالمرأة تعيش حياتها كالرجل تماماً. ونقول لعلماء الغرب الذين يرددون هذه الفكرة: إن ما يتفق عندكم لا يتفق عندنا، فأنتم لكم تقاليد تخصكم لأنكم لم تلتزموا بتعاليم الله وهدى الأنبياء، أما المناخ الاجتماعي عندنا في الشرق فهو محكوم بقيم الأديان السماوية، خاصة أننا نعتنق ونؤمن بأن القيود التي وُضعت حول المرأة هي لصيانة إنسانيتها، وحماية كرامتها ووضعها في المكان اللائق بها، لأنها خُلقت لتكون قائدة بيت، ومعلمة أجيال. إن المرأة عندنا حماها الإسلام من الانزلاق في مهاوى الفساد، ذلك لأنها أم الأبطال، يشرفون بمكانتها، ويعتزون بالانتساب إليها، والإسلام جعلها أمّاً لها مكانتها، وأختاً لها منزلتها، وزوجة لها عزّتها، وبتناً لها كل الحب والإعزاز، فالمرأة في الأساس كوّنت تكويناً عقلياً

(١) سورة النساء، الآية ٣٤.

(٢) سورة النساء، الآية ٣٢.

وذهنيًا يناسب وظيفتها الأصلية التي خلقت من أجلها، وهي أن تكون أسرة، وتبذل جهودها لإسعادها، مع الحفاظ على ترابطها، والاهتمام بتعليمها، وأنها إذا خرجت على هذه الفطرة فقدت مكانتها السامية وابتعدت عن حدود وظيفتها.

وتعالوا بنا نقرأ ما تعانيه المرأة في الغرب من متاعب، وأنها حطمت نفسها لبعدها عن هدى الله وخروجها على مقتضى الفطرة، فقد نشرت جريدة «الأهرام» في ١٩٦١/٥/٢٩ تحت عنوان: (أستاذة جامعية تنصح طالباتها بالزواج)، قالت الأهرام: أستاذة جامعية في إنكلترا وقفت هذا الأسبوع أمام مئات من طلبتها وطالباتها تلقي خطبة الوداع بمناسبة تقديم استقالتها من التدريس، قالت الأستاذة: «ها أنذا قد بلغت الستين من عمري وصلت فيها إلى أعلى المراكز، نجحت وتقدمت في كل سنة من سنوات عمري، وحققت عملاً كبيراً في المجتمع، كل دقيقة من يومي كانت تأتي عليّ بالربح، حصلت على مال كثير، وشهرة كبيرة. أُتيحت لي الفرصة أن أزور العالم كله، ولكن هل أنا سعيدة الآن بعد أن حققت كل هذه الانتصارات؟ لقد نسيت في غمرة انشغالي بالتعليم والتدريس والسفر والشهرة أن أفعل ما هو أهم من ذلك كله بالنسبة للمرأة، نسيت أن أتزوج، وأن أنجب أطفالاً، وأن أستقر، إنني لم أتذكر ذلك إلا عندما جئتُ لأقدم استقالتى، شعرت في هذه اللحظة أنني لم أفعل شيئاً في حياتي، وأن كل الجهد الذي بذلته طوال هذه السنوات قد ضاع هباءً، فسوف أستقيل ويمر عام أو اثنان على استقالتى وبعدها ينساني الجميع في غمرة شغلهم بالحياة، ولكن لو كنت تزوجت وكوّنت أسرة كبيرة لتركت أثراً أكبر وأحسن في الحياة. إن وظيفة المرأة الوحيدة هي أن تتزوج وتكون أسرة، وأي مجهود تبذله في غير ذلك لا قيمة له في حياتها هي بالذات. إنني أنصح كل طالبة تسمعي أن تضع هذه المهام أولاً في تقديرها، وبعدها تفكر في العمل والشهرة».

أَسْمِعْتِ حَدِيثَ الْمَرْأَةِ الْمَجْرُبَةِ؟ أَرَأَيْتِ نِدَاءَ الْفَطْرَةِ فِي أَعْمَاقِهَا؟ فَبِرْغَمِ تَفَوُّقِهَا وَشَهْرَتِهَا تَقُولُ: «مَا نَلْتُ مِنَ الْعِلْمِ وَالثَّرَاءِ شَيْئاً»، لِأَنَّهَا آمَنَتْ أَنَّ وَظِيفَةَ الْمَرْأَةِ الْحَقِيقِيَّةَ وَرِسَالَتَهَا الْأَصْلِيَّةَ هِيَ أَنْ تَعِشَّ عَلَى بَيْتٍ تَنْشُرُ فِيهِ دَفْءَ الْعَاطِفَةِ، وَتُظَلِّلَهُ

بالسعادة، وتحميه بالحب، وتقود سفينته بحسن استعدادها الفطري وتكوينها البيئي، وقيمها الدينية، وعاداتها الاجتماعية، بهذا تسعد بها الدنيا وتنجح المجتمعات.

قالت الفتاة: كيف تحكم علينا بهذا ونحن نعلم أن الله جَلَّتْ قدرته رُكَّبَ في كل من الرجل والمرأة قوة السير والعمل؟ فإن جمد أحدهما في مكانه فقد عطلَّ القوة التي رُكِّبَ فيه، فإذا حَزَبَهُ أمر أو أَلَمَّتْ به ضائقة ضاع في الحياة، لأن موكبها ينطلق في عنف وقوة ولا يعترف بالعجزة والكسالى، ولا بالمتواكلين النائمين، كما أنه لا يفرِّق بين رجل وامرأة، ولا صغير أو كبير؟ إذن على المرأة أن تكون من نفسها قوة تستقل بها عن الرجل وتُبَوِّئُ نفسها مكانة العزة ولا تترك نفسها لرحمة المقادير تحت سيطرة الرجل.

ونظرت إليها طويلاً، وقلت لها: شيء جميل جداً يا فتاتي أن تعمل المرأة، وأن تُكوِّن من نفسها قوة تحميها عند الضائقة، لكن لا تستطيع أن تستقل بنفسها عن الرجل، لأنها خُلقت له وهو خُلِق لها، فليس هناك استغناء لأحدهما عن الآخر، ومن فضل الله ورحمته أنه جَعَلَ لكلِّ ميداناً، فميدان المرأة البيت والأسرة، ولو أحسنت القيام عليهما لعمَّ الخير، وانتشر الأمن والاستقرار، ورفرت السعادة بأجنحتها على الإنسانية بأسرها. وميدان الرجل الشارع والحقل والمصنع والتجارة وغير ذلك من فنون الحياة.. لكن أليس لأحدهما أن يشارك الآخر؟ نعم، ولكن بحدود وضوابط حتى لا يكون هناك إهمال للوظيفة الأصلية، كما أن الأولى بالرجل ألاَّ يكلف المرأة بأى عمل يُذمى بنائها الناعم (العمل الثقيل)، وكذلك لا يكلفها بما يضمنى كيانها الرقيق بالإجهاد في العمل، لتظل من مهدها إلى لحدها (ريحانة غير قهرمانه)، ونحن ندرك أن الحياة تمر بالناس وهم في غفلة لا يحسون بالواقع، وإذا بهم بعد لحظات وقد تبدلت الأحوال وانقلبت الأوضاع النائمة، فتستيقظ حواسهم على هذه الأحداث المفجعة، فإن لم يكن لهم مع هذا الإحساس والصدمة العنيفة عمل وحركة كان الموت الأدبي للرجال، وتُمتن المرأة في كرامتها، خاصة إذا كان الموقف فيه احتياج، ولا يغيب عن بالنا أن الإيثار أصبح

الآن نادراً في مجتمعاتنا بعد أن طغت الأنانية، لذلك نحن لا نفصل أنفسنا عن الواقع، بل نعايشه ونتعايش معه.

والمرأة عليها أن تشارك الرجل، لكن بما يتفق مع كيائها وتكوينها وفطرتها، وأهم ما نوجّه إليه هو أن تتعلم التدبير المنزلي، وهو فن لو تعلمون عظيم، كما تدرس شيئاً عن التمريض، وتتعلم الحلال والحرام، والخياطة والتطريز. ولعلنا نلاحظ أن دولاً أنشأت مدارس لهذا الغرض، كاليابان مثلاً، فهناك مدارس الخطيبات مهمتها إعداد الفتيات لحياة زوجية في بيت يغلفه دفء العاطفة، وتفهيمهنّ كيفية إعداد المنازل، وذلك حتى يعددن للوطن شباباً وشابات يخرسن فيهن الحرص على رقى المجتمع، والتمسك بالنظام العام، والحرص على طلب العلم. وللفتاة إن شاءت دراسة غير ذلك - بشرط الحفاظ على الآداب العامة، والأخلاق الفاضلة، والقيم الموروثة من الدين والبيئة والأسرة - وبذلك يكون ميدان الفتاة أشرف ميدان، ورسالتها في الوجود أسمى الرسائل.

قالت الفتاة: إن ما قلته عن تفوق الرجل على المرأة ليس قاعدة دائمة، لأننا نلاحظ تفوق البنات على البنين في الوقت الحاضر في امتحان نهاية العام، ولعل ذلك يرجع إلى قوة الطاقة الذهنية عند البنات. قلت لها: لا، فإن هذا التفوق في امتحان الشهادات وظاهرة تفوق البنات فيه، مردّه إلى:

١ - البيئة الاجتماعية التي تمنع البنات عن اللعب في الشوارع كالبنين.

٢ - الفتاة في الفصل الدراسي تراجع دروسها أولاً بأول، وتصغى جيداً إلى المدرّس ولا تعانده كما يفعل الشباب.

٣ - جلوسها في البيت وعناية الأهل بها، ورعايتهم لها، ومتابعتهم معها، وعدم السماح لها باللعب في الشارع كما هو الحال مع البنين، كل ذلك جعل الفتاة تتقدم على الفتى في الامتحانات وتتفوق عليه.

قالت محدّثتي: شيء جميل جدّاً، ونحن لا نختلف، لكن ماذا تقول في ذاكرة التاريخ التي سجّلت لنا ما للمرأة من باع طويل في علم القضاء، أو الكيمياء، أو الاجتماع، أو السياسة، وكم كان لها من تأثير بالغ حفظته ذاكرة التاريخ، ونذكر

فى هذا المجال إمبراطورة روسيا «كاترينا الثانية» التى كان يلقبها «فولتير» برجل أوروبا العظيم، ومثل «جان دارك» التى أنقذت وطنها من الاحتلال الأجنبى برغم أنها أعدمت حرقاً بعد أن تحكّم الأعداء فى وطنها، كذلك «شارلوت كورديه» الفرنسية التى قادت ثورة ضد الطغاة، والسيدة العظيمة «مدام دوستال» وما تكبّدت من حرارة النفى لدفاعها عن الحرية فى عهد نابليون، والكاتبة السويدية «فريدريك بريمور» التى وجّهت نداءً إلى نساء العالم طالبت فيه بتكوين اتحاد عالمى للسلام، والسيدة «جوليا وردهو» التى طلبت أن تلقى كلمة فى مؤتمر السلام المنعقد فى باريس عام ١٨٧٨ ميلادية.

كذلك فى سنة ١٨٨٩ م ألّفت مدام «برنافون سوتتر» كتاباً بعنوان: «ألقوا السلاح»، وهذه المرأة بهذا الكتاب خدمت قضية السلام، وفى سنة ١٨٨٨ تأسس فى أوروبا المجلس النسائى الدولى، وكان شعار هذا المجلس «عاملِ الناس بما تُحب أن يُعاملوك به»، وظهر فيه العديد من نوابغ الخطيبات، ودعوتهن إلى تقوية حركة السلام العالمية. وهذا المجلس لا يبيث دعوة سياسية معينة لصالح دولة، بل الكل يبذل جهده لنشر العدالة الاجتماعية فى المجتمع الإنسانى. والتاريخ لا ينسى أنه فى سنة ١٩١٥ م تأسست فى أمريكا أول جمعية نسائية غرضها الدعوة إلى السلام، كما أن نساء هولندا عقدن مؤتمراً فى «لاهاى» حضره نساء الدول المتحاربة من اثنتى عشرة دولة، وإن تعجب من أنه كيف يجتمع هذا العدد من دول متحاربة فى مكان واحد، وعلى منبر واحد، هو الدعوة إلى السلام، فلأن هذا العدد من النساء أرهقتهن الحرب كما أرهقت الأطفال والشيوخ. إن هذه التجمّعات النسائية لم تكن لها صبغة سياسية، وإنما العمل فى حد ذاته لنشر الغايات الاجتماعية النبيلة، وفى مقدمة ذلك تكوين الأمهات تكويناً يجعلهن يفضن إحساساً بالوطنية والتمسك بالقومية، والعناية بالطفل، لأنه رجل المستقبل، ترعاه الأم، كما أن عليها أن تضيف على المنزل جواً من السعادة، ليجد الرجل فيه أمنه وراحته، ويتزود فيه بأطيب زاد ليخرج إلى العمل وهو مستقر الفكر، هادئ النفس، مستريح البال، مطمئن على أولاده وعشه، حيث الزوجة الحانية الآمنة، والأم الرؤوم.

وإذا كنا نضرب أمثلة على مكانة المرأة في التاريخ فلا يفوتنا أن ننوّه (بمداد كوري) التي تُعدُّ حياتها درساً عظيماً للعمل العظيم، والكفاح الشريف، والجهاد المستمر في سبيل العلم لتحقيق حياة أفضل، مع تقديم خدمة للإنسانية.. هذه المرأة التي شاطرت زوجها في بحوثه العلمية وأنجبت طفلين لم تهمل بيتها، ولم تتخلف عن العمل، ولما مات زوجها عرضت عليها الحكومة معاشاً لكنها رفضت، وأصرّت على الرفض وقالت: إنّي لم أزل أعمل، وأنا صغيرة. ولما اكتشفت «الراديوم» واشتهرت توافدَ عليها الزوار، فكانت تنزوي في البيت وتقول: لقد أفسد علينا الصيت حياة العمل والعلم التي كنا نحياها.. كذلك بزغ نجم «سيزبتشر ستو» الأمريكية التي ألّفت كتابها «كوخ العم توم» شارحة فيه كل ما يقاسيه الأرقاء من ظلم صارخ، وقد نبّهت الشعور الإنساني إلى ما يلاقيه أولئك البؤساء التعساء، فغزت بفكرها أنحاء العالم المتمدّن، وبهذا تيقّظ الضمير العام وعطف على العبيد الذين جلبوا من إفريقيا، وكانت ثورة «إبراهام لينكولن»، وقام بثورة تحرير العبيد وإلغاء النخاسة، وسجّل التاريخ بمداد من الفخر والاعتزاز هذا الجهد المبذول لخدمة الإنسانية المعذّبة.

قلت لمحدثتي: رويدك يا فتاة، إن ما تتحدثين عنه من نبوغ المرأة الغربية وقيادتها لكثير من الأمور كل ذلك أخذته من نهضة المرأة العربية إبان حكم المسلمين لبلاد الأندلس، لأن الحضارة دخلت أوروبا منها، وإذا كنت تتحدثين عن الغرب فلم لا تتعرضين للمرأة في الشرق؟ أما سمعتِ عن اليابان وحركة النساء فيها؟ والصين التي بدأت النهضة النسائية فيها حوالي سنة ١٨٩٤ م، لأن التقاليد لم تكن تسمح للمرأة بمزاولة أي شيء، ولا تعترف لها بشخصية ولا إرادة، وفي عام ١٩١٤ م دخلت الفتاة الصينية الجامعة، وفي عام ١٩٢٢ م طالبت بحقها في الانتخابات، وأصدر النساء جريدة «مملكة السماء» كل من فيها نساء، كما تأسس مصرف للنساء نجح تماماً.. وما دمنا عرّجنا على بلاد الشرق فلا بد أن نزور الهند، لأن بها تأسست جمعية نسائية سنة ١٩١٩ م، ولها ثمانون فرعاً في أنحاء الهند، وهدف هذه الجمعية بفروعها محاربة «البغاء» وتعدد الزوجات، والزواج

المبكر، وكانت الجمعية تشمل جميع النساء، بغض النظر عن اختلاف أجناسهن وعقائدهن وعاداتهن، كما حاربت الجمعية مبدأ حرق المرأة مع زوجها إذا مات، وأباحوا لها أن تتزوج بعد وفاته، وكان لذلك أثره في نهضة المرأة المسلمة وظهور شخصيتها، حيث مارست الطب وعملت طبيبة ومُدْرِّسة، ثم شاركت في حركة التحرير التي قادها «محمد علي جناح»، فاستنهضت الهمم، ولن ينسى التاريخ موقفها، لأنها أنشأت جمعية «العصبة المسلمة» للدفاع عن حقوق المسلمين في الهند، ولقد برزت شخصيات ولمعت أسماء للدور العظيم الذي أدته على مسرح الحياة، ومن هؤلاء السيدة «فيروز خان»، والسيدة «بيكم شاه فواز»، والسيدة «فاطمة بيكم»، وغيرهن كثيرات، بل لقد دخل السجن منهن كثيرات، علاوة على من استشهد منهن، ونتيجة لذلك تحررت باكستان، وكان ذلك من عام ١٩٣٧ إلى عام ١٩٤٧ م. ولقد أثر ذلك في أندونيسيا، حيث قامت نهضة نسائية، وقامت السيدة «أجنيج كاريتيني» بنشر عدة مقالات بعنوان: (من الظلمات إلى النور)، وكان لذلك أثره في نهضة المرأة هناك، وتم فتح مدرسة عام ١٨٩٥ م.

فإذا ما انطلقنا إلى فارس في منتصف القرن التاسع عشر فإننا نجد المرأة حاولت أن تتحرر من تقاليد الجمود الذي خيّم على جو البلاد، وكان لشخصية «رزين تاج» الملقبة بقرة العيون أثر في تحرير المرأة، إلا أنها كانت تؤمن بالبهائية وتدعو إليها، لذلك قضى عليها ملك الفرس «شاه محمد شاه»، وقادت الحركة بعدها الأنسة «شمس المعالي» التي كانت تتسم بالشجاعة، ولقد تأزمت الأمور في البلاد بسبب ضعف الحكومة فلم يكن أمامها إلا أن دخلت المسجد وصعدت المنبر واحتجّت باسم نساء فارس على ضعف برلمان بلادها أمام التهديدات الروسية، ولم تكتفِ بذلك، بل قادت مظاهرة نسائية من ثلاثمائة امرأة خرجن من بيوتهن وتوجهن إلى البرلمان وهن يخفين المسدسات في طيات ثيابهن، وكانت لهن وقفة مشرفة أجبرت البرلمان على أن يقف ضد أطماع روسيا. وفي سنة ١٩٣٢ م عقد مؤتمر للنساء المسلمات تحت رعاية إحدى أميرات الأسرة المالكة الفارسية للبحث في الشؤون المختلفة. كذلك أفغانستان، قامت فيها نهضة نسائية، لكن كان الغرض

منها هو قلب نظام الحكم بقيادة الملكة «ثريا» التي ثارت عليها البلاد وخلعتها مع زوجها أمان الله خان».

من هنا يا فتاتي يتبين أن المرأة لم يَخْبُ ضوؤها، ولم تتكسر رايتها، ولم تتوقف حركتها إلا إذا عاقتها الظروف الاجتماعية والتقاليد البيئية، وبرغم ما مر بها من استبداد الرجل بشخصيتها واستهانته بها والتحكم في مصيرها فإنها قاومت وصمدت، وتحركت على مسرح الحياة لتثبت وجودها كلما سنحت الظروف لها، لأنه من المعلوم - كما قلنا - أن المرأة جناح المجتمع الثاني لا ينهض الأول إلا به، فإذا كانت المرأة لاقت صنوف الاضطهاد فإن ذلك ليس لعيب فيها، ولا انتقاص من قدرها، ولا إهدار لكرامتها، وإنما مردُّ ذلك إلى عُزفِ اجتماعي خاطيء، أو تقليد أعمى، أو جهل بحقائق الأشياء.

قال أحد الجالسين ممن يدرسون في كلية الآداب: إن تركيا اتجه الرأي العام فيها على يد السلطان محمود إلى إصلاح حال النساء والنهوض بهن، وفتح مدارس لهن، وعندما تولى «كمال أتاتورك» حكم البلاد كانت نهضة النساء سريعة، وعليها مآخذ: لأنه ساوى في الميراث بين الرجل والمرأة، ومنع تعدد الزوجات، وأباح لها أن تتولى القضاء، وتعمل في النيابة والمحاماة والبوليس، واشتغلت بالهندسة، وعملت عمدة في القرى. لكن في العراق أنشئ ناد نسائي عام ١٩٢٥ م وركز نشاطه على محو الأمية في البلاد، ويمثل ذلك في سوريا ولبنان وفلسطين، وكانت هذه الجمعيات والأندية تقيم مؤتمراً سنوياً وتدرس فيه حقوق المرأة.

لكنَّ زميلاً رفع صوته قائلاً: لماذا لا نتحدثون عن إفريقيا، لأن في شمالها تونس والجزائر ومراكش وقد تأخرت النهضة النسائية فيها عمَّن سواها من بلاد الغرب، وذلك لشدة الوطأة العتيقة الناشئة من التمسك بالتقاليد من جهة، ومن ضغط الاستعمار من جهة أخرى، لكن الحرب العالمية نبهت الأذهان، وأثرت في شرائح المجتمع، فهبت تلك الشعوب مطالبة بحقها، وفي مقدمتها المرأة، حيث قامت بمظاهرات نسائية يطالبن بما لهن من حقوق ضائعة. أمّا في أواسط إفريقيا فالطبيعة فيها قاسية، والحيوانات المفترسة كثيرة، والمرأة تحتوى بالرجل الذي

يحميها من الوحوش الضارية، لذا فالمرأة تعيش على الجهل والتخلف.

عند هذا الحديث توقفنا قليلاً وقلت لهم: سبحان الله مُقلِّب الأمور، وخالق القضاء والقدر، جعل المرأة تعيش هكذا وهكذا، شأنها شأن التطور والرقى الذى يصيب البشرية بين حين وحين، أو بين مدٍّ وجَزْرٍ! لكن آخر انبرى بالحديث وقال: لماذا لا تتحدثون عن المرأة المصرية وأنتم تعلمون أن بعض العرب كانوا يدفنون البنات أحياء؟ إننا نجد هنا - فى مصر - أن فرعونها أمر بقتل الذكور وإحياء الإناث، أليس فى ذلك ما يوجب علينا أن نلقى عليها نظرة، خاصة فى أيام الحاكم بأمر الله الذى كان مصاباً بالاضطراب النفسى، لذلك أمر بمنع خروج النساء إلاً بالثياب، ثم غَالَى فى استبداده ومنع المرأة من الخروج نهائياً، ثم منع صنْع الأحذية للنساء حتى لا يستطعن الخروج من بيوتهن، ولما غضب التجار أمر بإغلاق مَحَالِّهم. كما أنه فى عهد المماليك كان محجوراً على المرأة ومُضَيِّقاً عليها، فما كان يجوز لها أن تظهر أمام الرجال، حتى ولو كان الطبيب، مهما بلغ بها المرض، فتسلم نفسها للقبر ولا تُعْرَض على الطبيب. ولما دخل نابليون مصر حمل شعاعاً من المدنية، وفى طيات ذلك بصيص من الحرية للمرأة، لكن مع الأسف، كانت حرية نجسة، لأنه أباح البغاء ونظم شئونه، وكان ذلك منزلقاً من مزالق الشر نصبه الغرب فى مصر الإسلامية، بل زعيمة العالم الإسلامى (بلد الأزهر الشريف).

وفى عهد محمد على أنشأ أول مدرسة للبنات (خاصة أنه تعلم القراءة والكتابة على يد سيدة فى القصر) كما يقول الكاتب الفرنسى «إدوارد جوان» مؤلف كتاب تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر. وفى عهد إسماعيل باشا، بنت زوجته مدرسة السنية بالسيدة زينب، وقادت النهضة النسائية وقتها، ثم جاء الشيخ رفاعة الطهطاوى فنادى بتعليمها، ولما أنشئت دار الأوبرا خصص بها مكان للمرأة، وهذا اعتراف بمكانتها، ثم وفد على مصر جمال الدين الأفغانى، وكان لتوجيهاته أثر فى النهضة الفكرية، وقد استفادت منها المرأة، وظهر فى سماء الأدب «عائشة التيمورية» التى كانت تجيد اللغة العربية والتركية والفارسية، كما كانت على دارية

كبيرة بالأدب واتجاهاته ومدارسه. كما أن السيدة «زينب فواز» نبغت في الشعر، ولها آثار أدبية رائعة.

وبرز دور المرأة جلياً في الصالونات الأدبية التي بدأت في الظهور والانتشار وأدت المرأة فيها دوراً أثّر في فكرها الاجتماعي، لذلك رأينا البرنسيصة «عين الحياة أحمد» تنشئ مبرة محمد علي، والسيدة «فاطمة هانم إسماعيل» كان لها الفضل في إنشاء الجامعة المصرية، حيث أوقفت ٨٠٠ فدان، وتبرعت بحليها ومجوهراتها لهذا العمل الرائد الجليل، ثم ظهر على الساحة «قاسم أمين» الذي دعا إلى تحرير المرأة، وثار عليه الرأي العام، ورفض «عباس حلمي الثاني» أن يقبل منه كتاب «تحرير المرأة» الذي يقول فيه: «لست أقصد من تحرير المرأة خروجها على العادات والتقاليد، بل إنني أطالب أن تتمسك بعوائدنا الإسلامية وتحترمها، فهي مزاج الأمة، تتماسك به أعضاؤها، ولست ممن ينظر إليها نظرتة إلى الملابس، تخلع ثوباً كل يوم لتلبس غيره، بل أريد أن تتحرر من حجابها المصطنع، لأنني أعتقد أن لردّ الحجاب إلى أصله الشرعي مدخلاً عظيماً في حياتها المعيشية»، والذي نتبيّه أن دعوته كانت لتخليص المرأة من ظلم خاطئ، حاق بها، وكان يريد لها أن تُسائر التطور الاجتماعي في حدود الدين، لكن مع الأسف خرجت المرأة مبتذلة، واتهمه الناس بأنه السبب، لذلك نراه يقول: «إن الناس يتهمونني بأبني أتيتُ ببدعة، وفي أن ما أدعو إليه بدعة، لكن في العادات لا في الدين».

والعادة قوية التأثير تتغلب على كل شيء، حتى الفضيلة والدين، والعلم هو الذي يستطيع فضح العادات السيئة وردها إلى الحق، والإسلام وحده هو الذي وعد المرأة بتحقيق حريتها، لكن المسلمين في عصور الاستبداد ساء فهمهم للدين وللمرأة ولحقائق الحياة، ألم تسمع أن العمدة في مصر في عهد الاستبداد كان إذا ضاع منه عشرة جنيهاً أخذ بدلاً منها مائة جنيه من الفلاحين، وإذا ضربه المدير «علقة» يعود إلى بلده فيضرب مائة فلاح، وفي هذه الآونة دوى صوت نسائي جديد، هو صوت السيدة «ملك ناصف» والمعروفة باسم «باحثة البادية» وكانت في دعوتها الإصلاحية تعالج المشاكل بحكمة وروية، تأخذ من عبرة الماضي وأثره في

حركة الحياة لتربطه بالحاضر، فهي تتبع السبيل الأمثل في علاج مشكلة المرأة، ولقد طالبت بدخول النساء للمساجد ليتعلمن الدين، ويحضرن صلاة الجماعات، كما طالبت بجعل التعليم الابتدائي إلزاميًا للبنين والبنات، كما طالبت بتحديد حقوق تعدد الزوجات، لأنه انتشر بلا مبرر، وفيه سعة لواحدة وظلم لأخرى، والدين أمر بالعدل، وعدم صحة الطلاق في غياب المرأة. وكانت قدوة في ملبسها، حيث كانت ترتدى العباءة الفضفاضة مع غطاء الشعر.

ثم ظهرت السيدة «نبوية موسى» وكانت مدرّسة في وزارة المعارف، ونادت بالفصل بين الجنسين في ميداني العلم والتعليم، والمهنة والعمل، وإذا كان التعليم حقًا للفتاة فعلى شرط احترام العادات والعرف وقيم الدين. لقد كانت مربية فاضلة، أسست مدارس بالإسكندرية، وابت بها مساجد، وكانت شاعرة رقيقة العبارة. وهكذا كان الفضل للرائدات في نشر هذه النهضة التي أخذت تنمو وتترعرع، واندفع فكر المرأة المصرية من عقاله، مما دفع بها أن تسهم في مجال السياسة والاجتماع وغير ذلك، مما يتطلبه الوضع الاجتماعي في هذه الحقبة من الزمن، وكان نتيجة ذلك أن شاركت المرأة في ثورة ١٩١٩ م عندما ثارت مصر من أقصاها إلى أقصاها، ونزلت المرأة الميدان تجاهد وتجادل، وكان لربات البيوت والكريمات العفيفات دور كبير في مشاركة الرجال واجباتهم الوطنية.

لقد أصرت المرأة أن تحضر الاجتماعات السياسية، وتشارك في اللجان القومية، وتتردد على المساجد والكنائس لتقوية الحماس الوطني في نفوس الجماهير، ولقد شهد مسجد السيدة زينب أول اجتماع لهن حضرته حرم عمر سلطان باشا، وحرم راتب بك، وحرم خياط بك، وحرم رفيق بك، وغير ذلك كثيرات، على رأسهن السيدة «هدى شعراوي»، وكان الحماس يأخذهن فيقفن أمام مدافع الإنجليز في المظاهرات الحماسية عندما نُفِيَ سعد زغلول وصحبه إلى مالطة، وتقدمت أم المصريين «صفية زغلول» هذه المظاهرات وقد أسدل النساء على وجوههن النقُب، وعلى أجسامهن الخُمُر، رافعات علم الوادي فوق رؤوسهن وشارة سوداء كُتِبَ عليها باللون الأبيض الاحتجاج على نفى سعد زغلول وصحبه،

وسارت هذه المظاهرة إلى أن وصلت إلى قنصلية أمريكا، لكن جنود الإنجليز اعترضوا مسيرة النساء، وصوّبوا المدافع إليهن فما جَبُنَّ ولا انثنَيْنَ عن وجهتهن، بل ظهرت الشجاعة عليهن. وقد وقعت السيدة «شفيقة محمد» شهيدةً سنة ١٩١٩ م، وكانت وحيدة أبويها، كما أن النساء اتفقن على مقاطعة الإنجليز وعدم شراء أى شىء له صلة بهم، وفي ٣١ ديسمبر ١٩٢١ أذاعت السيدة «صفية زغلول» بياناً على الشعب جاء فيه: «ضُمَّوا صفوفكم، وقوّوا أفئدتكم، وتجاهلوا الإنجليز، فلا معاونة ولا مساعدة، ولتكن جاليتهم بيننا كالجزيرة المنقطعة يفصلها عنا بحر من مظالمهم» إلى آخر ما جاء فى البيان.

وبسبب هذا البيان أقبل المصريون على بنوك الإنجليز يسحبون جميع أموالهم، كما وقف الطلبة أمام المحال التجارية يمنعون الدخول إليها، لذلك أفلس عدد كبير من البنوك، وأغلقت بعض الشركات أبوابها، فأرسل اللورد «لوبي» إلى وزارة الخارجية البريطانية يوم ١٩٢٢/١/٥ يقول لهم: «التجار الإنجليز فى قلق... المقاطعة تشتد... مدام زغلول نشرت بياناً من نار على الشعب».

لقد كان لذلك أثره الطبيعى فى إشعال روح النهضة النسائية، خاصة بعد الحرب التى أحدثت اتجاهاً فى نفسية المرأة، فاندفعت إلى الحياة العامة، لكن أهل الرأى توجسوا خيفة من الرَجَّات الاجتماعية التى تعقب الحروب، لذلك رفعوا لها رايات الإصلاح، وفتحوا لها الباب لتكوين الجمعيات، وإنشاء المستشفيات، وإعداد المشاغل للفتيات. وكان ممَّا يُثلج الصدر ظهور جماعات نسائية تهدف إلى غايات نبيلة، وسائلها تكوين المرأة المسلمة المحتشمة والبيت المسلم المتمسك بالقيم الدينية والبيئة الإسلامية النظيفة الطاهرة مع الأخذ فى الاعتبار أنه إبان هذه الحركة كانت أعاصير المدنية الغربية تهبُّ على مصر وهناك موجة من التبرج والانحلال، ولكلِّ أبواقه ومناصره، وأصبح الوقت عصيباً، لكن ظهرت جماعة «الأخوات التيجانية» وكان لها أثر عظيم فى نشر روح الفضيلة والنقاء والصفاء، والتمسك بأهداب الشريعة. كذلك ظهرت جماعات «الأخوات المسلمات» التى تدعو إلى الالتزام بقيم الإسلام والعمل الاجتماعى المنظم. وأنشئت جمعية الهلال

الأحمر، وغايتها مواساة الضعفاء والأرامل وذوى الحاجة، وجمعية الأميرة فريال، ثم أُسِّت «جمعية سيدات العشيرة المحمدية» وقامت بدور رائد عظيم فى المجتمع، ونهضت فى تحفيظ النساء القرآن الكريم، مع إعطائهن جرعة من الشريعة ومعرفة الحلال والحرام، وجماعة «السيدات المؤمنات» بمصر الجديدة، و«جمعية السيدات المسلمات» سنة ١٩٣٧ م، وكان لهن جهد عظيم فى إنشاء المعهد الدينى للفتيات، كما أسَّسْنَ مشغلاً لتعليم الخياطة والتطريز، وصناعة السجاد.

وبجوار هذه الجمعيات الدينية كانت هناك اتحادات نسائية غلبت عليها السياسة، كالاتحاد النسائى، والحزب النسائى، وحزب بنت النيل، وكان الهدف منها هو إعطاء المرأة حق الانتخاب، والمشاركة فى العمل السياسى.

إنه من المعلوم أن نابليون ترك وصمة عار عندما أباح البغاء، والحرب خلَّفت وراءها المآسى الكثيرة، لذلك كان لوجود هذه الجمعيات والاتحادات أثر عظيم فى فتح آفاق اجتماعية أمام المرأة لتمتص الفراغ من حياتها، وحتى لا تنزلق فى أى شىء يهدر كرامتها، ويحطم إنسانيتها، ويتركها فريسة للهمم والأحزان.

لكن الفتاة قالت: هل سمعتم قول الشاعر الذى يقول:

مَجْدُ الْفَتَاةِ مَقَامُهَا فِي الْبَيْتِ لَا فِي الْعَمَلِ
وَالْمَرْءُ يَعْمَلُ فِي الْحَقُولِ وَعَرْسُهُ فِي الْمَنْزِلِ
مَنْ لِلْوَلِيدِ يُعِينُهُ فِي لُبْسِهِ وَالْمَأْكَلِ
مَنْ لِلرَّضَاعَةِ وَالْحَضَانَةِ وَالنُّظَامِ وَمَا يَلِي
لَكِنْ إِذَا دَعَتِ الضَّرُورَةُ لِلخُرُوجِ فَحَيَّهَلِ
لَا تَنْكَسِي أَرْضَ الشَّوَارِعِ بِالْإِزَارِ الْمُبْتَلِ
أَمَّا الشُّعُورُ فَحُكْمُهُ فِي الشَّرْعِ لَيْسَ بِمُعْضِلِ

قلت لها: يا فتاتى، لقد أصاب هذا الشاعر فيما قال، لكننا لا ننكر أن الجمعيات عندما قامت كان الوطن فى حاجة إلى هذا النوع من الخدمة، فليكن من المعلوم لنا أن العمل فى هذه الجمعيات تطوع وإسهام فى الخدمة الاجتماعية لله

وفى سبيل الوطن، خاصة عند الحروب أو الأزمات الاقتصادية أو الكوارث، ولكلِّ
مقامٍ مقالٍ.

ثم استطردت قائلاً:

إن هذه ليلة من ليالى العمر عظيمة، قضيناها نقلب فى صفحات التاريخ،
وانتقلنا فى العديد من القارات، وعشنا فى تاريخ أولئك النسوة، ومجمل القول أن
الكل أجمع على أن المرأة هى عماد الأسرة وقوامها وراعية البيت، وإذا كان لظهور
أولئك السيدات ظروف خاصة دفعتهن إلى العمل فكنَّ كخوارق الطبيعة ومعجزاتها،
وكنَّ كالأنجم الزهر تخرق أضواؤها الآفاق الملبدة بالغيوم ييزغن فى أوقات الفتن
والاضطرابات، ولا يغيب عن بالنا أن الحكومة الروسية التى نادت بالمساواة
المطلقة بين الجنسين تراجعت عن ذلك، كما جاء ذلك فى بحث نُشر عام ١٩٤٤ م
فى مجلة «الرسالة» بقلم الأستاذ عباس العقاد يقول فيه: «إن الحكومة الروسية
أمرت بالفصل بين الجنسين فى دور التعليم بعد أن مزجت هذا التعليم سنوات
متتالية على أساس المبدأ الشيوعى القائل بمساواة الرجل والمرأة فى الملكات
العقلية والنفسية، وبنت هذه التفرقة على تحقق الفروق بينهما مع اتحاد السن
والمجهود فيهما، وربما كان لهذا النهج الذى انتهجته روسيا أخيراً أثر فى اتجاهات
التربية الجديدة وما تصدره من قرارات...»، ثم ختم كلامه مندداً بطلاب المساواة
من الجنسين حيث يقول: «هذه هى الحقيقة التى ينبغى أن يتلقفها ببغاوات
الصيحات الجديدة فى هذا الشرق المسكين، تلك الصيحات التى لا يصلح أن
تردد إلا فى الأقفاص التى تليق بها ولا تتجاوزها إلى حقائق الحياة وقواعد الآراء
التي تُنَاط بها مصائر الأجيال».

ولعلَّ من المفيد أن فنقل هنا ما قاله الزعيم السوفيتى «ميخائيل جورباتشوف»
فى كتابه «البروسترويكا»: «وغالباً ما ينظر إلى درجة تحرير المرأة كمقياس للحكم
على المستوى الاجتماعى والسياسى للمجتمع، لقد وضعت الدولة السوفيتية حدًّا
للتميُّز - ضد المرأة - الذى كان سائداً فى روسيا القيصرية بتصميم وبدون مساومة،
وكسبت المرأة مكانة اجتماعية يضمنها القانون، وتتساوى مع مكانة الرجل، ونحن

نفخر بما قدمته الحكومة السوفيتية للمرأة، نفس الحق في العمل كالرجل، والأجر المتساوي للعمل المتساوي، والضمان الاجتماعي، وأتيحت للمرأة كل فرصة للحصول على التعليم لبناء مستقبلها، وللمشاركة في النشاط الاجتماعي والسياسي، وبدون إسهام المرأة وعملها المتفاني ما كان بمقدورنا أن نبني مجتمعاً جديداً أو نكسب الحرب ضد الفاشية، ولكن طوال سنوات تاريخنا البطولي والشاق عجزنا عن أن نولي اهتماماً لحقوق المرأة الخاصة واحتياجاتها الناشئة عن دورها كأم وربة منزل، ووظيفتها التعليمية التي لا غنى عنها بالنسبة للأطفال. إن المرأة غدت تعمل في مجال البحث العلمي، وفي مواقع البناء وفي الإنتاج والخدمات، وتشارك في النشاط الإبداعي، لم يعد لها وقت للقيام بواجباتها اليومية في المنزل والعمل فيه، وتربية الأطفال، وإقامة جو أسرى طيب.. لقد اكتشفنا أن كثيراً من مشاكلنا في سلوك الأطفال والشباب وفي معنوياتنا وثقافتنا وفي الإنتاج تعود جزئياً إلى تدهور العلاقات الأسرية، والموقف المتراخي من المسؤوليات الأسرية، وهذه نتيجة متناقضة لرغبتنا المخلصة والمُبَرَّرة سياسياً لمساواة الرجل بالمرأة في كل شيء. والآن في مجرى البروسترويكا بدأنا نتغلب على هذا الوضع، ولهذا السبب فإننا نجري الآن مناقشات حادة في الصحافة، وفي المنظمات العامة، وفي العمل، وفي المنزل بخصوص ما يجب أن نفعله لنسهل على المرأة العودة إلى رسالتها النسائية البحتة».

هذا كلام رجل حَكَمَ ثاني دولة في العالم، وهي التي تزعمت العالم في النداء بالمساواة بين الرجل والمرأة، ودفعت بها إلى أن تنزل إلى كل مواقع العمل والإنتاج، وفي سبيل ذلك تفككت الأسرة وضاعت وانهارت.

وَإِذَا أُصِيبَ الْقَوْمُ فِي أَخْلَاقِهِمْ فَأَقِمِّ عَلَيْهِمْ مَأْتَمًا وَعَوِيلاً

ولقد أقيم المأتم، وانتهت الشيوعية إلى غير رجعة، وتفككت أكبر دولة في العالم، ذلك لأنه لا يصح إلا الصحيح، ومن هنا بدأ أكبر مسؤل في الدولة ينادي بأن على المرأة أن تعود إلى المنزل، وترتب بيتها، وتحتضن أطفالها، وتؤصل فيهم قيم الحياة، وتغرس فيهم مبادئ المجتمع، وتلقنهم مبادئ الدين. هذا هو

نداء الفطرة، وهذا هو الحق الذي لا خلاف فيه. ولعل مَنْ يُخادع نفسه ويضلل فكره يثوب إلى رشده، ويستمع إلى هتاف ضميره ونداء الفطرة من أعماقه ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾^(١)، وليس هناك داعٍ أن نغمض أعيننا عن الحق وننكر ضوء الشمس، بل علينا أن نقول: إن الرجوع إلى الحق فضيلة.

تلك ليلة كانت من أمتع الليالي، حيث قَلَّبْنَا صفحات التاريخ، وصلينا الفجر بوضوء العشاء في خير صُحْبَةٍ من الشباب وبعض الفتيات. وهذه دروس مُسْتَفَادَةٌ نأمل أن تكون زاداً لشباب أُمَّتِنَا، وذكرى في ضمير الأمة التي تتمسك بالدين، وتحافظ على القيم والتقاليد، وتعيش بروح وثَّابَةٍ، وهِمَّةٍ عالية، لتبنى في صرح المجتمع الذي وَضَعَ له السابقون اللَّبِنَاتِ القوية في كيان اجتماعي ترجو له التقدم والازدهار.

(١) سورة الأنعام، الآية ٨٨.

المرأة في ذاكرة التاريخ

الكون في سكون وخشوع، لأن القمر لفته بملاءته البيضاء، وزاد من روعة الجلال والبهاء هذا الصبح الذي اجتمع ليتحدث عن خيل الليل وهي تعدو مسرعة من وادٍ إلى وادٍ مُقْبِلَةً من الشرق، حيث القمر يطوى مُلَاءَتَهُ البيضاء ويلفها في الغرب، لأن جيش الظلام الزاحف من قِبَلِ المشرق يغطي الكون بملاءته السوداء. قال صاحبي: تَطَلَّعْ وانظُرْ معي إلى هذا القمر، إنه هو الذي أشرق لآدم وحواء ليلة هبوطهما من الجنة، فكافأه بكل ما قدرا عليه، حيث تبادلوا معه الابتسام الذي بقي إلى يومنا هذا في مسحة الجمال وجاذبية الحب!

قلتُ له: الكون كله خاشع لله الواحد الأحد، وكل شيء في الوجود له لغة يخاطب بها نظيره، والإنسانية لو تأملت هذا الجمال الإلهي المبعوث في الكون لاستقامت على الجادة واهتدت إلى الصراط المستقيم، وأمنَ البعضُ من الكُلِّ، واستراحَ الكُلُّ من البعض، وعندئذ تتألف البشرية، لأنها تشرب كثوس الحب طاهرة صافية، وكل واحد يعيش في الدنيا يأخذ ما لهُ ويعطي ما عليه بلا غش ولا خداع ولا مكر ولا خيانة، في مجتمع متآلف متعاون، لا حقد فيه ولا حسد. لكنَّ زميلاً قطع هذا الحوار وقال: وماذا في جعبة التاريخ عن حواء؟

قال أحد الزملاء ردًا عليه: إنها مظلومة ظُلم الذئب في دم ابن يعقوب.

قالَ آخر: تعالوا بنا نتعرف على ما كان يفعله المصريون مع المرأة. كان الرجل إذا أعجبه ابنته تزوجها، كما أن الأخ كان يتزوج بأخته، وليس هناك عقود موثقة، وإنما يتم ذلك بالتراضي بين الطرفين. وزاد الطين بلَّةً أن اليونانيين عندما حكموا مصر منعوا المرأة من التصرف في مالها، ولم يجعلوا لها حقًا في التملك، وصار كل شيء للرجل، لأنه مصدر الثروة وصاحبها، والمرأة في نظرهم دون

الرجل، حتى وإن جلست على العرش. وفي بلاد فارس كانت المرأة حقًا من حقوق الرجل، له قتلها - ولا يُسأل لِمَ فعلَ ذلك - والحُكْم عليها بما يشاء، لأنها في نظرهم سلعة يتصرف فيها كما يتصرف في أى شيء من متاعه، ولا حَظَّ لها من العلم، ولا يجوز لها أن تخرج من البيت إلا لخدمة الرجل. والمرأة في شريعة البراهمة في الهند منحطة، ولا يجوز لها أن تكلم الرجل إلا باحترام، كما كان المجتمع يمتهن الرجل الذى يُحادث زوجته أو أن تجلس معه على المائدة، لأنه لا يجوز للمرأة أن تحادث الرجل وتأكل مه، وكانت إذا مات زوجها ترقد بجواره على المحرقة - وهى بكامل إحساسها - لِتُحَرِّقَ معه، ولا يجوز لها أن تعترض على أى شيء.

ويُذكر أن أميرين من الهند - منذ حوالي ثلاثمائة سنة - تزوج أحدهما بسبعة عشرة امرأة والآخر بثلاث عشرة، وقد رقد هذا العدد من النساء على المحرقة وهن بكامل صحتهن وأُحْرِقْنَ مع الزوج عندما مات. والحامل كانت لا تُحَرِّق مع زوجها إلا بعد الوضع، فترقد على المحرقة التى أُحرق عليها زوجها لتحرق. ويحفظ التاريخ فى ذاكرته أن بعض الشرائع الهندية تقرر بأن المرأة إذا ماتت فلزوجها أن يتزوج فى أى وقت شاء، أمّا الرجل إذا مات فإن المرأة تقضى بقية حياتها أرملة لا تتزوج، وتكون تحت وصاية أولادها، فإن لم يكن لها أبناء فهى تحت وصاية أقارب الزوج، لأنها ليس لها أهلية، ولأنها غير طاهرة. وعندما تلد المرأة فى عُرفهم تكون هى والبيت الذى وُلدت فيه غير طاهرين لمدة عشرة أيام، وإذا لم تلد المرأة ولدًا فى مدة عشر سنوات يطلقها زوجها وليس لها أى حق.

وحدث المرأة عند اليابانيين ليس على ما يرام، لأنها فى نظرهم متاع، وقد أبيع للرجل أن يبيع زوجته أو ابنته، وظل الأمر على هذا الحال حتى عام ١٨٧٥ م فقضى على هذه العادة. والصين أباحَت للرجل أن يجمع أكثر من مائة زوجة فى وقت واحد، كما كانت الفتاة تُعزَل عن إخوتها الذكور، والمرأة عندهم تُحرم من ميراث زوجها أو أبيها. يقول «كونفوشيوس»: «إن الرجل رئيسٌ فعليه أن يأمر، والمرأة تابعة فعليها الطاعة».

أمّا الآشوريون والبابليون فكان الرجل فيهم لا يملك أن يزوج ابنته، وليس للمرأة أن تزوج نفسها، وإنما الأمر إلى الكهان، وقد كانت النساء يجتمعن مرة في العام عند هيكل «ميلتيا» ربّة الجمال، لتهب المرأة نفسها لأي رجل أجنبي يمد يده إليها وتسير وراءه ما دام قد اختارها ولو كان دميم الخلقة، قبيح المنظر، فليس لها أن تردّ يده، ولا تخرج من الهيكل حتى تؤدي حقه الذي يريده منها، لأن طلبه أخذ حكم الفرض في عرفهم، أمّا إذا كانت دميمة ولم يرغب فيها أحد فلها الويل من تبكيت النساء زميلاتهن في المعبد.

وهل أتاك حديث الرجل العربي الذي كان يحفر القبر لابنته ليضعها فيه، في حين كانت هي تبتمس له براءة وتنفض الغبار عن لحيته ووجهه، ومع ذلك يهيل التراب عليها وهي حية، وتنقلب الابتسامة إلى صراخ، وتناديه فلم يرق قلبه، ولم تلتن عاطفته، بل يطأ بقدميه على القبر ويتنهد كأنه أزاح الهمّ عن نفسه!

ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد من القبائل التي تفعل هذا، بل كان هناك من يتشاءم من ولادة الأنثى، فإن أبقاها حية فليس لها حق في اختيار الزوج، وليس لها عنده حقوق، فلا ترث بل تُورث كالمتاع، وكان الولد أحق بزواج أبيه، لأنها ميراثه. ولقد كان وأد البنات يتم لسبيين: السبب الأول خشية العار، والسبب الثاني الخوف من أن تشارك الفتاة أباهما في الطعام وتطلب منه الكساء.

وكان من فضل الله أن عادة الوأد كانت في قبائل محدودة من قبائل العرب، كربيعة، وكندة، وتميم، وبعض الأشخاص المغمورين من قبائل العرب، ولو أن هذه الجريمة الموبقة انتشرت بين جمهور العرب لما كان هناك بقاء للجنس العربي، لكن - والحمد لله - كان الوأد محصوراً في أماكن قليلة من الجزيرة العربية.

لقد كان الوأد أشدّ وأشنع ما اقترفته يد الإنسانية الظالمة في نفس بريئة طاهرة، لأن الرجل الذي يعمد إلى وليدته التي بدأت تستقبل الحياة وتستنشق نسيمها فيقذف بها في حفرة ويهيل التراب عليها، تستغيث فلا تُغاث، ذلك الرجل - أو الأب - ذهب بعقله الغيرة العمياء، فتبلّدت أحاسيسه، وماتت مشاعره.. ولكن ما كان الله ليُنذر المرأة على ما هي عليه، فبين الحين والحين كانت تظهر

صيحات لتأخذ بيد المرأة وتجعلها تتبوأ مكان الريادة فى المجتمع . . إن نظرة المجتمع العالمى إلى المرأة آن ذاك انعكست عليها، فأحاط بها الذل من كل جانب، وظلت ترزح تحته ردحاً طويلاً، فتعطل بذلك أحد جناحي المجتمع، وَوُضِعَتْ حولها أمثلة لتبرر ما يُفَعَلُ بها. فمثلاً:

المثل الصينى يقول: «أنصت لزوجتك ولا تُصدِّقها».

والمثل الأسباني يقول: «أحذر المرأة الفاسدة، ولا تَرَكَنْ إلى المرأة الفاضلة».

والمثل الإيطالى يقول: «العصا للمرأة الصالحة والطالحة».

والمثل العربى يقول: «مشورة المرأة إن صَحَّتْ فبخراب سنّة، وإنْ أخطأت فبخراب الدهر كله».

ويقول المثل العربى أيضاً: «شاوِرُوهُنَّ وخالفُوهُنَّ».

ذاك مما وعاه التاريخ فى ذاكرته، والتاريخ لا يكذب، لأنه يقول للإنسانية بأسرها: هاؤُمُ اقرءوا كِتَابِيه، لأن كل ما صنعتموه مُسَجَّلٌ على جبينى، ومحفور فى ذاكرتى، وإنْ كانت عقولكم تنسى، لأن العلة تعترىها والمرض يصيبها، أما أنا، فأنا السَّجَلُ الحافل، والكتاب الشاهد على أعمالكم، وذاكرتى لا يعترىها علل ولا أمراض.

ولعلنا نذكر أن الذين وضعوا الأمثال ضد المرأة قابلهم فئة أخرى فوضعوا أحاديث نسبوها إلى رسول الله ﷺ، والرسول منها براء، مثل ما رواه الحاكم: «لا تسكنوهن الغرف ولا تعلموهن القراءة»، وكذلك: «دفن البنات من المكرمات»، وكذلك: «نعم الختن القبور»، وما نسبوه إلى الإمام على كرم الله وجهه: «المرأة شر كلها، وشر ما فيها أنه لا بد منه». وهذه أحاديث حكم عليها علماء الحديث بالوضع، لأنه كلام لا يليق أن يُقال من مصلح عظيم جاء لرفع الإضرِّ والعنت عن المرأة التى قيل فيها:

إِنَّ النِّسَاءَ رِيَّاحِينَ خُلِقْنَ لَنَا وَكُلُّنَا يَشْتَهَى شَمَّ الرِّيَّاحِينَ

لكن ردَّ عليه المتشائمون فقالوا:
إن النساء شياطينٌ خُلِقْنَ لنا نعوذُ بالله من شر الشياطين
إن الجَهْلَةَ أرادوا أن ينحرفوا عن تعاليم دينهم في معاملة النساء، لذلك قال
أحدهم: «إن المرأة لا تخرج من بيتها إلا في حالات ثلاث:

الأولى: من بطن أمها إلى بيت أبيها.

والثانية: من بيت أبيها إلى بيت الزوج.

والثالثة: من بيت الزوج إلى القبر.

وما عدا هذا فإن المرأة لا ترى أحداً ولا يراها أحد.

ويقول قائل:

أَحِبُّ بُنَيْتِي وَوَدِدْتُ أُنِّي دَفَنْتُ بُنَيْتِي فِي قَاعِ لَحْدِي
وَمَا بِي أَنْ تَهُونَ عَلَيَّ لَكِنْ مَخَافَةٌ أَنْ تَذُوقَ الدُّلَّ بَعْدِي
فَإِنْ زَوَّجْتُهَا رَجُلًا فَقِيرًا أَرَاهَا عِنْدَهُ وَالْهَمُّ عِنْدِي
وَإِنْ زَوَّجْتُهَا رَجُلًا غَنِيًّا فَيَلْطَمُ خَدَّهَا وَيَسَبُّ جَدِّي
سَأَلْتُ اللَّهَ بِأَخْذِهَا قَرِيبًا وَلَوْ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ عِنْدِي

وكأني بهؤلاء لم يقرءوا القرآن الكريم، ولم يتعرفوا على ما فيه من خير
بالنسبة للمرأة، فلقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في مواضع كثيرة، ونَبَّهَ إلى ما لها
من كرامة، وأنها شقيقة الرجل وشريكته في المسؤولية، لذلك ذكرها الحق سبحانه
وتعالى وذكر أمثلة تدل على عُلُوِّ مكانتها، وسُمُوِّ نفسها، وعظيم قدرها. من ذلك:

«أُمُّ مُوسَى» التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاذَا خَفَتْ
عَلَيْهِ فَكَالِقَبِ فِي أَيْمِي وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾^(١).
والغرض هنا الإلهام، ولا يكون إلا للنفس الزكية.

ومنهن أيضاً «أخت موسى» التي أخبر الله تعالى عنها في كتابه العزيز ما يدل

(١) سورة القصص.

على حُسن تصرفها في نفس السورة، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١).

ومنهن «امرأة عمران» التي قال الله فيها: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) دليل على سلامة القلب، وطهارة النفس، وحُسن الصلة بالله.

ومنهن أيضاً «مريم» التي أنزلت سورة تحمل اسمها في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ (٣) مما يدل على الحس المرهف، وقوة الصلة بالله، والقدرة على التحكم في العواطف امتثالاً لأمر الله.

ومنهن أيضاً «امرأة فرعون» التي قال الله فيها: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ قَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤).

إن الإيمان بالله يقوِّى الإنسان على تحمُّل الشدائد، واللجوء إلى الصبر يقوى العزيمة فتَهون الدنيا وما فيها.

كما يحدثنا القرآن الكريم عن اصطفاء الله تعالى لمريم وجعلها مثلاً في الطُّهر والنقاء، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٥) يَمْرِيْمُ اقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٥) والطهر والعفاف دليل على رضا الله جلَّ وعلا.

وقال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ ﴾ (٦).

(١) سورة القصص.

(٢) سورة آل عمران.

(٣) سورة مريم، الآيات ١٦ - ٣٥.

(٤) سورة التحريم.

(٥) سورة آل عمران.

(٦) سورة التحريم.

أمّا عن «بلقيس» ملكة سبأ فقد بيّن القرآنُ حُسْنَ إدراكها للأمور، مع سياستها الحكيمة، وحرصها على الشورى، وقيامها برئاسة المملكة، نقرأ في ذلك من القرآن الكريم^(١) مما يدلُّ على تميزها بسعة الأفق وحُسن الإدراك في تصريف الأمور، مع قوة الإرادة وبُعد النظر.

أمّا عن «فتاتى مدين» فقد أخبر القرآن الكريم عن قصتهما مع موسى عليه السلام، وبيّن أن البنّتين قامتا بعمل جليل فيه دُخُل للأسرة لتحسينها من غوائل الفقر - خاصة أن أباهما شيخ كبير - والعمل ليس عيباً ما دام في حدود الشرع^(٢).

ويتبين مما أوردناه - وهو قليل من كثير - أن المرأة لم تكن كَمَّا مُهَمَّلاً كما يزعم البعض، وإنما هى شريكة الرجل، كما أنها تتلقى الخطاب معه لتقوم بالعمل العظيم الذى ينفعها ويعود عليها بالخير وعلى وطنها بالرعاية، فالرسول عليه الصلاة والسلام - وهو المفسر لآيات القرآن الكريم - يرشدنا إلى تعليم المرأة، وأن نقوم على تأديتها ورعاية شأنها، فيقول فيما رواه البخارى: «أئماً رجل كانت عنده وليدةٌ فعلمها فأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديتها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران».

كما أن المرأة كانت تشارك الرجل العبادة فى المسجد، فقد روى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها، قالت: «كُنَّ نساء المؤمنات يشهدنَّ مع رسول الله ﷺ صلاة الفجر مُتَلَفِّعات بِمُرُوطِهِنَّ ثم يَنْقَلِبْنَ إلى بُيُوتِهِنَّ حتى يَقْضِينَ الصَّلَاةَ لا يعرفهن أحد من الغلس».

كما كانت تشارك الرجل صلاة الكُسُوف والخُسُوف، والجنّازة، وصلاة العيد. فقد روى البخارى ومسلم عن أم عطية رضى الله عنها قالت: «أُمرنا أن نَخْرُجَ - أى فى صلاة العيدين - فنُخْرِجَ الحَيْضَ، والعواتق، وذوات الخدور» - وفى رواية: العواتق ذوات الخدور - فأما الحَيْضُ فَيَسْهَدُنَّ جماعة المسلمين ودَعَوَتَهُمْ ويعتزلنَّ مُصَلَّاهُمْ^(٣).

(١) سورة النمل، الآيات من ٢٠ إلى ٤٤.

(٢) سورة القصص، الآيات من ٢ إلى ٢٨.

(٣) وعلة الحكم من حضور الحَيْض وغيرهن صلاة العيد هي: شهودهن الخير ودعوة المسلمين ورجاء بركة ذلك اليوم وطهرته. والحديث رواه البخارى من كتاب «العيدين»، =

ومما لا شك فيه أنه كانت تقع بعض الهفوات من شخصيات عندها ضعف في الدين، من ذلك ما رُوِيَ من أن أميراً من العرب يُكَنَّى بأبي حمزة، تزوج بامرأة فولدت له بنتاً، فهَجَرَ منزلها وتزوج بغيرها، ثم بعد فترة مرَّ بابها فسمعها تداعب طفلتها وتقول:

ما لأبى حمزة لا يأتينا يَظَلُّ في البيت الذى يلينا
غضبناَ ألاً نلد البنينا تالله ما ذلك فى أيدينا
وإنما نأخذ ما أُعطينا

ففكر الرجل فى كلام زوجته فأيقن أن الأمر ليس بيدها، وإنما هو بيد الله سبحانه، الذى يعلم ما تحمِلُ كل أنثى وما تغيضُ الأرحامُ وما تزداد، وهو الذى يخلق ما يشاء، ويفعل ما يريد، كما قال جلَّ شأنه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ۗ (١) أَوْ يَزْوِجُهُمْ ذَكَرًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۗ (٢)﴾ (١).

إن الإسلام يدعو إلى العدل الشامل والمساواة المطلقة بين الذكر والأنثى فى الحقوق والواجبات من العطف الأبوى، لقول الله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (٢)، ولقول الرسول ﷺ: «اعدلوا بين أبنائكم». ولا يليق بالمسلم أبداً أن يُميِّز ولده عن ابنته مهما كانت الأسباب، لذلك خصَّ الرسول ﷺ البنات بالذكر، وأمر الآباء والمعلمين بحُسن صحبتهن، والعناية بأمرهن، والقيام بشأنهن. وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عُقْبَةَ بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له ثلاثُ بناتٍ فصبر عليهن وكساهن من جدته» - أى ماله - «كُنَّ له حجاباً من النار»، وفى حديث آخر: «من كان له ثلاثُ بناتٍ، أو ثلاث أخوات، أو بنتان، أو أختان، فأحسن صحبتهن، وصبر عليهن، واتقى الله فيهن دخل الجنة».

= باب: «اعتزال الحَيْضِ المصلى»، وباب: «إذا لم يكن للمرأة جلبابٌ من العيد». ورواه مسلم فى كتاب «صلاة العيدين»، باب: «إباحة خروج النساء فى العيدين إلى المصلى».

(١) سورة الشورى.

(٢) سورة المائدة، الآية ٨.

إن الرجل العاقل يفرح بما رزقه الله، ويرضى بما هو مقسوم له، لأن النساء شقائق الرجال، وقد قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١). لهذا كان من الصفات المذمومة أن يكتب الرجل ويحزن أو يذهب عقله إذا بُشِّرَ بالأنثى، فهو لا يدري أين الخير؟ وأيضاً إذا طالب الرجل زوجته بالولد الذكّر، وليس الأمر بيدها، فهي تريد أن تُسعد زوجها لتعشش على أسرتها ولكن ما حيلتها؟

وأذكر في هذا المقام جارا لي تزوج، وبعد الزواج اشترط على زوجته أن تُنجب ولداً وإلا فالويل لها، وحملت الزوجة وجاءت بتوأم: بنتين، ولطم الرجل على خدّه، وبرّ بشرطه، وسرّح زوجته، وتزوج، وإذا بالزوجة الثانية تلد ثلاث توائم، كلهن بنات، وأمسك الزوج زوجته الثانية على مضض، وإذا بها تحمل للمرة الثانية ويكون النتاج بنتين، وأمسك الرجل لسانه، وراجع زوجته الأولى، وبعد مدة تحمل هذه الزوجة - الأولى - وتضع توأمًا ذكْرَيْن، وعادت الابتسامة إلى الرجل، وكان هذا سوءَ تصرّفٍ منه، لذلك أعجبتني ما كتبه السيدة «مى شاهين» في جريدة «الأخبار»^(٢) تحت عنوان «أبو البنات» تقول:

«اتصلت بي تلفونياً سيدة متعلمة فاضلة وقالت: إنها تحمل هموم الدنيا على رأسها وتوشك أن تُصاب بانهايار عصبى، ولما سألتها عن السبب قالت: إنها أم لأربع بنات جميلات، متفوقات في الدراسة، وهى تنتظر المولود الخامس، وكل ما ترجوه أن يكون ذكراً، فقد هدّدها زوجها بالطلاق والزواج بأخرى إذا أنجبت بنتاً خامسة... وما أكثر الأزواج الذين يفكرون بنفس هذا الأسلوب العقيم، وكان يمكن تبرير هذا الوضع فى الماضى عندما كان الفتى كل شىء وكانت الفتاة تكتفى

(١) سورة الأحزاب.

(٢) بتاريخ ٢٤/١١/١٩٩٦ م - ١٣ رجب ١٤١٧ هـ - العدد (١٣٩٠٣).

بالحصول على قسط قليل من التعليم ثم تبقى في البيت انتظاراً لوصول ابن الحلال، وبعد الزواج تكون مهمتها القيام بأعمال البيت: من طهي، وتنظيف، وغسيل، كما تتحول إلى أرنبة تلد طفلاً كل عام، أما اليوم فقد اختلف الوضع بعد أن تحررت المرأة وتعلمت، وأثبتت نبوغاً وكفاءة في كل مجالات العلم، وتفوقت على الشبان في كثير من الأحيان، كما اقتحمت ميادين العمل».

قالت لى سيدة كريمة: إن زوجها طلقها منذ عشرين عاماً بعد أن أنجبت ثلاث بنات، وبعد شهور قليلة من الطلاق تزوج ثانية، وكانت فرحة لا تُوصف عندما أنجبت زوجته الثانية ولدًا، فقد أحاطه بكل الحب والرعاية والاهتمام، وفي الوقت نفسه تنكّر لبناته الثلاث ولم يعد يزورهن إلا نادراً، بل امتنع عن الإنفاق عليهم، وقد استطاعت الأم الحانية بعملها وكفاحها وتضحياتها أن تُربّي بناتها أحسن تربية حتى التحقن بالجامعة، ومرت الأعوام، وانتهى الابن «الدلوعة» وآخر العنقود من دراسته، وسافر للعمل في الخارج، ومرض الأب بمرض خبيث ولزم الفراش، ولم يحاول الابن أن يأخذ إجازة ويعود إلى الوطن ليطمئن على أبيه، أمّا البنات الثلاث فقد أحطنَ الأب بكل رعاية، وتفانت كل واحدة في أن ترعاه وتخدمه وتمرضه حتى لفظ أنفاسه وهو يبكي أسفاً وندماً.

وقالت لى طبيبة شابة: إن أباهما يقسو عليها ويسىء معاملتها، كما أن أمها تنهرها وتأمرها بخدمة أخيها الأكبر، وسافر الأبوان للعمل في الخارج، وكانا يرسلان للابن مبالغ طائلة كل شهر، وكانت النتيجة أن انحرف الشاب وهو طالب في كلية الطب وأدمن المخدرات، في حين عكفت أخته على الدرس والتحصيل حتى نجحت بتفوق وتخرجت في الكلية، وبدلاً من أن يفرح الأبوان بنجاحها وتفوقها غضبوا عليها لأنها سبقت أخاهما، والمفروض - في نظر الأب - أن ينجح الابن ويصبح طبيباً، ولا مانع من أن تتخلف البنت!

وسمعت أيضاً قصة خمس شقيقات نابهات تخرجن جميعاً في كليات مختلفة، وبدأن الحياة العملية، وقد أصر الأب على أن يكون له ولد، وتحقق حلمه، إلا أن الصبي وُلِدَ متخلفاً في العقل، وزاد تخلفه مع كِبَرِ سنِّه، ولم يفلح

فى الدراسة برغم اهتمام أبفه ومساعدته له بالدروس الـخصوصية فى كل مادة، ولما يئس الأب من نجاحه فتح له دكاناً صغيراً لبيع الأدوات المدرسية، إلا أنه أفلس بعد عدة شهور، ومات الأبوان، ولا يزال الولد المتخلف يعيش عالة على شقيقاته النابغات، بل لقد رفضت إحداهن الزواج حتى تُؤوى أخاها فى شقتها، فالمعروف أن البنت أكثر حناناً وعطفاً على أبويها من الولد، وخاصة بعد الزواج، فهو ينشغل بزوجه وأولاده، ولا يزور أهله إلا نادراً.

فيا سيدى الأب الذى يُفضّل الولد على البنت، ليتك ترضى بنصيبك وتتذكر أن الله العليّ العظيم هو وحده الذى يرزق من يشاء ذكوراً ومن يشاء إناثاً، ويجعل من يشاء عقيماً. . إن العطاء من الله، ولا ندرى أيهما أحسن إلينا نفعاً، لذلك علينا أن نرضى بعطاء الله، وأن نُحسن إلى أولادنا لنساعدهم على رحمتنا، ورحم الله والداً أعانه ولده على برّه، وأقام العدل بين أولاده ذكوراً أو إناثاً، ويكون العدل بينهم حتى فى القبل، لأن الحنان من الأب والأم عائد عليهما فى الكبر من أولادهما، فلتكن نظرتنا إلى أولادنا نظرة رضى وحبّ وحنان، ورحم الله والداً أعان ولده على العطف عليه فى طفولته الأخيرة، أى عند الشيخوخة والكبر.

* * *

ويُذكر أن أعرابياً تزوج على زوجته الأولى، لأن زوجته الأولى ولدت له بنتاً، فولدت الزوجة الثانية الجديدة ولداً، فكانت تُرْقِصُه وتغنى له بقولها:
الحمد لله الحميد الغالى أنقذنى اليوم من الجوالى
من كل شوهاء كشنّ بالى لا تدفع الضئيم عن العيال
وكلامها يعنى أن الله أنقذها من إنجاب البنات، لأن البنت كالقربة البالية لا تدفع الضئيم عن العيال، ولا تُعين الأسرة على نكبات الزمن. فسمعتها الزوجة القديمة، فرفعت بنتها وقالت:

وما على أن تكون جارية تغسل رأسى وتكون الغالية
وترفع الساقط من خمارية حتى إذا ما بلغت ثمانية

آزرتها بنقبة يمانية أنكحها مروان أو معاوية
أصهار صدق ومهور غالية

وقد سمع غناءها مروان فخطبها لنفسه على مائة ألف مثقال، وقال: إن أمها
حفية ألا يكذب ظنها، ولا يُخان عهدها. وقال معاوية: لولا أن مروان سبقني
فخطبها لخطبتها وضاعفت لها المهر، ولكن لا تُحرم الصلّة، فبعث إليها بمائة ألف
درهم، ومن ثمّ كانت الفتاة مصدر خير وبركة لأمها، وما يدرى أحد أيهما أحسن
نفعاً؟.

وما أحسن ما قيل: ابنك يأكلك صغيراً ويرثك كبيراً، وابنتك تأكل من
وعائك وترث من أعدائك!.

إنه من المعلوم أن العرب كانوا قديماً رؤاد غاراتٍ وطلّاب ثارات، وكان
الواحد منهم يخوض المعركة وهو لا يدرى أوقع على الموت أم وقع الموت عليه؟
وهو في كل حال كان خيال ابنته أمام عينيه، يفكر فيما عسى أن يصيبها بعده،
خاصة إذا مات، من هنا كان يحب الحياة من أجل بناته، لضعفهن وذلهن من
بعده، فكان يردد ما قاله إسحاق بن خلف الذي عبّر عن هذه العاطفة في قوله:

لولا أمية لم أجزع من العدم ولم أجب في الليالي حنّيس الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي ذلّ اليتيمة يجفوها ذؤوا الرّحم
تهوى بقائي وأهوى موتها شفقا والموت أكرم نزال على الحرم
أحاذر الفقر يوماً أن يلمّ بها فيكشف الستر عن لحم على وضم
إذا تذكرت بنتي حين تندبني فاضت لرحمة بنتي عبّرتي بدم!

ومع ذلك فكان الرجل إذا فترت عزمته، أو استولى الرعب على قلبه، أو
عقد هول المفاجأة لسانه عن النطق، تهتف به المرأة، فيستمد عزمًا بعد وهن،
ويسترد قوة غربت، وقد عبّر عمرو بن كلثوم عن ذلك بقوله:

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
أخذن على بعولتهن عهداً إذا لاقوا كتائب معلّمينا
ليستلبن أفراساً وبيضاً وأسرى في الحديد مقرّينا

إذا مارضن يمشين الهويّنى كما اهتزت مُتون الشاربينا
يُقْدنَ جِيادنا وَيُقْلنَ: لستم بُعولتنا إذا لم تَمْنَعونا
إذا لم نَحْمِهِنَّ فلا بقينا لشيءٍ بعدهنَّ ولا حِينا

إنَّ هذا لينبئك أن المرأة العربية مثار عاطفة الرجل ومدار وجدانه، بل هي سر حياته وموته، وهي مهاجُ غضبه ومعقد ألفته، وهي مُجتلى قريحته ومطلع قصيدته، وهي موطن غنائه ومشرق وحيه، ومنار إلهامه وكل شيء بين يديه، لهذا صورَّ خيال الرجل العربى المرأة على أنها ملكٌ، بل قالوا عن الله جل جلاله، وتنزّه عمّا يقولون، قالوا: اتخذ الملائكة إناثاً، تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً، وكبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولوا إلا كذباً.

بل ما ظنك بامرأة ملكت على الرجل قلبه ورأيه؟ فلا يكاد يصيب معنى أو يتحدث فى موضوع حتى يلمّ بذكرها، ويتغنى بمحاسنها، ويمتدح شمائلها، ويتأثر بأطلالها وما خلفته من معالم حلّها وترحالها. . ثم إن الرجل ما يكاد يبتدر صالحة أو يسبق إلى مكرمة حتى يُسمع المرأة الشعر فياضاً بمآثره، حفيلاً بمفاخره، وأكبر أمله أن تذكره بكلمة طيبة فيفخر بها بين قرنائها. وانظر مثلاً قول الشاعر:

قالت: أما ترحل تبغى الغنى؟ قلت: فمن للطارق المعتم؟
قالت: فهل عندك شيء له؟ قلت: نعم، جهد الفتى المعدم
فكم وحق الله من ليلة قد أطمع الضيف ولم أطمع
إن الغنى بالنفس يا هذه ليس الفتى بالمال والدرهم

وجاء فى كتاب «العقد الفريد»^(١): «إن الرجل يرضن بالمرأة ويؤثرها على أى شيء، ويحرص عليها، ويفتديها بنفسه وماله وما ملكت يمينه، من ذلك مثلاً: أن كسرى أبرويز ملك الفرس وسيد ملوك المشرق، أرسل إلى النعمان يبغي مُصاهرتة، ولو أن ملكاً من أقطاب العالم وأبطاله الفاتحين خطب إليه كسرى ابنته لوئب عن عرشه زهواً واختيالاً بتلك النعمة السابعة، على أن النعمان - وهو مولاه وصنيعه،

(١) لابن عبد ربه، ج ٣.

والقائم بأمره، والخاضع لسلطانه - ردَّ رسوله مُقْتَعاً بالخبيبة، ضناً بينات المنذر أن
يَكُنَّ قَعَائِدَ بَيْتِ أَعْجَمِيٍّ، أَيَا كَانَ مَكَائِهِ وَسُلْطَانِهِ. حتى إذا عاودَ الرسول مولاه بما
لا يرضيه، اضطرمت في صدره جذوة الغضب، وثارَت بين جنبيه ثَوْرَةٌ الْمُلْكِ
فأرسل يستقدم عاهل العرب.

هنالك أبصر النعمانُ وميضَ الموت يلمع من صوب المدائن، فأودع ابنته
«حرقة» وما يعتز به من سيوف ودروع عند «هانئ بن قبيصة الشيباني»، وذهب إلى
حيث طُرِحَ تحت أقدامِ الفيلة، فذهبت بِلَحْمِهِ وَعَظْمِهِ كل مذهب من ثغرات
الأرض، وَسَوَتْ معالمَ جسمه بالتراب، بذلك نَقَعَ كِسْرَى غليل غضبه، وأراد أن
يعاود ما بدأ، فأرسل إلى «هانئ» يقتضيه ابنة النعمان، فما كان نصيبه بأجمل من
نصيب صاحبه. هاج كسرى هائج الحنق على هذه الأمة التي استأسدت في وجهه،
واحتجزت فتاتها دونه، فأرسل فيالقه يزحم بعضها بعضاً ليوقع الخسف بها، ويبسط
رواقِ الدُّلِّ ضافياً عليها، وهناك قام العرب يدفعون عن حَوَزَتِهِمْ، ويذودون عن
أعراضهم، فالتقوا بجحافل الفُرس على بطحاء ذي قار، في موقعة احمرَّ لها وجه
الأرض، واغبرَّ الأفق، وارتفع الغبار المثار حتى مَحَا آيَةَ الشَّمْسِ.

ورأى الناسُ الكواكبَ في منتصف النهار، وقام من أبطال العرب من قَطَعَ
وَضَنَ النساء، أئِ قَطَعَ الرَّحْلَ حتى لا يتحرك أحد من ميدان المعركة، ولا يجدن
النساء سبيلاً إلى الفرار، وتأججت عند ذلك قلوب القوم، وأرهفت أنيابهم،
وتحولوا إلى صواعق ساحقة، ثم انحسر القتال، وقد ضربوا أعداءهم ضربة أطارت
قلوبهم، فنكصوا على أعقابهم، وفزعوا إلى ديارهم، وسيوف العرب في نحورهم،
لأنهم بواسل يابون الضيم، ويحمون الديار، ويحافظون على الشرف، وفي ذلك
يقول العديلي العجلى:

ما أوقدَ الناسُ من نارٍ لمكرمة إلا اضطلَّينا وكُنَّا مُوقِدِي النارِ
وما يَعُدُّونَ من يومٍ سَمِعْتَ به للناس أفضلَ من يومٍ بذى قارِ
جِئنا بأسلابِهِم والخيلُ عابسةٌ لما استلبنا لكسرى كل إسوارِ

ذلك هو يوم ذى قار، يوم انتصاف العرب من الفُرس، بسبب الحفاظ على العرض والشرف والكرامة.

ولم تكن المغالاة بالمرأة وقفاً على ذوات الثراء والسَّناء منهن، فقد كان يُغَالَى بها وتُغَالَى بنفسها، مهما هان أمرها، أو اتَّضعت عشيرتها، ومثل ذلك ما حَدَّثَ به ابن الأثير حين ذَكَرَ أن أحد الدهاقين^(١) من الفُرس جهد أن يتزوج امرأة من باهلة، فأبت عليه برغم ما للدهاقين الفُرس من سعة العيش ونُعموة الحال، وما بلغت باهلة بين العرب من لؤم الحسب وانصداع النسب. وقد قال الشاعر فيهم قديماً:

إذا قيل للكَلْبِ يا باهلي عوى الكلب من لؤم هذا النَّسَبِ

فلنا أن نتأمل في عِزَّة المرأة وكرامتها، برغم ما يحيط بقبيلتها من كلام يحط شأنها بين القبائل، فهي لم تقبل أن تتزوج برجل لا تعرفه حفاظاً على كرامتها، وحتى لا يهجرها فتُعَيَّرَ بسبب ذلك. كانت تفكر فيمن يتقدم إليها وتختار الكُفءَ الكريم الشهم الذي يُعَرَفُ بالمروءة مهما كان وضعه الاجتماعي، فإن الأخلاق عندها أساس الاختيار.

وإني لمُفَضِّلٌ إليك بحديث جاء في كتاب «الأغاني» يبين مكانَ المرأة وما لها من سماحة في الرأي، ووفور في الحرية، وسُمُوٌّ في المنزلة، ذلك أن الحارث بن عوف المرِّي قال لِمَنْ حوله: أترَوْنِي أخطبُ إلى أَحَدٍ فَيُرِدُّنِي؟ قيل: نعم. قال: ومَنْ ذلك؟ فقيل له: أوسُ بن حارثة الطائي. فقال الحارث لغلामه: ارحل بنا إليه. فركب ومعهما خارجة بن سنان، حتى أتوا أوساً في بلاده، فألْفَوْهُ في منزله، فلما رأى الحارث قال: مرحباً بك يا حارث، قال: وبك. قال: ما جاء بك؟ قال: جئتُك خاطباً. قال: لست هناك. فانصرف الحارث ولم يكلمه.

ودخل أوسُ على امرأته مغضباً، فقالت: مَنْ الرَّجُلُ الذي وقف عليك فلم

(١) الدهاقين: جمع دهقان، ويُطلق على التاجر، وعلى مَنْ له مالٌ وعقار، كما يُطلق أيضاً على رئيس القرية (المصباح المنير - مادة: دهقان).

تُطَلِّمَ ولم تُكَلِّمَهُ؟ قال: ذاك سيد العرب الحارثُ بن عوف المُرِّي. قالت: فما بالك لا تستنزلهُ؟ قال: إنه استحمق. قالت: وكيف؟ قال: جاء لي خاطباً. قالت: أفتريد أن تُزَوِّجَ بناتك؟ قال: نعم، قالت: فإذا لم تُزَوِّجَ سيد العرب فَمَنْ؟ قال: قد كان ذلك. قالت: فتدارك الأمر. قال: بماذا؟ قالت: تلحقُ به فتردُّه. قال: وكيف وقد فرطَ ما فرطَ إليه؟ قالت: تقول له: إنك لقيتني مغضباً بأمرٍ لم تُقدِّمَ فيه قولاً فلم يكن عندي من الجواب إلا ما سمعت، فانصرفَ معي ولك عندي ما أحببت، فإنه سيفعل، فركب على إثرهما. قال خاروجة بن سنان: فوالله إني لأسيرُ إذ حانت مني التفاتة فرأيتهُ، فأقبلت على الحارث، وما يكلمني غمًّا، فقلت له: هذا أوسُ بن حارثة في إثرنا. قال: وما نضع به؟ أمض، فلما رأنا لا نقف عليه قال: يا حارث، أربيعُ على ساعة، قف أتحدث إليك، فوقفنا له، فكلمنا بذلك، فرجع مسروراً.

ثم إن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته: ادعى لي فلانة (كبرى بناته) فأتته، فقال: يا بنية، هذا الحارث بن عوف، سيدٌ من سادات العرب، قد جاءني طالباً خاطباً، وقد أردتُ أن أزوجه منه، فما تقولين؟ قالت: لا تفعل، قال: ولم؟ قالت: لأنني امرأة في وجهي ردةٌ - قبح - وفي خلقي بعض العهدة - العيب - ولستُ بابنة عمه فيرعى رَحِمِي وليس بجارك في البلد فيستحي منك، ولا آمنُ أن يرى مني ما يكره فيطلقني، فيكون عليّ من ذلك ما فيه. قال لها: قومي بارك الله عليك، ادعى لي فلانة (لابنته الوسطى) فدعتها. ثم قال لها مقالته لأختها، فأجابته: إني خرقاء^(١)، وليست بيدي صنعة، ولا آمنُ أن يرى مني ما يكره فيطلقني، فيكون عليّ من ذلك ما تعلم، وليس بابن عم فيرعى حقِي، ولا جارك في البلد فيستحي منك. قال: قومي بارك الله عليك، ادعى لي «بهية» - يريد الصغرى - فأُتِيَ بها، فقال لها ما قاله لأختها، فقالت: أنت وذاك. قال: قد عرضتُ ذلك على أختيك فأبتاه. فقالت: لكنني والله الجميلة وجهاً، الصَّنَاعُ يدا^(٢)، الرفيعة خُلُقاً، الحسبية

(١) أي: لا تُحسِنُ ما تصنع.

(٢) تعني أنها حاذقة ماهرة.

أباً، فَإِنْ طَلَّقْنِي فَلَا أَخْلَفُ اللَّهَ عَلَيْهِ بِخَيْرٍ. فقال: بَارِكْ اللَّهُ فِيكَ. ثم خرج إلينا فقال: قَدْ زَوَّجْتُكَ يَا حَارِثُ «بِهِيَةَ بِنْتِ أَوْسٍ». قال: قَدْ قَبِلْتُ، فَأَمَرَ أُمَّهَا أَنْ تَهَيِّئَهَا وَتُصَلِّحَ مِنْ شَأْنِهَا، حَتَّى إِذَا حُمِلَتْ إِلَى زَوْجِهَا وَبَلَغَ بِهَا حِمَاهُ، كَانَتْ حَرْبَ دَاحِسٍ وَالغُبْرَاءِ، بَيْنَ عَبَسٍ وَذُبْيَانَ قَدْ عَصَفَتْ هَوَجَاؤَهَا بِهِمْ، وَاشْتَدَّتْ نَارُهَا فِيهِمْ، فَلَمْ تَذَرْ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ، وَهَمَّ مِنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْعَرَبِ بِأَنْ يَكْتُبُوا بِنَارِهَا وَضُرَامِهَا، وَيَصْطَلُوا بِلِظَاهِهَا، فَلَمَّا بَصُرَتْ بِهِ مَرْتَدِيًا مَطَارِفِ^(١) الْعُرْسِ قَالَتْ: وَاللَّهِ لَقَدْ ذَكَرْتَ مِنَ الشَّرْفِ مَا لَا أَرَاهُ فِيكَ. قال: وَكَيْفَ؟ قَالَتْ: أَتَفْرَغُ لِلنِّسَاءِ وَالْعَرَبِ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؟ قال: فَيَكُونُ مَاذَا؟ قَالَتْ: تَخْرُجُ إِلَى الْقَوْمِ فَتُصَلِّحُ بَيْنَهُمْ. فَخَرَجَ لِسَاعَتِهِ إِلَى صَاحِبِ خَارِجَةَ بْنِ سِنَانَ وَقَصَّ عَلَيْهِ حَدِيثَ امْرَأَتِهِ، فَقَالَ خَارِجَةُ: وَيَلِي! إِنِّي لَأَرَى هِمَّةً وَعَقْلًا. قال: فَأَخْرَجُ بِنَا إِلَيْهِمْ. فَخَرَجَ الرَّجُلَانِ، فَمَشِيَ بَيْنَ الْقَوْمِ لِلصَّلْحِ وَاحْتِمَالِ حِمَائِلِ^(٢) الْقَوْمِ، وَدَفَعَا دِيَاتَ الْقَتْلَى، فَكَانَ مَا نَزَلَ عَنْهُ ثَلَاثَةَ آلَافٍ بَعِيرٍ فِي ثَلَاثِ سِنِينَ، وَهِيَ - لِعَمْرِ أَبِيكَ - ثَرْوَةٌ لِلْأَعْرَابِيِّ لَا تَقُومُ بِمَا مَلَكَ الْحَضْرَى مِنْ ضِيَاعٍ، وَمَا اخْتَزَنَ مِنْ أَمْوَالٍ، وَذَلِكَ شَيْءٌ بَلَغَتْهُ الْمَرْأَةُ يَوْمَ ذَلِكَ مِنْ سُمُوٍّ فِي الْوُجُودِ، وَإِكْبَارٍ فِي الرَّأْيِ، وَبَلُوغٍ فِي النَّفْسِ.

وقد نبغ من النساء مشيرات آزرن أزواجهن وذويهن من الملوك والأبطال، فأحسن مؤازرتهم. وملكات قمن بالأمر من دون الرجال، فابتئنين مجداً لا يطاولن، وبلغن غاية لا ترام.

تلك كلمات عن المرأة، وكلمات من تاريخها الطويل الذي نعز به، ونطرب له.

وتاريخها حافل بالعظات بين المد والجزر. إنه تاريخ طويل، ونحن ملثون بحياة امرأتين ملكتا، فاخصهما التاريخ يصفحتين خالدين وهما: بلقيس في أرض اليمن، وزنوبيا - أو زينب - ببادية الشام، وإليك قصة حياتهما.

(١) المطارف: ملابس من الخز.

(٢) الحمائل: الديات.

١ - بلقيس

على مشارف أرض اليمن، وبين ظلال الأشجار وأفياء الثمر وخمائل الزهر، والوديان الفسيحة، حيث يتساقط المطر ويسيل الماء، كانت مدينة مأرب تتمتع بحصانة طبيعية فأصبحت قبة ملوك الأقاليم المجاورة، لأنها مسكن الملك العظيم الذي يدين له الكل بالولاء والطاعة، ثم إن أهلها لم يغفلوا عنها، بل عملت يد الصناعة الماهرة والابتكار في تجويد العمل، فأقاموا سد مأرب وجعلوه من ثلاثين قنطرة، ذرعها ثلاثة أميال في مثلها، قد انبسط على جانبيه جنتان هما صنع الله وآيته وحجته على تلك الأمة الوثابة الطموح^(١)، وإلى هذا أشار الحق في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾^(٢).

ويدل سد مأرب على أن هذه المدينة كانت مطلع الحضارة القديمة وآيتها الناطقة، ولقد انتشرت حول هاتين الجنتين قصور مأرب، التي أصبحت تضارع دور مصر في دقة الوضع، وفخامة البناء، وجلال الصنع، والارتقاء إلى أعلى، حتى صارت تشبه قصور فارس في حُسن النسق وروعة المنظر وجمال البناء. كانت مأرب دار الملك في عهد مُلَيْكَةٍ عظيمة، وقائدة رائدة، عادلة في حكمها، نافذة البصيرة.

إنها الملكة «بلقيس» وأبوها - اليشرح - أنفذ ملوك اليمن رأياً، وأسناهم ذكراً. لقد ورثت «بلقيس» عرش زوجها وأبيها وما كان لهما بهما من حاجة، فقد اتخذت لنفسها عرشاً بلغ من إبداع صنعه وجمال نسقه أن وصفه الله جلّ ذكره بالعظمة فقال: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾^(٣). وقد وصفه من رآه فقال:

عرشها رافع ثمانين باعاً كَلَّتْهُ بِجَوْهَرٍ فَرِيدٍ

(١) معجم ياقوت، ج ٧، ص ٣٥٤.

(٢) سورة سبأ.

(٣) سورة النمل.

وَبَدْرٌ قَدْ قِيدَتْهُ وَيَاقُوتٌ بِالتَّبْرِ أَيْمًا تَقْيِيدُ

ولقد قامت هذه الملكة الفريدة في مُلكها خمسة عشر عاماً بلغت فيها من جلال الصَّوْلَةِ وكمال القوة أنها حين ركبت إلى سيدنا سليمان كان في ركبها مائة ألف من أمراء اليمن^(١)، أمّا وفور عقلها ومضاء عزمها واستمكانها من نفوس رعيّتها وعلوّ قدرها أنّ سليمان حين أرسل إليها يخبرها بدينه ويدعوها إلى الإيمان بالله، والاعتراف بنبوّته، وكتب إليها يقول: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾^(٢). هذه الملكة العظيمة لم تأخذها العزة بالإثم، ولم ينل منها أن الكتاب لم يَخْوِ تكريماً لها وتبجيلاً، ولم يذهب برشدها أن الذي بعث إليها بالكتاب ليس ملكاً، وهو بالنسبة لها ليست لديه القوة ولا بسطة المُلك - حسب فهمها - لكنها ضربت المثل الرائع على بُعد النظر وسلامة الطبع، لذلك جمعت كُلَّ مَنْ يلوذ بطاعتها من الملوك وعرضت الأمر عليهم وطلبت مشورتهم، وأحلت الكتاب من نفسها محلاً كريماً، وقالت - كما حكى القرآن: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَكُ إِنِّي أَلْقِي إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢١﴾﴾^(٣)، ثم تقول لقومها - وهي الحاكمة صاحبة الرأي، إلا أنها تستعمل الشورى وتضرب المثل على وفور العقل ورجاحته: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَكُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٢٢﴾﴾^(٤)، وإذا بقومها يقولون لها: نحن تحت أمرك، عليك أن تأمرى ونحن نطيع، وعبروا عن ذلك بقولهم: ﴿نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْسِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٢٣﴾﴾^(٥)، لكنها ببعد نظرها تخبرهم أن الحرب دمارٌ، ومتلفةٌ للبلاد، وقتل للعباد، وتشريد للصغار، وذلّ للنساء، فقالت لهم: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾^(٦) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ﴿٦﴾ كفيّلة أن تصرف ذوى المطامع وطلّاب الدنيا عن

(١) الطبرى، ج ١٨، ص ٨٧.

(٢) سورة النمل.

(٣) سورة النمل.

(٤) سورة النمل.

(٥) سورة النمل.

(٦) سورة النمل، الآيتان ٣٤ - ٣٥.

قصدهم، فإن قبلها هو ملك، ولنا من بأسنا وقوتنا ما يفلُ عرشه ويدك دولته، وإن ردّها وصرّف عنها فعسى أن يكون نبيّاً يبصّرنا بالخير ويهدينا سواء السبيل.

فلما جاءت رسلها سليمان بالهدية ردّها وقال: ﴿أَتِمِدُونَنِي بِمَالٍ فَمَاءَاتِنِيءَ اللهُ خَيْرٌ مِّمَّاءَاتِنِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (١). حتى إذا استبان «بلقيس» الأمر تركت دينها ودين آبائها وتمسكت بدين الله، وكان ذلك سبيلاً إلى طمس آية المجوسية بين أرجاء اليمن.

ولقد ذكر الفخر الرازي أن «بلقيس» هي التي مدّت سد مأرب وجعلته طبقاتٍ ثلاث بعضها فوق بعض، فإنها تكون بذلك التفكير السديد مهبط وحى العظمة، ومشرق نور الحضارة في عالمها، والقرآن وهو يقصّ قصتها لتكون أمام أعين العقلاء تبصره وآية من آيات الذكر الحكيم لتنوّه بفضل المرأة ورجاحة عقلها وسماحة رأيها، وإن عظمة الملك وأبهة السلطان لم يصرفها ذلك عن ابتغاء الحق أيّاً كان سبيله.

والمسلم يجد في كتاب ربه - في سورة «سبأ» وسورة «النمل» - الحديث عن تلك المرأة «بلقيس» سليمة القوم الذين عاشوا في الأمان، ومدوا سد مأرب، وشادوا قصر غمدان، ثم كان لها - بعد هذا الملك - حديثٌ مع سليمان، نبي الله العظيم، الذي أسلمت بلقيس معه لله رب العالمين، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٢ - ملكة تدمر

تدمر في طرف بادية الشام، إلى الشمال منها. تقع على بُعد مائة وخمسين ميلاً من دمشق، ومسيرة خمسة أيام من الفرات، وهي ملتقى القادمين والرائحين بين الشام والعراق، ولقد تألف لؤلؤها وظهر بهاؤها عندما نهضت بها امرأة من العرب تسمى «زينب»، فبسطت سلطانها، ونشرت أعلامها على ما بين مجاهل

(١) سورة النمل.

السودان ومعالم أنقرة، وكانت هذه الملكة تُجيد لغات الفُرس واليونان والرومان، كما كانت - على جمالها وعذوبة منطقتها وسماحة أسلوبها ونفاذ لبّها وعظمة قلبها - من أشد الناس بأساً، وأمضاهم عزماً، وأرسخهم في الحروب قدماً، كانت إذا أُشْرِعَتِ الرماحُ والتمعت الأسيّنة تتقلد سيفها وتعتقل رمحها وعلى رأسها خوذة مرصعة بالدرّ والياقوت، وقد تدلّت فوق غرّتها أهداب من الحرير الأرجواني. كانت تمر بين صفوف المقاتلين ويدها اليمنى مجردة كما يفعل أبطال الرومان واليونان، فيذهل القوم عن نفوسهم، وتملك عليهم مشاعرهم حتى تكون أبصارهم وأيديهم - بل وقلوبهم - معها، فينصبّون على أعدائهم كما تنصبّ النار على هشيم الكلا، ويكون النصر لهم.

لقد فتحوا الكثير من البلاد، واقتحموا ما اقتحموا من ممالك، فدمّروا المعازل، لذلك أشادت الأمم بذكر «زينب» وأفسحوا لأخبارها وسيرتها المكان الأوفى من صدور تاريخهم وبطون صحائفهم. ولقد شمّر قومها عن سواعدهم فجمعوا بين مدينتي الفرس والرومان، فأرهفت لذلك طباعهم، ورقت شمائلهم، ونفذت أفهامهم، وشيدوا الأبنية العظيمة التي رسخت أصولها في أعماق الأرض، وارتفعت حتى قاربت منازل الأفلاك، وشادوا هيكل الشمس، وبنوا القصر الأعظم الذي بلغ ذرعه ألفى ذراع في مثلها، ولا تزال أطلالهما باقية تعنو لها الوجوه، وتخشع بين أيديها القلوب. تلك هي الأمة التي قامت بأمرها «زينب» فبلغت بها غاية ما تقدم.

ولقد تنقّل الملك بزيب في دورين، فكانت مشيرة لزوجها، ثم وصية على ولدها، وفي كلتا المرحلتين كانت الوحيّ الملهم، واليد الطائلة.

على أن هذه السيدة العظيمة نُكبت في آخر عهدها نكبة لم تجد من يقبلها منها، حيث فاجأها جند الرومان، وقد كان جيشها ساعتها يتكون ممن انحسر عنهم ظلُّ الروم في عهدها، فتركوها وولوها ظهورهم، لأن زمام قلوبهم بأيدي سادتهم الذين جاءوا، فكانوا بوادر الانهزام الذي حلّ بها، وآل أمرها إلى التسليم لعدوّها سنة ٢٨٢ م، فأخذت أسيرة إلى روما، ثم أُعيدت إلى موطنها لمكانها في نفوس

قاهريها، فعكفت على عُزلتها. ورواة التاريخ ينسبون إلى عمرو بن عدى اللّخميّ أنه قادها إلى الموت انتقاماً لخاله «جذيمة بن الأبرش» ملك الحيرة، ويزعمون أن عمراً خبأ لها الرجال في الغرائر.

إن العرب حَدَّثُوا عن ملكة تدمر حديثاً طويلاً يغرب لب الناقد عنه، وتضل حقائق التاريخ دونه، وكانوا يسمونها «زنوبيا» أو «الزَّبَاء» أي كثيرة شعر الحاجبين والعينين. هذا وقد وقف المؤرخون أمام تلك الشخصية الفريدة في أدائها وعظمتها، وأشادوا ببطولتها الرائعة، والتاريخ لا يخدع أحداً في ماضيه، ولا يُزيّف سيرة أحد على حساب أحد، وإنما يحكى الواقع لتكون الذكرى التي تنتفع بها الأجيال.

* * *

أسماء بنت درين وحُسن تصرفها

وإذا كنتُ قد أفضتُ إليك بحديث عن ملكتين فهلمّ معي لنعيش مع شخصيات نسائية أخرى يتبين لنا من خلال مطالعاتها ما تمتعت به بعض السيدات من عقليات ذات كفاءة وقدرة على حُسن التخلص، وسعة الحيلة، مما يدل على أن المرأة شريكة الرجل في الذكاء العقلي إذا هي استعلمت عقلها وربّت أفكارها على قيم دينها، وعادات قومها، ومألوف بيئتها، وإنا لمِلْمُون بطرفٍ في هذا المقام.

جاء في كتاب «خزانة الأدب»^(١): أن ابن حبيب حَدَّثَ فقال: إن أسماء بنت دريم كانت في خبأٍ لها، وبنوها يرعون إبلهم وغنمهم في الأودية، فمر بها وائل بن قاسط فنظرَ إليها نظرة مريبة، فقالت: لَعَلَّكَ أَسْرَرْتَ في نفسك مني شيئاً؟ فقال: أجل. قالت: لئن لم تته لأستصرخن أسبُعي! فقال: والله ما أرى بالوادي أحداً. قالت: لو دَعَوْتُ سِبَاعَهُ لمنعتني منك، وأعانتني عليك. فقال: أَوَ تَفْهَمُ السباعُ عنك؟ قالت: نعم. ثم رَفَعَتْ صوتها ونادت: يا كلب، يا ذئب، يا فهد، يا

(١) للبغدادى، ج ٣.

دب، يا سرحان، يا أسد، فجاء بنوها يتعاونون ويقولون: ما خبرك يا أماه؟؟ قالت: ضيفكم هذا أحسنوا قِراه^(١). ولم تشأ أن تفضح نفسها عند بنيتها، فذبحوا له وأطعموه، فذهب وهو كالمأخوذ عجباً ممّا رأى، ومن حُسنِ تصرفها.

* * *

وافق شَنْ طَبَقَة

كما جاء في كتاب «مجمع الأمثال»^(٢): أنّ رجلاً من دُهاة العرب وعقلائهم يُدعى «شَنْ» قال: والله لأطوفن حتى أجد امرأة مثلى أتزوجها. فبينما هو في بعض مسيره إذ لقي رجلاً في الطريق، فسأله شَنْ: أين تريد؟ فقال الرجل: موضع كذا (يريد القرية التي يقصدها شَنْ)، فرافقه، حتى إذا أخذوا في السير قال له «شَنْ»: أتحملني أم أحملك؟ فقال له الرجل: يا جاهل، أنا راكب وأنت راكب فكيف أحملك أو تحملني؟ فسكت «شَنْ» وسارا حتى إذا قربا من القرية إذا بزرع قد حان حصاده، فقال «شَنْ»: أترى هذا الزرع أُكِلَ أم لا؟ فقال الرجل: يا جاهل، ترى نباتاً مستحصداً فتقول أُكِلَ أم لا؟ فسكت عنه «شَنْ»، حتى إذا دخلا القرية لقيتهما جنازة، فقال «شَنْ»: أترى صاحب النعش حيّاً أم ميتاً؟ فقال له الرجل: ما رأيتُ أجهلَ منك.. ترى جنازة فتقول: أميتٌ صاحبها أم حيٌّ؟ فسكت عنه «شَنْ» وأراد مفارقتة، لكنَّ الرجل أصرَّ على استضافته، ومضى به إلى منزله، وكان للرجل بنتٌ يقال لها «طَبَقَة» فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه، فأخبرها بمرافقتة له، وشكا إليها جهله، وحدثها بحدثه، فقالت: يا أبتِ، ما هذا بجاهل، لأن قوله لك: أتحملني أم أحملك أراد به: أتحدثني أم أحدثك حتى نقطع الطريق؟ وأمّا قوله: أترى هذا الزرع أُكِلَ أم لا فإنه أراد به: هل باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا؟ وأمّا قوله في الجنازة فأراد به: هل ترك عَقِباً^(٣) يحيا بهم ذكراه أم لا؟ فخرج الرجل

(١) أي: أحسنوا ضيافته وأكرموه.

(٢) للميداني، ج ٢.

(٣) أي: ذُرِّيَّةً أو أولاداً.

وجلس مع «شن» فحادثة ساعة ثم قال: أتحب أن أفسر لك ما سألتني عنه؟ قال: نعم. ففسره. فقال «شن»: ما هذا من كلامك، فأخبرني من فسره لك؟ قال: ابنتي. فخطبها وتزوجها، وحملها إلى أهله، فلما رأوها قالوا: «وافق شن طبقة». وصار مثلاً يضرب لكل زوجين متوافقين في سعة الأفق والعلم الواسع،

* * *

ولتدرك المجتمعات من حولنا أننا ننزع إلى الكمال، لأن لنا به نسباً عريقاً، وطريقاً عميقاً، إذا انثنى عطف الزمان، فنحن مطلع فجره، ومبعث فخره، ذلك ميراث إن كنا قد سلبناه في غفوة الليل فإن التاريخ قد حفظ لنا صفحة من صفحات تاريخنا الذي نعز به، ونطرب له، حيث يبين لنا أن حياة المرأة حياة عظيمة، لها نفس أبية، وهمة عالية، فإذا كان نساء مجتمعنا يُردن أن ينهضن فعليهن أن يتقين الوسائل، ويتلمسن الخطى، ويسرن على الدرب حتى يصلن إلى ما كان لأمهاتهن من مكانة عالية، لأنهن كن منابت حماننا، وأساءة جراحنا، وبناة دولتنا، ومنار دعوتنا، ومثار قوتنا، وما نحن وإياهن إلا كجناحي النسر الصاعد، إذا هيص أحدهما خفض الآخر، فأصبح لا يجد في الأرض مقعداً، ولا في السماء مصعداً.

فلتنهض المرأة كما تشاء، لأن في نهوضها نهوضاً لنا ويلوغ غاياتنا، ولكن ليحذر الآخذون بيدها والداعون إلى نهوضها التواء القصد والزجج بها في مواطن الزلل، لأننا قوم نتحكّم فينا أمزجتنا، وأسلوب حياتنا، وتقاليد مجتمعنا، فمن الظلم أن نزجج بالمرأة في مواقف تخذش حياءها وتهدر شرفها، وتكون العوبة في أيدي الذين لا يراعون حرمتها، ولا يابهن لكرامتها.

لذلك أناشد المرأة أن تقرأ تاريخ أخواتها من أمهاتنا الأوليات، وعليها في هذا العصر أن تستنّ بهن، ففي تاريخ المرأة المسلمة والعربية ما يدلّ على طيب الأعراق، وكرم الأخلاق، لأنه بلا شك تترقق دماؤهن بين جوانحنا وأعطاف قلوبنا.

إنه في سبيل الكمال المطلق والحياة الخالدة نسوق هذا اللون الذي سجله التاريخ ليعلم الناس في هذا العصر مبلغ ما كان للمرأة من قوة النفس، وحرمة

الرأى، وعزة الجانب، ونُبل الخُلق، ما ألبسها أحسن لبوس من جلال الهيبة وكمال الخُلق.. لقد كان من سُنَّة اليونانيين أيام سقراط وأفلاطون أن يقف الرجل خاشعاً حاسر الرأس إذا مرّت به امرأة حامل.

إنّ المرأة ليست بالمخلوق الضعيف، لأن من يحتمل ما احتملته المرأة عبر التاريخ وفي ظلماته، وما أحاق بها من عنت الدهر، وظلم الأب، وصلف الزوج، إلى تعب الحمل، وألم المخاض، وسهد الأمومة، يجعلنا نعلن أن المرأة دعامة من دعامات الكون والمجتمع، لا يزال ناهضاً ما نهضت به، لأن مَنْ وَكَل اللهُ إليه ابتناء الأمم وإنشاء الأسر والحفاظ على القيم لا يكون ضعيفاً أو حقيراً، لذلك إذا تخاذلت المرأة عن أداء رسالتها تهاوت عمُد المجتمع وتصدّعت جوانبه.

ونحن نهيب بالمرأة ونقول لها: مَنْ غيركِ يتعهّد النّبتَ وأنتِ تُربته؟ مَنْ غيركِ يرعى النّشءَ وأنتِ قبّلتَه؟ آمالُ الأُمّة وأمانتها بين يديك، بل وديعة الله تحمليها لأنكِ أنتِ قوام الأسرة، وبكِ يعول مجدها، ويتألق نجمها، وذلك عندما تعيشين طاهرة مربية عفيفة تعرفين رسالتك فى الوجود.. وعليك أن تذكري أن مكانتك الصادقة ومجدك المتألق وحرّيتك المصونة وكرامتك الحقّة أن تُحصّنى نفسك بالشرف، وتُتوّجى بمجدك بالعفة، وتحيطى أسرتك بدفء عاطفتك، وأن تبني روح الأمل والإقدام فى أولادك، وتدفعى بهم إلى التمسك بالقيم العالية، والعلم النافع.. عَشّشى على أسرتك بأجنحة الحب لتبقى الأسرة لبنة قوية فى صرح المجتمع الذى نرجو له الخير والازدهار.

معاول هدم في جسم الأمة

حينما جنحت الشمس للمغيب، ورقّدت على سرير الأفق تودّع النهار،
وصفحة السماء ترقّ، ونور القمر ينشر ملاءته البيضاء الفضية على الكون، وقفتُ
أتأمل هذا المنظر البديع، وتذكرت ما قاله الشاعر:

والبدرُ في كَبِدِ السَّماءِ كَدِرْهُمْ مُلْقَى على دِياجة زرقاء

وبينما أنا سابح أرنو بناظري إلى الفضاء المنبسط أمام عيني، وأرى رءوس
الأشجار وهي تتمايل في نشوة من نسيم الليل وقد كساها القمر بضيائه المنتشر في
الأفق، وتجلي الليل في سكونه الهادئ لا يسمع الإنسان غير هههفة النسيم، يهب
حيناً بعد حين، إن القمر أمام عيني ينتقل من برج إلى برج، ويا سبحان الخالق
المبدع! الشمس لها مسارها، والقمر له مساره، كُلُّ يجرى في فلكه ﴿لَا الشَّمْسُ
يَلْبِغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾^(١)، إنها قُدرة القادر، وتدبير الحكيم.

وبينما أنا على هذا الحال وصل إلى مسامعي صوت شخص يترنم بقول
القائل:

مررت على الفضيلة وهي تبكي فقلت: علامَ تنتحبُ الفتاة؟

فقلت: كيف لا أبكي وأهلى جميعاً دون خلق الله ماتوا؟!!

فانتبهتُ إلى نفسي، وكان روحي عادت إلى جسدي في التوّ واللحظة،
فنظرت إلى القمر وتذكرت ما قاله صادق الرافعي: «الآن وقد طلعت أيها القمر
لتملاً الدنيا أحلاماً وتشرف على الأرض كأنك روح النهار الميت ما ينفك يتلمس

(١) سورة يس، الآية ٤٠.

جوانب السماء حتى يجد منها منفذاً، فهلّم أبثك نجواى أيها الروح المعذب،
واطرح من أشعتك على قلبى لعلّى أتبين منبع الدمعة التى فيها فأنزفها. إن روحى
لا تزال فى مذهب الحس كأنها تجهش بالبكاء ما دامت هذه الدمعة فيه تجيش
وتبتدر...».

وبينما أنا سابح فى هذا الأدب الرفيع أحسست أن حركة ورائى، فالتفتُ فإذا
بصديق جاء يحمل مدياعاً صغيراً وقال: اسمع التعليق على حادث فظيع رهيب!
فأنصتُ فإذا بالتعليق يقول: «حادث أغرب من الخيال.. فقد وقع حادث اغتصاب
فى الحادية عشرة والنصف من مساء الخميس ١٩/٣/١٩٩٢ م فى محطة أتوبيس
ميدان العتبة على مرأى ومسمع من المواطنين، حيث قام أربعة أشخاص باغتصاب
فتاة كانت داخل أتوبيس بصحبة أمها وشقيقتها، ف جذب المتهمون الفتاة من داخل
الأتوبيس لارتكاب أبشع حادث اغتصاب شهدته القاهرة».

وفى تحقيق النيابة اطلعتُ على التقرير الطبى من مستشفى أحمد ماهر، حيث
أثبت التقرير أن الفتاة سنها ٢٣ سنة، ووُجِدَ تهتكٌ بغشاء البكارة! يا للهول! هذه
مصيبة... أبلغ الاستهتار بالفضيلة إلى هذا الحد؟ ثم نحن فى شهر رمضان،
والدين الإسلامى بقيمه وروحانياته له هيمنة على النفوس، ثم أين النخوة؟ أين
المروءة؟ آه! لقد كان الرجل يتغنى من لحظات ويبكى على موتِ أهلِ المروءة.

هل غابت القيم عن الواقع الميدانى، أم إن الاستهتار بالعادات والتقاليد هو
السبب فى ذلك؟ أم إن تبرُّج المرأة وخروجها على المألوف وكشف المستور هو
الذى أدى إلى ذلك؟ يقول مصطفى صادق الرافعى: «لو كنت قاضياً ورُفِعَ إلىَّ
شابٌّ تجرأ على امرأة فاحتكَّ بها أو طاردَها، وتحقق عندى أن المرأة كانت مدهونة
ومصقولة، متعطرة، متبرّجة، لعاقبتُ هذه المرأة عقوبتين: إحداهما: لأنها اعتدت
على عِفَّة الشاب، والثانية: لأنها خرّقاء، كشفت اللحم للهْرِ...».

إن الذى يتصفح وسائل الإعلام يجد بين الحين والحين خبراً مؤداه أن شرطة
الآداب وضعت يدها على شبكة للاتجار فى الأعراض، وكنت دائماً أسأل نفسى:
أتريد المرأة ونحن فى عصر المدنية والتقدم العلمى أن تضع نفسها فى سجن

رهيب، هو تجارة الرقيق الأبيض؟ أتريد أن تعيد فترة رهيبة من تاريخ البشرية مرت على الإنسانية عندما أباحَت البغاء الذى هو داء خطير وكأس مرير؟ .

إن البشرية عرفت هذا النوع - الذى هو امتهان للمرأة وإهدار لكرامتها وضياع لشرفها - فى فترة زمنية كنقطة سوداء فى تاريخ البشرية وذلك عندما دفعوا بها إلى بحر الظلمات، وزجُّوا بها إلى الجريمة البشعة بلا رحمة ولا شفقة، عندما زَيَّنوا لها جريمة «البغاء» الذى هو اعتداء على كرامة المرأة وفساد كبير، وطاعون فتاك فى جسم البشرية، وانهيار بالخلق.

إنَّ البغاء ما فشى فى أُمَّة إلا فشا فيها التدهور الخُلُقِي، والتفسخ الاجتماعى والانحلال الأسرى، وباءت الأُمَّة بالضعف والتشرد والخذلان، لذلك حَذَّرت منه الأديان وحرَّمته الكتب السماوية وقام علماء الإصلاح فى الشرق والغرب ببيان خطورته على الأمم والمجتمعات، لذلك قامت «مدام مارتا ريشار» العضو بالمجلس البلدى بباريس تطالب بإلغاء البغاء، وذلك فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وهى القائلة: «إن فى بيوت الدعارة تُباع أعراض أولئك البائسات بأبخس الأثمان، وإن من وراء ذلك شركة ذات رأس مال تبتز نحو خمسين ألف بائسة». والكاتبة الشهيرة «اللادى كوك» لما رأت زكَل أقدام الفتيات يزداد يوماً بعد يوم أرسلت صيحاتها المدوية بمنع الاختلاط بين الجنسين.

إن البغيَّ فتاةٌ شُدَّتْ إلى الهاوية بسلاسل ذهبية مؤهوا بها عينيها، وأظهروا لها أنهم يحبونها، وهو حُبُّ مُصْطَنَع، وليد لحظته، ونهايته قريبة، لأنه حب ينحصر فى حيوانية الإنسان لا فى روحانيته. إنَّ التحليل النفسى الذى أُجرى على عيِّنة مِمَّنْ يمارسن البغاء أثبت أن من تمارسه مصابة بالشذوذ النفسى والتصدع الخُلُقِي، ولم تدرك أبعاد ما أقدمت عليه، لذلك عرضت القديسة «جوزفين بتلر» قضية البغاء على العالم مصبوغة بالدمع «دموع الندم»، والدم «دم العرض المسفوك».

ولقد كتب «جوزيف ناثن» يقول: «إنى لأؤثر عشرة آلاف مرَّة أن أواجهُ عشرين مدفعاً على أن أرى فتاة بائسة تشعر أنها فقدت كل حقها فى الكرامة

والاحترام». ولقد حاربتِ النساءُ الفضليات هذا النوع من الممارسة الجسدية واعتبرته اعتداءً على كرامة المرأة، وناشدت الضمير الحيّ أن يقف بشدة ضد هذا الاعتداء. ولقد أيّد ذلك كثير من الكتّاب والمفكرين، مثل «فيكتور هوجو» الذي قال: «أنا معكن - يعنى فى محاربة هذا النوع من الممارسة الجنسية - قلباً وقالباً، وإلى أقصى حدّ».

كما أن شرائع أوروبا قديماً وقفت موقف العداء لهذا اللون من الممارسة، فكان الرومان يحكمون على الزانى بالقتل، والفرنسيون القدماء يحكمون على الزانى بالنفى إلى الأديرة، إلى أن جاء نابليون الذى أسهم فى نشر هذا المرض، ووضَعَ له سجلات وأنشأ بوليساً للأداب يشرف على البغايا، وسنَّ لهن نظام الكشف الطبى منعاً للعدوى من الأمراض الخبيثة.

والعرب فى الجاهلية جعلوا البغاء فى الإماء والرقيق، وكانت هناك صاحبات الرّايات الحُمْر، وقد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَيَنبَغِ عَلَيْكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾^(١). إن العالم يعلم أن الحرية حق للناس فى دائرة الفضيلة واحترام حقوق الآخرين، أمّا أن نجعلها حقاً لهم فى تشييد دعائم الرذيلة وهدم صلاح الأخلاق فليس هذا من الحرية فى شىء، وإنما هذه فوضى لا يقرّها دين ولا عقل راشد، وكل مدنية قوامها الرذيلة فهى مدنية زائفة تحمل عوامل انحلالها فى يدها.

إن على المجتمع الإنسانى أن يعالج هذه المشكلة الخطيرة ويجفف الروافد التى تدفع بالمرأة إلى هذا المستنقع، وأهم هذه الروافد هى:

١ - الاستهتار بالأداب العامة.

٢ - الفقر.

٣ - الفراغ.

٤ - التشرّد.

٥ - أصدقاء السوء وقرناء الفساد.

(١) سورة النور، من الآية ٣٣.

٦ - بؤر الخمارات والمخدرات .

٧ - القسوة في معاملة الأبناء .

٨ - الفن الفاضح الذي يجسّم العورات ويصوّر الفتيات في أوضاع تحرك الغرائز، وتثير الشهوة، كما ظهرَ في أحد الأفلام، الأب يقول لابنته: «ارقصي واشربي وهيصى ما دام ذلك لصالح الجمعية الخيرية»، ثم يقول: «ألا في سبيل الخير ما أنا فاعل»، وهكذا يروج سوق الرذيلة حيث الشيطان يغزونا في عقر دارنا ليحل رباط الفضيلة باسم «الفن» الذي ظلموه.

علينا أن نعالج هذه الأمور، ونصحح القيم والمفاهيم، ونرعى الجانب الاجتماعي، ونضع المعايير والضوابط للسلوك العام. إن الإنسانية اليوم في حيرة من أمرها، فقد تولت «هيئة الأمم المتحدة» عن طريق المجلس الاجتماعي منَع تجارة الرقيق الأبيض للأطفال والنساء، ومكاتب الآداب منتشرة هنا وهناك، وآلاف الجمعيات لرعاية هذه الحالات هنا وهناك، ومع ذلك فالمشكلة تزيد، وبخطورة شديدة. . إن الإنسانية لو عرفت خطأها ووضعتها على الطريق المستقيم وتحلّت المرأة بالعفّة فإن الأسر تستقر، وتردد المرأة ما قالته أختها من زمن مضى: «تموتُ الحُرّةُ ولا تأكل بِثَدْيَيْهَا»، لأن شرف البنت كلوح زجاجيّ إن انكسر لا يُصلحه شيء. والشرف تاجٌ والعفّة وقار، والحياء فضيلة، فهل تعتبر المرأة وتستفيد من الدروس التي سجّلها التاريخ ليكون الأمن والرقىّ للإنسانية، وليعمّ العالم السلام، ويومئذ يفوح المؤمنون بنصر الله.

إن الفتاة التي انحرفت عن الجادة وزجّت بنفسها في مواضع لا تليق بها، حيث جعلت من نفسها حقًا مشاعاً للرجال بلا ضابط ولا قانون، وأطلقت لنفسها العنان، فتطير من دَوْحَةٍ إلى عُشْبٍ إلى أرضٍ قَفْرٍ إلى ماء آسنٍ أهدرت إنسانيتها، والرجل في كل الأحوال واقِفٌ لها بالمرصاد على قارعة كل طريق يخدعها ويشغلها عن التنبّه بما يحيط بها من خطر، تارة بإغوائه لها، وأخرى بتهاونه في حمايتها، وتارة بتنازله عن حقوق رعايتها، حتى أصبحت تتناول إلى منزلته، ناسية الفوارق الجسدية التي بينها وبينه، وكانت النتيجة أن دفعها غرورها إلى الخروج من منزلها

الدافئ إلى تيار الحياة البارد حتى أُصيبت بحمى التعاسة، وأصيبت بزكام، فلم تشمّ نسيم الطهارة، ولم تتنبّه إلى النظافة التي خلّفها وراء ظهرها، والشوك الذي بدأت تدوسه. وأُصيب الرجل بفالج الرجولة المحطمة تحت أعقابها، وكل ذلك يؤدي بالإنسانية إلى الهاوية.

إن المرأة عليها أن تدرك أن مكانتها الصادقة ومجدها المتألق وحريتها المصونة وكرامتها الحقّة هي في أن تُحصّن نفسها بالشرف، وتتوّج مجدها بالعفة، وعليها أن تعلم أن الحرية التي تتغنى بها المدنيات اليوم رجوعٌ بالمرأة إلى العبودية في ثوبٍ برّاق، وأن الرجل يريد أن يجعلها مَسَلَةً لمجلسه، وترفيهاً له في عمله.. يريد أن يستأجرها للحنانات ليربح من ورائها، يريد أن يضعها في فترينة العرض وموضع الشراء والبيع ليجعل منها شيئاً يشد أنظار المشتريين، فيعلق عليها الإعلانات.. يريدّها في المكتب مُتعة لناظره، ومَلْهَاءَ لنفسه، وفي الشارع فرجة وترويحاً.. يريدّها لشهوته ولا ينشدها لإنسانيتها، يقيم لها مسابقات الجمال، وعروض الأزياء، واختيار أجمل السيقان، وقيم شركات التأمين على عيون الكواكب، وحنجرة المغنية، وكل ذلك سراّبٌ خادع وشراكٌ منصوبة لها لتزلّ قدمها، ثم بعد ذلك يتخذها ربيبة كَأَس، مخمورة بالليل، مسفوكة العِرض، وبين لحن النغم ونشوة الإعجاب دخلوا بها إلى حانات الجنس، ثم تخرج المسكينة من بين يدي الآثم الفاجر الذي تجرد من إنسانيته لتجد صحافة العصر تمسك بالكاميرات لتصورها وتبهرها وتغيّبها عن الواقع حتى لا تتعرّف على النهاية المؤلمة، ثم يزغليون عينيها بوضع صورتها على غلاف المجلة، وتوضع عليها الروائح العطرية الجذابة، فتخدر أعصابها، فتزهو بنفسها، وما عرفت أنها قد أُعيدت مزركشة إلى قفص العبودية، لأنها تُباع وتُشترى بأبخس الأثمان، ولا بيت لها، فهي من قفص إلى قفص، من يد الجزار إلى المشتري.

ثم خدعوها وقالوا لها: عَلَامَ الحجاب وأنتِ والرجل سواء لا فرق بينك وبينه؟ فرفضته وعاشت في دنيا الناس مكشوفة الرأس، عارية الصدر، مخنصرة الوسط، كاسية عارية، وهي تردد: «مفيش حد أحسن من حد». وقالوا لها أيضاً:

أنت والرجل سواء، فلمَ لا تذهبين إلى الحلاق؟ وهناك لم يجد الحلاق لها لحية ولا شارباً، فخرجت من عنده رأسها «كأسنمة البُخت»، ثم دهنها بالأحمر والأبيض، وزَجَّجَ الحواجبَ، فأصبحت مدهونة مصقولة، متعطرة متبرجة، تعتدى على عفة الشباب، وأصبحت بذلك مِعْوَلَ هَدْمٍ في جسم الأمة، لذلك طالب البعض بعزل البغايا وحصدهن بالمدفع، لأنهن شرُّ مُجَسِّمٍ وإصلاحهن مستعصٍ، لأنهن نشأن في بيئة فاسدة، وأسرَّ عفته، فهل تشعر بهذا الفساد وتعلن الحرب على بؤر الانحلال والبغاء؟.

إن المرأة التي سُلِبَتْ نفسها ورأيها، وحُرِّمَتْ نصيبها من الوجود، وَوُسِّمَتْ بوسام من الذل والهوان لا تكون امرأة فاضلة، ولا تنبئ عن أُمَّة عظيمة، ذلك لأن المرأة إذا استشعرت المهانة من ذويها هانت عليها نفسها، ولهذا علينا أن نُسارع إلى حلول اجتماعية لإيواء البغايا ومعالجتهن، ثم بعد التوبة نعمل على تزويجهن، فقد يخرج من ظهورهن من يفيد الإنسانية.. ألا ترى أن كائنات الوجود متحولة متفاعلة؟ فالورد من الشوك، والشهد من فِءِ النحل، واللبن يخرج من بين فَرْثٍ ودم، ولعلَّ بَغِيًّا ذاقت من العذاب وأحست أنها امتهنت طوعاً أو كرهاً، فخرجت من الرذيلة كما يخرج الذهب نقيًّا بعد أن صُهر على النار.. خرجت منتقمة للفضيلة من الرذيلة، تردد ما قالته «عفيرة»، وكان أحد الظَّلْمَةِ قد اغتصبها فقالت:

أيجملُ ما يُؤْتَى إلى فتياتكم وأنتم رجالٌ فيكمو عددُ النملِ
فلو أننا كُنَّا رجالاً وكنتمو نساءً لكنَّا لا نقرُّ لذا الفعلِ

موقفٌ من القرآن:

مريم ابنة عمران الطاهرة الشريفة التي انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، فاتخذت من دونهم حجاباً لتصون نفسها وتعبد ربها في أمن واستقرار، والله سبحانه أراد أن يجعل مريم آية للعالمين، فأرسل الحق سبحانه روحاً من عنده فتمثل لها بشراً سوياً، لكن العفيفة الطاهرة رأت بشراً يقف أمامها، فانتفضت خوفاً ورعباً وقالت: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ خَفِ اللهُ ولا تقرب مني. لكنه ردَّ عليها: ﴿أَنَا رَسُولٌ

رَبِّكَ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ، قالت له : كيف يكون منى غلام وأنا لم يَمَسَّنِي بَشَرٌ وأنا لستُ بَعِيًّا؟ وواصلَ الرسول رسالة ربِّه، وحملت مريم ووضعَت المسيح ليكون آية دالَّة على قُدرةِ الله وعظمتِه .

ولما ولدت «مريم» وجاءت إلى قومها تحمل وليدها هنا تعجَّب الناسُ من قومها، وقالوا: ﴿يَمْرِيءُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ ثم نادوا عليها قائلين: ﴿يَتَأَخَّتَ هُنُورًا مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْوٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ ، وهذا الكلام من أهلها يدل على أنهم كانوا يكرهون الزَّنى وينفرون منه، ويشنَّعون على مَنْ يأتيه، ولا يقبله الناس الكرام الذين تحلَّوْا بالفضائل، وأهل الأصول الطيبة، لذلك عابوا على مريم، لكنها أسكتتهم عندما أشارت إليه، فقالوا لها: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾؟ لكنه ردَّ عليهم بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبِرًا بِوَالِدَيْ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ (١).

هذا نموذج يتبين منه موقف الناس من الانحراف الجنسي، وأنهم يعيبون على مَنْ يفعله، فما بالك بغضب الله سبحانه وتعالى، الذى نهانا عنه لِمَا له من آثار ضارة بالصحة العامة، والترابط الأسرى، حيث يدخل من ليس منها فيها، وهنا تكون الطامة الكبرى على الإنسانية.

سيدنا محمد ﷺ وموقفُ له ما له:

وهل أتاك نبأ تلك المرأة التى كانت فى مكة المكرمة - وتسمى «فتنة» - وهى أمة لـ «عبد الله بن جدعان»، كانت أجمل بغايا مكة عند ظهور الإسلام، لأن الدعارة لها سوقٌ رائجة، وعبد الله بن جدعان له عدة دور للبغياء تُدار باسمه، وكانت مأوى لسفهاء قريش، وعلى رأسهم أبو سفيان وأبو جهل وغيرهما، فأغروا «فتنة» بمحمد، وحرَّضوها عليه لتعرض به حتى تهتز شخصيته فى أعين الجماهير، تقول «فتنة»: قابلتُ محمداً وجهاً لوجه لأفعلَ به الأفاعيل إطاعة لأمر هؤلاء

(١) انظر سورة مريم من الآية ١٦ إلى ٣٢.

السفهاء، لكننى عندما رأيته تخاذلت ساقاي حتى لا تكادا تحملانى، وجمد لسانى حتى لا يكاد يبين، فيمضى هو فى طريقه وأنصرف خاسئة وأنا أقتلع رِجْلِيَّ من الأرض اقتلاعاً، ثم استرعى انتباهى ما يشع على جبينه من نور، وما تنم عنه قسماته من طُهر وقداسة، وعرفت - فيما عرفت - أن دينه يُحرِّمُ البغاء، ويمقت الرق، ويُقدِّس الحرية، فعرفت أنه نصير المرأة، وأنه يُجاهد ليغير مصيرها لتكون حُرَّةً مَصُونَةً، فنظرت إليه بغير العين التى كنت أنظر بها إلى ذئاب البشرية، وتأكدت أنه المنقذ الأعظم، وأن خلاصى ومن معى من البغايا لن يكون إلا على يديه، فهو الصادق الأمين. وبينما أنا جالسة أفكر فى أمر محمد إذا بالبواب يدق، وإذا عدو الله «عتبة بن ربيعة» يدخل عَلَيَّ سادراً فى خِيَلائه ويقول: إنه مرَّ بأبى بكر الصديق يخطب، وأنه أَدْمَى شفتيه، فما كان منى إلا أن انتضيت نعلى فأدميتُ شفتيه هو، ثم آليتُ أن أخرج إلى الصديق فَأَعَطَّرَ فَضْلَ رِداى بدمه، وأن أعلن إسلامى، وقد فعلت والحمد لله. وبعد هنيهات سمعتُ خَفَقَ نعلين، وهَمَسَ تسبيحٍ يقطعان سُكُونَ الطريق، فدرت برأسى نحو مصدر الصوت، فإذا برسول الله ﷺ يَغْدُ فى السير، فأكبيتُ على يديه الشريفتين أمطرهما لثماً وتقبيلاً، وصحْتُ أُجدد إسلامى: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأنتك يا ابن آمنة رسول الله»، ورسول الله ﷺ يبتسم لى فى رِقَّة، ويدعو لى بخير، ولم يكد يُولينى ظهره حتى سمعتُ قذائف السباب مع قَذْفِ الروث والحصباء تنهال على رأسه الشريف، فجريت نحو مصدر الصوت، فإذا بأبى جهل «الحكم بن هشام» ورسول الله ﷺ ماضٍ إلى دار الأرقم، فغلا الدم فى عُروقى، وتقمَّصنى جسم جبار شديد فى غير شعور، واندفعت إلى هذا اللعين، عاملة يدى فى رأسه ضرباً، وأظفارى فى وجهه خمشاً حتى سالت دماؤه وَبِهَتْ، ثم فرَّ ملتمساً النجاة وهو يقول: «وَيْحَكِ يا داعرة! ما كنت أعرفُ أَنَّ لَكَ فيه هَوَى». فأجبتة: «صه يا عدو الله، إنه الطاهر الذيل، العف الإزار، وإن تُرابَ نعليه لأطهرُ من هامتك، وإنه لسيد أهل الجنة، وإنك لأحقرُ مَنْ فى النار». ثم لمحت شبحاً ينحدر من جبل أبى قبيس وقد تقلد سيفاً وتوشح قوساً فلما تبينته صِحْتُ: هذا أسد قريش، هذا «حمزة بن عبد المطلب». ومشيتُ إليه معترضة له فى الطريق، وأخذت أهيج حماسته كى يدفع عن ابن أخيه فضول سفهاء قريش،

وذكرتُ له ما حدث من أبي جهل لـ «محمد»، حتى ثار وهاج، وانطلق إلى الكعبة كالأسد الهصور، فرأى جَمَعَ السفهاء وفيهم أبو جهل، فما كان من «حمزة» إلا أن رمى قوسه فَشَجَّ رأسَ اللعين أبي جهل، وكادت الفتنة تشتعل لولا أن استخزي أبو جهل ومن معه، ثم أعلن «حمزة» إسلامه، ومن لحظتها والإسلام دخل في دور جديد.

هذه قصة «فتنة» وهذه يَدُها في تحويل الدعوة المحمدية، ربما كان هذا إعجازاً من صاحب الدعوة.. أرأيتَ ماذا صنع الإسلام بطهره وصفائه في نفس تلك الفتاة التي كانت منذ لحظات تحترف الخطيئة؟! .

إن الإسلام نور وضياء، والله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله فتح باب التوبة للبغياء، لأن في الإسلام - لو عقلت الإنسانية - ما يمنع هؤلاء الضحايا من قطف ثمرة الإثم المحرمة من بين الأشواك، وذلك بمنع الأسباب المؤدية إلى ذلك، من فقر، واختلاط، أو تهاون في المسؤولية الأبوية.

مواقف مصرية:

مصر المحروسة عندما دخلها «عمرو بن العاص» وانتشر الإسلام في ربوعها، ألبسها تاج العفاف غالياً، فازدانت على مر القرون، وكان إذا فجعها الزمن يوماً في طهارتها إبان فترة من فترات الانحلال أطلقت لسانها بالتشنيع على المستهترات خاصة من عصر المماليك. ولما تولى عباس الأول أمر بنفى كل من تثبت عليها الدعارة إلى أقاصى الصعيد. ولقد سجّل التاريخ الدور العظيم للداعية الإسلامى الشيخ محمود أبى العيون جولاته المحمودة للدعوة إلى البعد عن الاقتراب من هذه الدور - دور البغايا - والنهى عن ممارسة البغاء، مما حدا بالسيد أحمد زكى أبو السعود باشا وزير الحقانية آن ذاك من أن يطالب بإلغاء البغاء، وكان هذا عام ١٩٢٦ م.

وكان لوجود الأزهر على أرض مصر فضل كبير، لأن المصريين حفظوا القرآن الكريم، ورتلوه، وكان هذا من الأسباب العظيمة فى نشر الفضيلة والبُعد عن

الرديلة، لأن الإسلام حرّم الزنى، ونهى عن الأسباب المؤدية إليه، فأمر بغض النظر، وحفظ الفرج، وذلك من أسباب الفلاح والرقي والتقدم، وعلامة من علامات الإيمان، لأنه لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، والزانى بمنزلة المشرك. وقد أكد القرآن على ذلك حيث قال: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢). والإسلام قصد من وراء ذلك صيانة المجتمع وحفظه من الانهيار، لأنه إذا فشى الزنى فشت الأمراض الفتاكة، وانتشر الوباء الفتاك. وقد عرفت الإنسانية أن الزنى يجلب مرض «الزهرى» (٢)، والسيلان، وقد كشف الأطباء أخيراً عن مرض «الإيدز» وهو مرض خطير يقتل المناعة، ويدمر الخلايا، ويفتك بالإنسان الذى يغتاله كل دقيقة، مع أوجاع وانهيار فى الجسم، لهذا كان الله بنا رحيماً عندما نهانا عن الزنى، وأغلق الباب أمام كل شىء يوصل إليه، فالرسول ﷺ من باب حرصه على الشباب حثهم على الصيام إذا لم يستطيعوا الزواج، لأن الصيام يطهر النفس، ويرقق الحس، وينمى الضمير، ففى الحديث: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء» (٣)، أى يسد المنافذ أمام الشيطان حتى لا يسوّل للإنسان ويزجّ به ليقع فى الهاوية.

ولعل فى ذلك عبرة وعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد...

إن المرأة ستم من سهام إبليس، فمن رأى امرأة ذات جمال فغض عنها الطرف ابتغاء مرضاة الله أعقبه الله عبادة يجد لذتها، وعلى الأب والأخ والزوج كل منهم أن يعمل على حماية المرأة وصيانتها والحفاظ عليها، لأن من فرط فى ابنته أو أخته أو زوجته فهو ذئب، لا يغار على حريمه، والرسول ﷺ ذكر ثلاثة لا يدخلون الجنة: «الديوث، ومدمن الخمر، والمرأة المتشبهة بالرجل» أى المسترجلة، وقد لعنها رسول الله ﷺ فى حديث آخر، حيث قال: «لعن الله

(١) سورة النور.

(٢) الزهرى: مرض تناسلي خبيث مُعدي.

(٣) «الترغيب والترهيب» للمنذرى، ج ٣، ص ٢٩.

المُتَشَبِّهَات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء»^(١).

كما جاء النهى عن الخلوة بالنساء، فلا يجوز أبداً للرجل أن يختلى بالمرأة، حتى ولو كان طبيياً، ففي الحديث: «إِيَّاكُمْ وَالْخُلُوةَ بِالنِّسَاءِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا خَلَا رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا دَخَلَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمَا، وَلَأنَّ يَزْحَمُ رَجُلٌ خَنْزِيرًا مَلْطَخًا بِطِينِ أَوْ حَمَاءَةٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَزْحَمَ مِنْكَبَ امْرَأَةٍ لَا تَحِلُّ لَهُ». . . وفي حديث آخر: «لَأنَّ يُطْعَنَ أَحَدُكُمْ بِمَخِيطٍ مِنْ حَدِيدٍ فِي رَأْسِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ»^(٢).

إن الإسلام عندما أباح للمرأة أن تخرج وتتعامل بالبيع والشراء وطلب العلم وما شاكل ذلك، فإنه أمرها أن تصون نفسها، فلا تتزين، ولا تتبرج، ولا تخضع بالقول، وغير ذلك كثير، وهى التى تطالب بإلغاء هذه الأشياء تحت شعار الحرية، ونحن لا نمانع أبداً فى الحرية ولا نحجر عليها ولا نقيدها، لأن الحرية حق للناس فى دائرة الفضيلة، فلو جعلنا الحرية حقاً لهم وهم يُشيدون دعائم الرذيلة ويهدمون صرْحَ الفضيلة فليس ذلك من الحرية فى شىء. إن الإسلام أباح للمرأة أن تحضر الاجتماعات العامة، وتشهد الصلاة فى المسجد، ولكن بالحشمة والوقار والسكينة، ولهذا تقول السيدة عائشة رضى الله عنها، وقد وَقَفَتْ على جماعة من النساء وَنَهَتْهُنَّ عن الذهاب إلى المجتمعات العامة، فلما نُوقِشت بأن الرسول ﷺ أباح لهن ذلك قالت: «لو عَلِمَ رسول الله ﷺ ما أَحَدُنَّ لَمَنَعَهُنَّ مِنَ الْمَسَاجِدِ». ولقد امتنعت زوج الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن الصلاة فى المسجد، فسألها عن سبب ذلك، فقالت: فسد الناس، وأقرها عمر على ذلك. ولمَّا قال الرسول ﷺ: «لا يخلونَّ رجلٌ بامرأةٍ إلا مع ذى محرم» وقف رجل وقال: «امرأتى خرجت حاجة، وأنا اكتتبتُ فى غزوة». فقال النبى ﷺ: «ارجع فحجَّ مع امرأتك»، وهذا من باب الاحتياط، وأن يُباعد بين زوجته وكلام الناس، لذلك جعل صفها فى الصلاة خَلْفَ صف الصبيان، والرجال فى المقدمة، ونهاها عن رفع صوتها.

ومن عجب أنك فى شهر رمضان تقرأ فى الإعلانات عن حفلات الإفطار فى

(١) رواه البخاري وغيره. وانظر: «فيض القدير»، ج ٥، ص ٢٧١.

(٢) قال المنذرى: رجاله رجال الصحيح. وانظر: «الحلال والحرام» للقرضاوى، ص ١٤١.

الأندية، ويقولون في إعلاناتهم: «برنامج مشحون بعمل الخير والإحسان، وكذلك مساعدة المحتاجين - وموسيقى وغناء - ورقص بلدى، وزفّة عروسة - وألعاب سحرية وبهلوانية إلى غير ذلك». والواحد منّا يتعجب: أفى شهر رمضان يكون عمل الخير بالرقص البلدى والشعبى ولصالح الخير؟ كيف يُبنى صرح الفضيلة بلبنات الرذيلة؟ ما أشبه هذا بامرأة تبيع عرضها وشرفها فى سوق الخطيئة لتأوى يتيماً، أو تطعم مسكيناً، أو تقيم مأدبة إفطار، أو تحج البيت الحرام، وتذكرت ما قاله الإمام على كرم الله وجهه:

وَمُطْعِمَةُ الْيَتَامِ مِنْ كَسْبِ فَرْجِهَا فَيَا لَيْتَهَا لَمْ تَزِنْ وَلَمْ تَتَّصِدِّقِ

إن الرسول ﷺ ما ترك فتنة بعده أضرّ على الرجال من النساء، كما جاء فى الحديث، ثم إن الدنيا حلوة خضرة، وقد استخلفنا الله فيها، وهو سبحانه وتعالى ينظر إلى أعمالنا ويسمع أقوالنا، فعلينا أن نعمل بما أمر، وننته عما نهى. إن العاملات فى المراقص والحانات يجب منعهنّ منعاً باتاً، كما يجب إلغاء مدارس الرقص، وفى المعاهد الرياضية البدنية غنى عنها، وكذلك يجب منع الأغنيات المبتذلة، ومنع الصور الخليعة فى الصحف والمجلات، وفى مناظر الأفلام والمسارح، ولتكن الرقابة مشددة، صيانة للفضيلة، وتدعيماً للأخلاق، لأن الأخلاق إذا انهارت ذاب المجتمع وتفككت وأصر العلاقات الأسرية.

كما أننا لا نريد للجماعات التى تكونت لغاية سامية ودوافع إنسانية سامية - كإيواء اللقطاء، ومساعدة الفقراء، وغير ذلك من الخدمات الإنسانية - أن تقيم حفلات للرقص، ومهرجانات لجمع المال عن طريق تأباه الفضيلة، ويا حسرتاه إذا بلغ الاستهتار بالفضيلة حدّاً لا يُطاق، وبلغ التهاون بالدين درجة تفتت الإكباد، وفقد بعض الرجال نخوة الرجولة إزاء هذه الحالات المخجلة، حيث لم يرفع أحد صوته مستنكراً لما يحدث. . إن المسلمين عندما غفلوا عن حراسة دينهم والعمل بمبادئه انهارت القيم، واضطربت العقلية الإسلامية، فلم تدرك ما يهدف إليه الدين، ولم تطبق تعليماته على حياتنا، والمرأة نصف المجتمع، عندما اهتزت شخصيتها اضطرب المجتمع، وأصبح المنزل فى نظرها سجنًا، فحطمت السدود الاجتماعية، فدخنت السجائر، وشربت الخمور، وشمت الكوكايين، وجلست على المائدة الخضراء، وامتحتن خطيبتها لتدرس عواطفه، واصطحبته إلى السينما

والمسارح، وانخدعت بمدينة العصر الأعور الذي يرى الأشياء بعين واحدة، عين المادة التي صنعها وزينها إبليس لمن هم على شاكلته. وإذا كانت المرأة اليوم كشفت برقعها المسدول على وجهها الذي غطته بالأحمر والأبيض، فإنها خالطت الرجل لتتعرف على غرائزه قبل إنسانيته، وأدّى جسمها ضريبة الفن في المجالس، وصارت أنوثتها اجتماعية لا بيتية، وأوهمها الشيطان أن ذلك حقها الطبيعي فقد عاشت في دنيا أعصابها، وفرغ فؤادها من الأمن ولم تشعر بالاستقرار، ونحن دائماً نسمع بعض الأصوات مُطْنِطَةً بتمدين المرأة وحقوقها وحريتها، وهى أصوات لها مآرب غير بريئة من الغرض الذاتى، إن التمدين الصحيح هو الذى يقف بالمرأة عند حدودها الطبيعية، خاصة عند نظرية الحق والواجب، وتكون عاملة بمنهج الدين الصحيح، متمسكة بالفضيلة، لأن الأدب فضّلوه على العلم، وهو صمام الأمن الذى يحفظ على الإنسان إنسانيته ويجعله يحيا بخصائص روحه الطاهرة، فيشعر بالسعادة والهدوء والاستقرار ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ (١).

إن ميزان الحياة الاجتماعية قد اختلّ اختلالاً يُنذر بالخطر عندما ركب الفتى رأسه وهو يقطع صحراء الحياة غير مُتفَتٍ إلى تكوين أسرة وإنجاب أولاد، حتى يأوى إلى بيتٍ ينعم فيه بالسعادة، كذلك الفتاة، تقطع هى الأخرى صحراء الحياة اللافحة، وتحت شمسها المحرقة، ولم تنعم بدفء الحياة، وذلك بسبب إضراب الشباب عن الزواج واندفاعهم إلى اللهو، وأصبحت الفتاة فى الحياة - وهى بغير زواج - كشيك بدون رصيد، وزهرة بدون شذى، فاندفعت خارجة من البيت إلى الشارع، وانتهت إلى الملهى والملعب، وأطلّت برأسها على الناس من نافذة الصحافة والمجلات، ثم نزلت إلى السوق - كما تنزل الجوارى - بائعة ومشتريّة ودلالة، لذلك يئست من حياتها، وأصيبت بانفصام فى شخصيتها، وهى قلقة خائفة من المستقبل، زائغة البصر، وبسبب ذلك سجّلت الإحصائيات رقماً رهيباً من إقدام الأنسات على الانتحار، وهذا جرس إنذار لنا جميعاً، فهل من مُدَكِّرٍ؟! .

(١) سورة التغابن، الآية ١١ .

عيّات اجتماعية

إن الزنى ما فشى فى قوم إلا حلّ بهم البؤس، وحقّ بهم العذاب، لأن العابثين لا بد أن تنالهم يد القُدرة الإلهية، فليس من المعقول أن يتساوى الصّالح بالطّالح، والمُجدّد مع الكسول، والنابه مع الخامل.. وعذاب الله يكون فى صور متعددة، مثل: «الأمراض النفسية، الاكتئاب، التمزق الوجدانى، ظُلمة النفس، القلق النفسى، عدم الرضا عن نفس الإنسان، دمار الأسرة»، وبعد ذلك عذاب من القائل: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (١٢٩) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٣٠) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتِنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي (١٣١) .

والمرأة دائماً تحاول أن تنتقم من أهدر كرامتها، وأذهب شرفها، وحقّم كيانها، وهذه عيّنات تدل على ذلك.

كليوباترا التى أفنت عمرها فى الهوى، وعاشت بهيمية اللذات والشهوات، وظلت هى وعشيقها «أنطونيوس» كما يقول أمير الشعراء شوقى:

صباحهما مغازلة وصيد ولأفراح والقبل المساء

ولقد جعلت سرير مصر وعرشها كما جاء على لسان حابى:

أترضى أن يكون سرير مصر قوائمه الدعارة والبغاء؟

هذه الملكة باستهتارها فقدت شرفها وعرشها وتاجها وأمسكت بالأفعى لتضعها على ثديها، وخرّت صريعة نتيجة ما فعلت، وجزاء ما قدّمت ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ (٢).

و«سميراميس» قدمت نفسها فى ليلة من لياليها لعشيقها، وعند الفجر قدّمته للجلاّد.

وجاء بجريدة الأخبار^(٣) تحت عنوان «رأى بالعربى» للكاتب محمد طنطاوى

(١) سورة طه.

(٢) سورة فاطر، الآية ٤٣.

(٣) الصادرة فى ٦ مايو ١٩٩٥.

ما نصّه: ماذا يحدث فى المجتمع الريفي؟ لماذا ارتفعت نسبة الجرائم الأخلاقية فى هذا المجتمع الذى اشتهر بتمسكه بالتقاليد والأعراف وحدود الدين؟ هذه الأسئلة وغيرها يثيرها ما نُشر فى الأسبوع الماضى على صفحات الحوادث فى الجرائد المختلفة، من بينها حادث بشع يثير الاشمئزاز والحزن فى نفس كل مَنْ يقرأه.. هل يمكن أن نتصور جريمة تقشعر من هولها الأبدان، وقد وقعت فى إحدى قرى الدقهلية، ولكن الأبعث هو سبب الجريمة، فاعترافات الفتاة قبلة تنسف كل قواعد الأخلاق والتقاليد: لقد قَتَلْتُ والدها - وعمره ٤٧ عاماً - لأنه اعتدى عليها وعاشرها معاشرة الأزواج بعد أن طُلِّقَتْ من زوجها، لقد قاومتها، ولكنه تغلَّب عليها، حاولت الهروب من وجهه، لكنه استطاع أن يخلى البيت من زوجته «أمها» وبقية أولاده لينفرد بها، انهال عليها ضرباً بقسوة ثم نال منها ما يناله الذئب من فريسته، تَجَرَّدَ من كل الأخلاق... ثم تساءل الكاتب فى نهاية مقاله: مَنْ المجرم الحقيقى وراء هذه النوعية من الجرائم التى لم نعرفها من قبل، سواء فى الريف أو فى الحَضْرَى؟ هل هى أفلام الفيديو الممنوعة، والتى تُعرض فى بعض المقاهى فى الريف دون حساب أو رقيب؟ هل هى الظروف المعيشية داخل بيوت الريف، والتى تجعل الأب والأم والأبناء والبنات ينامون فى غرفة واحدة؟ هل تفشى المخدرات التى تُغيِّب العقل وتثير الغرائز بحيث تُحوِّل الإنسان إلى حيوان؟ هل هو الجهل مع كل عوامل الإثارة الأخرى التى دخلت الريف مع التطور الحضارى ممَّا أفقد البعض توازنهم العقلى والسلوكي؟... أسئلة لا إجابة عليها، لأن الكل غافل عن البعض.

كما جاء بجريدة الأخبار^(١) فى عامود «فكرة» للكاتب مصطفى أمين: أن محكمة جنايات بورسعيد حكمت بالأشغال الشاقة المؤبدة على أب قام باغتصاب ابنته البالغة من العمر خمسة عشر عاماً وعاشرها معاشرة الأزواج لمدة ثلاثة أشهر كاملة، وكانت المصادفة قد كشفت العلاقة الآثمة التى جمعت بين الأب وابنته، واستنكر الناس هذا الحُكم الذى كان يجب أن يقضى بالإعدام فى هذه الجريمة البشعة التى تستنكرها كل الأديان، وتلعنها السماوات، حتى الذين قالوا عنهم عبدة

(١) الصادرة بتاريخ ٣ مارس ١٩٩٧.

الشیطان لم یرتكبوا مثل هذه الجريمة، ولم یلوثوا الأديان المقدسة بهذا الهوان. وهی واحدة من سلسلة الجرائم التي وُجِّهت إلى البشرية، ونُكبت بها الإنسانية ولوثت صورة المجتمع، وشوهت الروابط الأسرية.

إن الجرائم التي تحدث الآن فی مصر هی جرائم كان من المستحيل أن تحدث لولا التفكك الأسرى ولولا تحكُّم المادة المخيف فی تصرفات هذه الأيام، والذين أسميناهم عبدة الشيطان لم يقوموا بجرائم بشعة ببشاعة هذه الجرائم، ولم تكن لهم يد فیما تنشره الصحف يومياً عن جرائم تهتز لها السماء والأرض معاً، ومن أسميناهم عبدة الشيطان فی رأى أنهم ضحايا أسر غابت عن الوعي، ونسيت رسالتها الأولى فی رعاية أطفالها وشبابها، ولم تفكر سوى فی البحث عن المال، وترک أولادهم يعشون بالحرية الممنوحة لهم فی ظل غياب الأسرة، وكثرة النقود التي يحصلون عليها كتعويض لهم عن عدم رعايتهم وتوجيههم التوجيه الصحيح الذي يحتاجه أى طفل فی طفولته، وأى شاب أو شابة فی بداية الشباب.

إن الحياة مملوءة بالمآسى، ومليئة بالسعادة، وعندما أقرأ الحوادث البشعة أشعر بتعاسة لا حدَّ لها، وأستغرب ما أقرؤه وكأني غريب تماماً عن هذه الحياة التي نعيش فيها الآن، وأتمنى لو لم یجئ اليوم الذي قرأت فيه هذه الحوادث عن قتل الآباء لأبنائهم، وعن قتل الأمهات لأطفالهن، وعن اعتداء الأخ على أخته، وعن قتل أخ لأخيه، وعن قتل ابن لأمه، ولو أنني أعتقد أنها حالات قليلة إلا أنني كنت أتمنى ألا تكون فی مجتمعنا الإسلامی الذي ینادى بالحب والتسامح لا بالقتل وسفك الدماء، وسعادتی أن يعيش الناس بالحب والتسامح والترابط.

وجاء بجريدة مايو^(١) أن مباحث مكافحة الآداب بالشرقية ألفت القبض على موظف بالتربية والتعليم لحيازته أشرطة منافية للآداب وقيامه بتأجيرها لطالبات المدرسة التي يعمل بها نظير مبالغ مالية بالاشتراك مع أمين مكتبة المدرسة.

ونشرت جريدة الجمهورية تحت عنوان «طالبات الخدمة الاجتماعية فی

(١) الصادرة فی ٢٤ أبريل ١٩٩٥، العدد ١٥٠٩٢.

التدريب الميداني»: «لاحظنا وقوع بنات التجارة المتوسطة في حب مدرّسيهم . . . امنعوا المدرسين الشباب من العمل بالثانوية بنات». ولقد قالت طالبة: إنها لاحظت تأثير المستوى الاقتصادي للأسرة وتفككها على سلوك ومشاعر وتحصيل البنات، حيث يغلب عليهن السرحان والتفكير في مشاكل أسرهن. وقالت طالبة أخرى: إن أولياء الأمور لا يهتمون بإنذار الغياب، أو باستدعاء المدرسة لمناقشتهم، ويرفضون المشاركة في اجتماع مجالس الآباء، خوفاً من مطالبتهم بأى تبرعات أو رسوم إضافية، كما أن الطالبات يتم طردهن عند التأخر عن طابور الصباح وتركهن في الشارع بلا رقيب.

هذه عيّنات اجتماعية نقلناها. ونترك الباقي لفتنة القارئ وهو يجده في وسائل الإعلام: من مجلّات، وصحف يومية، أو أسبوعية، ونقف أمام نموذج نضرب به المثل على قوة الإرادة عندما تستيقظ الهمة، وتصحو العزيمة، وتتهيا المنحرفة إلى التوبة والندم على ما وقعت فيه وانحدرت إليه، ثم تريد أن تستردّ كرامتها وتحافظ على ما بقي من شرفها، ونحن نعتقد أن الخير كامن في أعماق النفوس، لأننا نحكم على الأشياء بمنطق الفطرة. . وإليك هذا النموذج:

كانت «معاذة بنت عبد الله» واحدة من الإماء في دار «عبد الله بن أبي بن سلول»، وقد كان يتاجر في أعراضهن، حيث يقدمهن لطلاب المتعة نظير مبلغ معين، وعبد الله بن أبي كان من سكان يثرب «المدينة المنورة»، وكان أهل يثرب سيتوّجونه ملكاً عليهم، فلما وصل رسول الله ﷺ إلى يثرب تركوا ما كانوا قد شرعوا فيه^(١)، واغتاز عبد الله بن أبي من رسول الإسلام، وأعلن إسلامه، لكن في القلب شيئاً وأشياء، لهذا تعامل بوجهين، فصار منافقاً، وأخذ يكيد بالإسلام، وبرغم أنه أعلن إسلامه فإنه كان يتاجر في أعراض الفتيات طلباً للثراء، وطعناً في الإسلام، و«معاذة بنت عبد الله» أسلمت، فامتلاً قلب ابن سلول عليها حقداً وحسداً، لأن «معاذة» كانت تؤمن بأن الإسلام الذي حرر عقلها، حرر كذلك جسدها من المهانة، ورفضت أن تقدم هذا الجسد لطالب المتعة الحرام، لكن ابن

(١) أي: تركوا أمر تتويج عبد الله بن أبي ملكاً عليهم.

سلول لم يسكت على هذه الفتاة التي خرجت عن طوعه، وهددها بالتعذيب، لكنها لم تستسلم، فعمد إلى شاب قوى، ضخم الجثة، متين البنيان، يخافه من ينظر إليه، وأغرى هذا الشاب أن يعتدى على تلك الجارية حتى يقهر كبرياءها، ومن ثمّ يستطيع أن يقودها إلى بيوت البغاء، حتى يكسب من ورائها المال الكثير. لكن هذا الشاب لم يستطع تنفيذ ما أمره به ابن أبيه، لأنها آمنت بالإسلام الذي يُحرّم الزنى، وأن أى لقاء بين الرجل والمرأة لا يكون إلاّ بالزواج المبنى على الإيجاب والقبول، والشهود، والوكيل عن الزوجة، وغير ذلك، فهو حرام، والمرأة المسلمة لا يعلوها مشرك، ومن كان على غير دينها، لذلك لم تستسلم برغم إغراء سيدها وإهانة العبد الذى أحاله عليها لها. هذا، وقد اشتد عليها العذاب من ضربٍ وصفع على وجهها، وركل بالقدم، ولكنها كانت توقن بأن هذا الضرب والإهانة أخف عليها من ليلة تُمتهن فيها كرامتها، ويُداس على شرفها، فهى وَجَدَتِ التعذيبَ برغم قسوته أَخَفَّ على نفسها من ليلة بغاء. ولقد امتد العذاب ولم تلتن قناتها، ولم تستسلم، بل إن العبد من كثرة ضربها تعب، فأخذته سِنَّةٌ من النوم، فخرجت من دار ابن سلول - والعبد نائمٌ مُتَعَبٌ من ضربها - وتوجهت إلى بيت رسول الله ﷺ، فأمرها أن تستريح بين النساء لعل الله سبحانه يجعل لها ولِمَنْ هم على شاكلتها مخرجاً. ولقد نزل هَدْيُ السماء ووحى الله إلى نبيّه قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة، يقول الله فيه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبِّغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(١)، وتناقل الناس هذه الآية. وقالوا: إنها نزلت فى شأن «معاذة»، وشاع الخبر أن ابن سلول الذى يزعم الإيمان يُكرهه فتياته على البغاء، وهو الذى كان سَيِّئَصَبٌ ملكاً عليهم، لكن هذا الرجل يتاجر فى أعراض النساء ليربح المال، فهو يدعى الإسلام ويضمّر الكفر، فهو منافق، وإن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار، ولن تجد لهم نصيراً. وابن سلول هذا أعتق الجارية «معاذة» التى كتبت حريتها بما سأل من جسدها من دماء على إثر التعذيب الوحشى من ابن سلول وعبده. ولقد عاشت هذه المرأة حياة الفضيلة والعفة، حيث أشعرها الإسلام بكرامتها وعزتها، فلم تَبِعْ نفسها

(١) سورة النور، الآية ٣٣.

لرجلٍ مهما كان ماله أو سلطانه، لأن الشرف لا يُباع، والحرّة لا تُمتهن.

إن باب الله مفتوح أمام أى بغىٍ لتتوب، وباب التوبة لا يُغلق، لأن الله رحيم بالعباد، ونحن بشر، فمن تنكب به الطريق وانحدر إلى الهاوية فإن علينا أن نأخذ بيده لينهض من كبوته ولا نكون عوناً مع الشيطان عليه، وأن ندله على باب الكرامة ونُهيئ له حياة طيبة فى ظل الإيمان بالله الواحد الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، وهو مع كل إنسان فى أى مكان، لا تختلط عليه الأصوات، ولا تتشابه عليه الصور. والإنسان العاقل عليه أن يتجه إلى خالقه يعبده ويلتزم بهديه، يرجو رحمته ويخاف عذابه، وأن يكون أميناً على نفسه، صادقاً مع الله، وصادقاً مع الناس، لا يخون ولا يُخادع، إنما يعيش حياة الطهر والعفة، حتى يعيش سعيداً هادئ النفس مستقر الحال.

السَّبِي

إن المرأة كانت تُدفعُ إلى البغاء بيد الرجل ليتكسب من ورائها، ونحن لا نُزيّفُ التاريخ فمثله زهراً لا شوك فيه، لأننا أحياناً نجد من الصداقة ما يؤلم.. ولقد أُصيبت المرأة طوال تاريخها بفترات قاسية جداً تركت جرحاً عميقاً فى نفسها أو سبّب لها إهدارَ كرامتها، وكان بعض الرجال يلجأون إلى سببها، أى أن تتحول إلى أمةٍ عبدة رقيقة، بعد أن كانت حرة، وعندما تتحول إلى أمة - بعد أن كانت حرة - فإنه يحق للرجل الذى سبها أن يبيعها، أو يتسرّى بها، أو يؤجرها فى البغاء ليربح من ورائها.

وكان العرب فى حالة الحرب يُخرجون نساءهم ويجعلونهن خلف الصفوف، ليكون ذلك دافعاً للرجال فى الإقدام والاستبسال فى القتال، وربما غلبوا، فيكون همّ الظافر أن يتخذ النساء المقهورات سبايا يسوقهن أمامه ويتحكم فيهن كما يتحكم فى ماله، وكان ذلك من باب الفخر، وحتى يقطع على خصمه كل عرق ينبض. ولقد كان بعض العرب يخلط السبايا بنسائه، ويُزوجهن من عظماء الرجال وقادة الجيش، وفى ذلك يقول الشاعر عبد الله الطائي:

فما أنكحونا طائعين بناتهم
فما زادهما فينا السباء مذلةً
ولكن خلطناها بخير نساءنا
وكائن ترى فينا من ابن سبية
ويأخذ رايات الطعان بكفه
كريم إذا اعتزَّ اللثيم تخاله
ولكن خطبناها بأسيافا قسراً
ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدراً
فجاءت بهم بيضاً وجوههم زُهراً
إذا لقي الأبطال يطعنهم شُدراً
فيوردها بيضاً ويصدرها حُمراً
إذا ما سرى ليلُ الدُّجى قمراً بَدراً

وهناك مِنْ سادات العرب وذوى زعامتهم أنجبَتْهم سبايا، فلم يَضَعْ ذلك من أقدارهم، أو يقلل من أحسابهم، وذلك مثل دُرَيْدِ بْنِ الصُّمَّةِ، حكيم العرب وشاعر فرسانهم، أمُّه ريحانة بنت معد يكرب، أسرها الصُّمَّةُ بن عبد الله ثم تزوجها، فأنجبت دُرَيْدًا وإخوته، وفي ذلك يقول الشاعر:

أمن ريحانة الدَّاعَى السميع يؤرقنى وأصحابى هجوع
سبأها الصُّمَّةُ الجُشَمِيَّ غصباً كان بياض عزتها صديع^(١)
وحالت دونها فرسان قيس تكشف عن سواعدها الدروع
إذا لم تستطع شيئاً فدَعَهُ وجاوزةً إلى ما تستطيع

وقد كان بعض النساء عندما يقعن فى الأَسْرِ يُحاوِلْنَ الخلاص منه خوفاً من المصير الذى ينتظر الواحدة منهن، وإذا لم تجد إلا الموت أقبلت عليه راضية، وهى تُرَدُّد: الموتُ ولا الدَّيْنَةَ، ذلك لأن المرأة التى تعتز بكرامتها وتحافظ على شرفها تحافظ على ذلك مهما كانت الظروف، فكما قلنا من قبل: تموت الحُرَّةُ ولا تأكل يثديها. ونابليون الذى فتح الحصون وأزال الممالك سُئِلَ مرة: أى قلاع فرنسا استعصت عليه؟ قال: المرأة الصالحة، لأنها تربى الوليد بيمينها وتهز العالم بشمالها. ولعلنا نذكر تلك المرأة النخعية التى استعرضت بنيتها عند ذهابهم لحرب الفُرْسِ قائلة لهم: «والله ما خُنْتُ أباكم، ولا فضحتُ خالكُم، ولا لوثتُ شرفَ أجدادكم... انطلقوا رءوسكم مرفوعة، وهامتكم عالية، تحرسكم عناية الله الذى يتولى الصالحين».

(١) يعنى: ضوء القمر.

ولقد حدثوا أن فاطمة بنت الخُرْشِب لَمَّا أَسْرَهَا حمل بن بدر رمت بنفسها من
الهودج منكسة، فماتت وهي تردد: أموت ولا أفضح أهلي وألوتي شرفي، وأُمَّتَهُنَّ
في دنيا الناس».

هذه نماذج حفظتها ذاكرة التاريخ وسَجَّلَهَا لتكون أمام أعيننا درساً نستفيد
منه، لأن العاقل من اتَّعَظَ بالأحداث.

الاسترقاق

إن التاريخ يحدثنا بأنه منذ العصور الأولى ونظام الحياة يقوم على وجود طبقة من الرقيق تكدح وتعمل وتتعب، ووجود سيد فاتح يستولى ويحكم، ولقد أقرت المدنيات نظام الاسترقاق، ووضعت القوانين الضابطة له، فالمُشرِّع الرومانى كان يتكلم عن المرأة التى سُلبت منها حريتها فيعرض لها كما يعرض لسلعة من السلع، فالأمة إذا حدث منها هفوة فجزاؤها السجن والضرب بالسياط، وقد بلغ من افتيات الشريعة الرومانية على حقوقها أنها لا تصبح مواطنة تتمتع بامتياز حقوق المواطنين، حتى ولو أُعتقت.

وكانت جموع الرقيق - رجالاً ونساءً - يدخلون «روما» صفوفاً صفوفاً، حيث تُوجَّهُ النساء للخدمة فى بيوت القواد. وفى الهند كان السيد البرهمى له كل الحقوق تجاه العبيد، حتى ولو حَكَمَ عليهم بالموت. وكانت اليهودية ترى أن القسوة فى معاملة الأرقاء تشريع من تشريعاته. ومن الغريب أن الديانة المسيحية - وهى تقوم على التسامح والعطف - أقرَّت الوضع اليهودى فى التشريع، كما فى رسالة بولس لأهالى أفسيس. وبالجمل، فقد كان الأرقاء يلاقون العذاب والهوان والاحتقار، ويُلزَمون بكثير من الواجبات، فى حين لا يُعترف لهم بأى حق، والجارية هى كل امرأة أُخذت أسيرة فى الحرب، أو أُخذت أسراً من قومها، حيث يبيعها النَّخَّاس. وكانت دار الرقيق فى بغداد قُرب دِجْلَة، وفى القاهرة قُرب باب الخلق، وكان النخاسون يخرجون خلف الجيوش، ثم يشترون من المنتصر سباياه، فلما جاء عهد إسماعيل (خديوى مصر) قضى على هذه التجارة، لكنها استمرت خفية. وكان إمبراطور الحبشة يشجع ذلك، حتى تدخلت عصبة الأمم المتحدة عام ١٩٤٠ فقضى على ذلك، وإن كانت استمرت فى سنغافورة حتى وقت قريب.

وقد لعبت الجوارى دوراً خطيراً فى قصور الملوك والأمراء، لأنهن يتمتعن بمعرفة الأدب والغناء، ويجارين الشعراء ارتجالاً، ولا سيما فى مطارح المعجون. كذلك قدرتهن على الدعابة وترويح الأفكار والآراء، الأمر الذى أحدث خلخلة اجتماعية وفساداً فى المناخ العام، وتسبب ذلك فى غواية الكثيرين، حيث أقبلوا على شرب الخمر، والاستماع للأغاني والرقص، خاصة من الإماء اللواتى كن يتمتعن بحظ وافر من الجمال والبراعة فى الغواية، وقد نال كثير منهن حظوة لدى الأمراء والقواد، وأصبح لهن من النفوذ والتأثير درجة كبيرة، حتى إن جارية أقسمت يوماً على هارون الرشيد أن يولى أحد أقربائها الخراج ببلاد فارس لمدة سبع سنين، فامتثل لها وكتب عهداً بذلك، وشرط على وليّ عهده أن يتمها له إن لم تتم فى حياته. ولقد أدى ذلك إلى أنهن شاركن فى المؤامرات التى تحاك فى بلاط الخليفة لخلعه ومبايعة آخر. وكان هذا من أسباب زوال مُلكِ بعض الممالك وقيام دولة أخرى، ولكن لم يتَّعظ اللاحق من السابق.

ولقد عرفت الدولة الأوربية نزعة اللهو فى سلاطين آل عثمان، فبعثت إليهم بالجوارى، وتوعَّزُهُنَّ بالتدخل فى شئون القصر لتنفيذ أغراض هذه الدول، والتاريخ لا يكذب، لأن ما حدث مُسَجَّلٌ على صفحاته. ونحن عندما نتصفح التاريخ نحمد الله الذى جعلنا من أتباع الإسلام الذى ارتقى بالمرأة وحفظ لها حرمتها، وحرَّم اختطافها، وأمر بمن يتهجم على المرأة أن يقوم الحاكم بتطبيق آية الخرابة عليه، وهى قول الله: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١).

إن المرأة عاشت فى كنف الإسلام أسعد ما تكون لا تمسها يد بسوء، فلما اختل ميزان الحياة وخرجت المرأة على عادات قومها ومألوف بيئتها وقيم دينها أتر ذلك على كيانها الاجتماعى، وحيلَ بينها وبين المعرفة الحقيقية، فاضطربت

(١) سورة المائدة.

حياتها، وصارت أشبه بمتاع المنزل في المنزل، ثم جاء ما سُمِّيَ بالنهضة العصرية، فتخلصت المرأة من الأسْرِ، لكنها مع الأسف لم تُحسن التخلص.

إننا نريد للمرأة حياة الفضيلة وعيشة النعيم، وأن تكون ذات شخصية جذابة، ينمُّ جسمها عن جمال رشيق، تمدُّه الصحة بينوعها الفوار، وتهذبها بالرياضة، وتنمُّ روحها عن جمال معنوي، من ذهن مشرق وشعور رقيق، ورأى نبيل. نريدها كالتى يقول عنها الدكتور طه حسين فى بعض كتبه وهو يهدى الكتاب إليها: «إلى زوجتى التى جعل الله لى فيها نوراً بعد ظلمة، وأنساً ونعمة بعد بؤس».

إننا نريد المرأة أن تكون أجذب أنوثة من «كليوباترا»، وأعذب حديثاً من «شهرزاد»، وأفتن رشاقة من «بنات هوليد»، فيستمد زوجها منها المدد، ويتزود بالقوة، لتكون ما يقول القائل: «كلما وجدتُ رجلاً وصل بعمله إلى غايات المجد وجدتُ بجانبه امرأةً محبوبة فاضلة». ثم هناك زوجة «بسمارك» السياسى الألمانى الكبير يقول عنها: «إن زوجتى هى التى جعلتنى مَنْ أنا». فهل تقرأ المرأة ذلك وتعرف وضعها الطبيعى فى المجتمع؟ الذى يريد لها أن تكون ربة بيت بارعة، وزوجة حانية، تتربح على مملكتها لترعى أطفالها الذين هم رجال الغد، وتعيش بقيم الدين وعادات الأهل وتقاليد المجتمع لتسعدَ بالأمن والاستقرار، ولا تخدعها تلك الكلمات التى يقولها مَنْ يريد إعادتها إلى قفص الرِّقِّ، مزركشة الثياب، ملطخة الوجه، يقودها القودا إلى مكان تُذبحُ فيه الفضيلة باسم الفن الذى هو برىء مما نراه على الساحة، لأن الفن انعكاس لقيم المجتمع وعادات أبنائه، والذى نراه فى السينما أو المسرح أو التلفزيون لا يمثل عادات المجتمع ولا يعكس قيمه أبداً، وإن كان فنسبة ٢٪، لأن الفن له رسالة وغاية يسعى لتحقيقها فى المجتمع، وهى تأصيل القيم الأخلاقية، وترسيخ العادات الحسنة فى نفوس الجماهير، لكن للأسف ما نراه حُبٌّ وخمر ومخدرات وصور مهزوزة وشخصيات لا جذور لها، لهذا نحن ندقُّ الجرس ونقول: انتبهوا يا سادة قبل فوات الأوان ولا تهينوا المرأة وتجعلوها مُبتدلةً، وكفى ما كان.. ونهمس فى أذن المرأة: «احترسى وحافظى على شخصيتك وتمسكى بعادات آبائك، وحافظى على سُمعة أهلك تعيشى مرفوعة الرأس، يحفّ بك البهاء والوقار».

رَبَّةُ الأُسْرَةِ السَّعِيدَةِ

إن المكان الأول للمرأة في المجتمع الإنساني هو أن تعيش على أسرة سعيدة، وتحتضن أطفالها بحب وحنان، وليس هناك امرأة في الوجود إلا وهي تتمنى ذلك، والأقوال كثيرة في هذا المجال، والإنسانية لم تصل إلى ما وصلت إليه من الأسس العظيمة لبناء الأسرة وتنظيمها إلا بعد آلاف السنين، ذلك لأن العوامل الاجتماعية التي أوجدها التطور وارتضاها العقل الجَمْعِي وحصنتها الشرائع السماوية بنظم تؤكد الروابط بين الذكر والأنثى، كل ذلك لتؤدي الأسرة رسالتها في إسعاد الأبناء ورفاهية المجتمع. إن على المرأة أن تأخذ مكانها الطبيعي على قمة الأسرة، وأن تتبوأ مكان الرأس من الجسد في الأسرة، بل مكان القلب من البدن، ذلك لأنها هي التي تُرسل دم الحياة المملوء بالنقاء والبهجة والسرور فيمن حولها، لأن عليها يقوم كيان البيت وسعادته ورقبه وهناءته، لأن «الأمومة» هي وظيفتها الأساسية، حيث تتجلى هي في إيجاد الروابط بين أفراد الأسرة. إن عليها حسن التوجيه، خاصة للأطفال في سنى حياتهم الأولى لأنهم في هذه المرحلة تتكون شخصياتهم، وهم يمرُّون بفترات تطراً عليهم التغيرات الجسدية، والانفعالات النفسية، وليس هناك رابطة مثل رابطة الأمومة التي لا تعرف الضعف على مدى الزمان والأيام.

إن المرأة ملكة غير مُتَوَجِّجَةٍ على مملكتها الصغيرة، فلا تعيش على هامش الأسرة عيش الترف واللامبالاة، بل لا بد أن تكون حازمة في سياسة الأسرة، عارفة لكل صغيرة وكبيرة من الحساب الداخل للبيت والخارج منه، فهي زوجة فاضلة، وراعية للطفل في مهده، ومهيئة المنزل ليجد الزوج راحته ويشرف على أولاده. إنها بذلك ترتفع بالمستوى الاجتماعي للأسرة المثالية التي تنعم بالأم العاقلة، والزوجة الفاضلة، فلا تترك بيتها وتذهب إلى الخياطة لتقضى عندها الساعات، أو تذهب إلى «الكوافير» وتقضى هناك نصف النهار، أو تذهب إلى عيادة طبيب وتمكث هناك ثلث الليل، أو تذهب إلى السينما أو المسرح وتترك البيت والأولاد بلا رعاية ولا تخطيط، كل ذلك يوجد التصدع في الأسرة، والتسيب أو الانحراف

فى الأولاد، وبيحث الزوج عن أخرى تشاركه همومه وترعاه، وهنا يكون الشر الذى ينشر خلاياه فى المنزل فيتصدع وينهار، ولذا قيل فى حق الأطفال الذين أُهْمِلُوا:

ليس اليتيم من انتهى أبواه مِنْ هَمِّ الحياة وخَلْفاهُ ذليلاً
إن اليتيم هو الذى تَلَقَى له أُمًّا تَخَلَّتْ أو أباً مشغولاً

فالأسرة السعيدة هى التى تقوم فيها الأم بأداء دورها كاملاً، لأنها هى التى تعشش على بيتها، ومثلها كمثل «المغناطيس» الجميع ينجذب إليها، لما تتمتع به من حُبِّ وحنان دافق، وهى مع ذلك تشجع زوجها على العمل الجاد، وتُدخل الأمن على نفسه، لأنها راعية للبيت، محافظة على شرف الأسرة وكرامتها، أمينة على بيتها، لا يدخله أحد فى غياب زوجها، لأن عملية الضبط والربط شىء أساسى، فهى تقول لزوجها: ابْحَثْ أنتَ عن رزق الله بطُرق الحلال، وإِيَّاكَ والحرام، فإننا نصبر على الجوع والعطش ولا نصبر على العار الذى يلحقنا عندما تُضْبَطُ وأنت مُتَكَبِّرٌ برشوة، أو قمت بالغش فى البيع أو التدليس فى عملك، فإن الخير كله فى الحلال ولو كان قليلاً، وإن الشر فى الحرام ولو كان قليلاً أيضاً.

وإنَّا مُلِمُّون بحديث عن كرامة المرأة من الوجهة الإسلامية، حيث قرن الإسلام بين الرجل والمرأة فى عامة المواطن، ونظراً لما عُرفَ عن المرأة من رِقَّة القلب ودقة الوجدان، ولأنها مناط شرف الرجل وموطن عِرْضِهِ فإنه اختصَّها بنصيب من الحُرْمَةِ والكرامة لم يظفر بمثله نظراًؤها من الرجال. إنَّ كرامة المرأة فى الإسلام تتناول شخصيتها وسيرتها، وتشمل مشهدها ومغيبها، فمن حقها أن تكون فى موطن الرعاية والعناية، وأن يكون اسمها بِمَنْجَاةٍ عن لغو القول ومنالِ اللسان، وحَسْبُكَ أن الله أنكر فى كتابه على قاذِئِ النساءِ فى أعراضهن بأشدِّ مِمَّا اشتدَّ على القَتْلَةِ وقُطَاعِ الطريق، وقرأ معى ما جاء فى سورة النور: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤١﴾﴾ لأن صيانة اسمها وكرامة سيرتها من الأمور الهامة، حفاظاً على روابط الأسرة، وكرامة الأولاد بين نُظرائهم، وسمعة الزوج بين أهل حَيِّهِ، لذلك يُعاود القرآن الكريم الحديث

عَمَّنْ يَغْمَزُ وَيَلْمِزُ فِي حَيَاةِ السَيِّدَاتِ، وَيَسِمُ مَنْ يَتَاطَلُ عَلَى شَرَفِ النِّسَاءِ بِالْحَدِيثِ الْمَلْفُوقِ وَالتُّهْمِ الْبَاطِلَةِ بِالْفِسْقِ وَالْفُجُورِ، بَلْ يَتَّهَمُهُ فِي ذِمَّتِهِ وَعَدَمِ قَبُولِ شَهَادَتِهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ فِي مَجْمُوعَةِ الْأَفَّاكِينَ الْمُزْجِفِينَ الَّذِينَ يَحْبُونَ أَنْ يَشِيعُوا فَالَةَ السُّوءِ عَنِ بَعْضِ النِّسَاءِ، وَهَمَّ لَا يَزَالُونَ يَلْهَثُونَ يَرُوجُونَ بِالسُّنْتِهِمْ مَا أَكْتَتَهُ الْبُيُوتُ مِنْ أَعْرَاضِ الْحَرَائِرِ، فَهَلْ يَسْمَعُ رِجَالُ الْيَوْمِ مَا قَالَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهِمْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢). إِنْ بَعْضُ الْحَاقِدِينَ يَحْسُدُ غَيْرَهُ عَلَى مَكَانَتِهِ أَوْ مَرْكَزِهِ، وَيَضْمُرُ لَهُ السُّوءَ بِسَبَبِ نِبَاهَتِهِ وَعُلُوِّ شَأْنِهِ، فَلَا يَجِدُ وَسِيلَةَ لِلنَّيْلِ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَلْغُ فِي عَرَضِهِ، وَيَعْتُو فِي كِرَامَةِ أَهْلِهِ. وَهَنَّاكَ مَنْ يَشْعُرُ أَنْ عَرَضَهُ مُصْدُوعٌ، وَشَرْفَهُ مُشْدُودٌ، فَيَتَّخِذُ بَيْتَ غَيْرِهِ لَيْنَالٍ مِنْهُ، عَسَاهُ يَدْرَأُ عَنْهُ الْعَيُونَ الْمُخْدِقَةَ، وَيَكْفُ دُونَهُ حَدِيثَ الْأَلْسِنِ، لِذَلِكَ فَنَحْنُ نُنَبِّهُ عَلَى أَنْ الْأَكَاذِيبَ لَا يَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تُرَوِّجَهَا، وَلَا تَتَّبِعِ الْإِشَاعَاتِ، وَلَا تَبْحَثَ عَنِ أَسْرَارِ الْبُيُوتِ، فَإِذَا كَانَتْ لَكَ عَيْنٌ فَلِلنَّاسِ أَعْيُنٌ، وَإِذَا كَانَ بَيْتُكَ مِنْ زَجَاجٍ فَلَا تَرْمِ بَيْتَ الْآخِرِينَ بِالطُّوبِ. كَمَا أَنَّا نَهَيْبُ بِكُلِّ امْرَأَةٍ أَنْ تَلْتَزِمَ الْأَدَبَ، وَتَتَعَامَلَ بِالاحْتِرَامِ مَعَ الْآخِرِينَ، وَلَا تَضَعُ نَفْسَهَا مَوْضِعَ الشُّكِّ وَالْارْتِيَابِ، وَإِنَّمَا هِيَ إِذَا غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا حَفِظَتْهُ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَأَوْلَادِهِ.

إِنْ بَعْضُ النَّاسِ يَضْرِبُونَ نِسَاءَهُمْ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنْ الضَّرْبَ وَسِيلَةَ لِلأَدَبِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ هُوَ وَسِيلَةَ لِلخُرُوجِ عَلَى التَّقَالِيدِ وَالْأَعْرَافِ، وَقَدْ حَدَّثُوا أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ ضَرَبَهَا زَوْجُهَا ضَرْبًا شَدِيدًا، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ، وَقَالَ: «يُظَلُّ أَحَدُكُمْ يَضْرِبُ امْرَأَتَهُ ضَرْبَ الْعَبْدِ، ثُمَّ يِعَانِقُهَا وَلَا يَسْتَحِي» (٣). وَرُويَ أَنَّ

(١) سورة النور.

(٢) سورة النور.

(٣) ورواه البخاري في كتاب «النكاح» بصيغة النهي، عن عبد الله بن زبعة قال: قال ﷺ: «لا يَجْلِدُ أَحَدُكُمْ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ ثُمَّ يَجَامِعُهَا فِي آخِرِ الْيَوْمِ». وفي الحديث نهى عن أن يُبَالِغَ =

رسول الله ﷺ نَهَى عن ضرب النساء، فقيل: يا رسول الله، إنهن قد فَسَدْنَ، فقال: «اضربوهنَّ ولا يَضْرِبْنَهُنَّ إِلَّا شَرَارِكُمْ»^(١). والمسلمون عندما سمعوا ذلك كَفُّوا الأذى عن نساءهم. وقال أحدهم وكانت زوجته تسمَّى زينب:

رَأَيْتُ رَجَالًا يَضْرِبُونَ نِسَاءَهُمْ فَشُلَّتْ يَمِينِي حِينَ أَضْرَبْتُ زَيْنَبًا

إنك لا تجد قوماً أبعد مَدَى في الضلال، ولا أقصر يداً عن الحقيقة، ولا أقل فهماً من أناس أجازوا لأنفسهم الحُكْم على الإسلام وليسوا منه في قليل ولا كثير، فأباحوا لأنفسهم أن يكتبوا عن النساء في الإسلام، وزعموا أن الإسلام حَكَمَ عليهنَّ أن يَكُنَّ قَعَائِدَ بيوتٍ، لا رأى لهنَّ. ولا نصيب لهن من الحرية يعتززن بها، وتلك إحدى نزعات الهوى الذي انساق إليه مِمَّن لا علم عندهم. ونقول لهؤلاء: إن الإسلام لم يشرع قط للمرأة أن تكون رهينة البيت أو سجينته، بل الحقيقة أنها هي ربُّته، والقائمة بأمره، والمسئولة عنه.. يعاونها الرجل وتعاونه. وانظر إلى ما منحها الإسلام من حرية في الرأي عندما تختار زوجها، أو حرية الزواج، فليس لأحدٍ أن يُجبرها على أن تقترن بأحد لا ترغب فيه، وحريتها في ذلك وصلت إلى أبعد مَدَى وأتمَّ شأن، وإذا كان الإسلام قد جَعَلَ حق التزويج لوليِّ الأمر فَحَقُّ المرأة في قَبُولِ مَنْ ترضاه من الأزواج وَرَدُّ مَنْ لا ترضاه كفه لها الإسلام. وقد منع الأولياء من الاستبداد في تزويج مُوَلِّيَاتِهِمْ من بنات وأخوات وغيرهن بغير رضاهن. كذلك نَبَّه الإسلام إلى منع المرأة من التزوج بغير كفاء يرضاه أولياؤها وقرباتها، كما أنه ليس للأولياء ولا للوالد نفسه أن يمتنع من تزويجها بأى كفاء ترضاه. فقد روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُنكحُ الأيِّمُ حتى تُسْتَأْمَرَ، ولا البكر حتى تُسْتَأْذَنَ». قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: «أن

= الرجل في ضرب امرأته ثم يجامعها من بقية يومه أو ليلته، فالمجامعة أو المضاجعة إنما تُستحسن مع ميل النفس والرغبة في العشرة، والمجلود غالباً ينفر مِمَّن جَلَدَه، فوَقَعَت الإشارة إلى ذم ذلك.

(١) طبقات ابن سعد، ج ٧. والجدير بالذكر أن الضرب - إن كان ولا بد منه - فليكن للتأديب بالضرب اليسير بحيث لا يحصل منه النفور التام، فلا يفرط في الضرب ولا يفرط في التأديب [انظر: «فتح البارى»، المجلد التاسع، كتاب «النكاح»، ص ٣٠٢ - ٣٠٤].

تسكت». وسألت السيدة عائشة رضى الله عنها النبي ﷺ عن استئذان البكر، فهي تستحي أن تجيب فتسكت، فقال: «سكاتها إذن»^(١).

نعم، إنَّ أمرَ الزواج شأنها هي وحدها، لذلك من حقها أن تفصم عُقْدَةَ الزواج إذا خُدِعَتْ فيه، أو أُكْرِهَتْ عليه، مهما أنفق في سبيلها، وليس لأحد أن يقودها قهراً إلى ما لا تريد، فقد رَوَى الإمام أحمد «أن فتاة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إنَّ أبى زَوَّجَنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته، فجعل النبي ﷺ الأمرَ إليها، فقالت: قد أَجَزْتُ ما صَنَعَ أبى، ولكنى أردتُ أن أُعْلِمَ النساءَ أنه ليس إلى الآباء من شيء»، تعنى أنه ليس للآباء إكراه البنت على التزوُّج بمن لا ترتضيه. وهل هناك ما هو أدل على احترام رأى المرأة فى هذا الموطن - وهو أدقُّ مواقفها وأمَّشها بحياتها - من حديث الخنساء بنت خِدام الأنصارية التى قالت للنبي ﷺ: «إنَّ أبى زَوَّجَنى من ابن أخيه وأنا لذلك كارهة. فقال ﷺ: «أجيزى ما صَنَعَ أبوك». فقالت: ما لى رغبةً فيما صَنَعَ أبى. فقال ﷺ: «أذهبى فلا نكاحَ له، انكحى مَنْ شِئْتِ»، فقالت: أَجَزْتُ ما صَنَعَ أبى ولكنى أردتُ أن يَعْلَمَ الناسُ أن ليس للآباء من أمور بناتهم شيء».

وهل أتاك حديث «بريرة» تلك الجارية الحبشية التى كانت ملكاً لعتبة بن أبى لهب، وزَوَّجها عبد للمغيرة بن عتبة، ما كانت ترضاه لو كان الأمر لها، فأشفقت عليها عائشة أم المؤمنين فاشتريتها وأعتقتها، فقال لها رسول الله ﷺ: «مَلَكْتِ نَفْسِكَ فاخترى». وكان زوجها يمشى خلفها ويبكى، وهى تآبه، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «ألا تعجبون من شِدَّةِ حُبِّه لها وبُعْضها له؟»، ثم قال لها: «أتقى الله فإنه زوجك وأبو ولدك!»، فقالت: أتأمرني؟ قال: «لا، إنما أنا شافعٌ»، فقالت: إذا لا حاجة لى إليه». فهل يعجب الناس بعد ذلك أن يقف فتيات العرب دون عسف آبائهن وأولياء أمورهن؟

ثم إنَّه قد ينتهز أحد الآباء عِزَّةَ الصُّبا ونَحْجَلِ الحداثة، فيزوجهن ممن لا

(١) متفق عليه. وانظر: «فتح البارى بشرح صحيح البخارى»، ج ٩، ص ١٩١، كتاب «النكاح».

يُدانِيهن في طبع، ولا يُواتِيهن في خُلُق فيرجعن على الآباء باللوم والخصومة، من ذلك ما كتبه امرأة إلى أبيها، وكان قد زَوَّجها وهي حَدَثَة، فقالت:

أيا أبتا عَنَيْتَنِي وابتليتني وصَيَّرتَ نَفْسِي في يدي مَنْ يهينها
أيا أبتا لولا التَحْرُجُ قد دعا عليك مجاباً دعوة يستدينها
وقالت أيضاً:

أيا عجباً لِلخُودِ يجرى وشاحها تزف إلى شيخ من القوم تَنبَالِ^(١)
دعاهما إليه إن ذو قرابة فويلُ الغواني من ابن العم والخال

وقد ذهب إمام العراق «ابن شبرمة» إلى أن زواج البنت باطل ما لم تَبْلُغ وتصارح برأيها فيمن يريد لها، واستدل بقول الله تعالى: ﴿وَأَبْلُوا أَلْبَانًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾^(٢). فالتعبير عن بلوغ الرشد ببلوغ النكاح دليل لا يقبل النقض، على أن زواج القاصر لا نفاذ له. ولقد كان من عادات العرب في جاهليتهم أن الرجل إذا مات عمداً أخصَّ أقربائه فطرح ثوبه على امرأته وقال: أنا أحقُّ بها، ثم إن شاء تزَوَّجها، وإن شاء زَوَّجها غيره وأخذَ صَدَاقَهَا، وإن شاء عَضَلَهَا لتدفع له مبلغاً يرضاه بما ورثت من زوجها، فحَرَّمَ اللهُ ذلك، وأنزل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَآءَاتِيَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾^(٣)، فأصبح حراماً على الرجل أن يستبقياها على كُرِهٍ منها، ثم قَلَّبَ نَظْرَكَ في كلمات تلك الآية الكريمة واملأ منها يدك، وارو من معين بيانها قلبك، ثم انظر: هل تقيم على وجدانك أو تقر عى عاطفتك فيما تكره من أمر امرأتك؟ وما ظنك بأمرٍ تكرهه ثم تظل على الحاجة فيه بعد أن مناك الله بالخير الكثير من ورائه؟ وأين ذلك من حُسن الثقة وتمام الإيمان بالله؟ اقرأ قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ

(١) الخُودُ: الشَّابَّةُ الناعمة الحَسَنَةُ الخُلُق. والتَنبَالُ: القصير.

(٢) سورة النساء، الآية ٦.

(٣) سورة النساء، الآية ١٩.

تَكَرَّهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾^(١). واسمع من فم النبي الطاهر وهو يقول: «لا يَفْرُكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ سَحِطَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخِرٌ»^(٢). وعمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل رجلاً لِمَ طَلَّقَ زَوْجَتَهُ؟ قال الرجل: لا أحبها. قال عمر: أَكُلُُّ البيوت بُنيت على الحُبِّ؟ أين الرعاية والذمم؟

ولم يقف الإسلام عند هذا الحد من صيانة المرأة وكرامتها وحرمتها، بل نبّه إلى الترفيه عنها، والحرص على إدخال السرور عليها، واجتلاب ما يفرحها ويشرح صدرها، ويؤكد ذلك أنّ النبي ﷺ أجاز للسيدة عائشة رضى الله عنها أن تنظر إلى فتيان الحبشة وهم يلعبون بحرابهم فى المسجد النبوى وكان النبي ﷺ قد وطأ كتفه لها حتى تنظر إليهم، وقال قوله: «لِيَعْلَمَ الْيَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً»، أى ليس عندنا تزمت ولا حَجْرٌ على العقول.

(١) سورة النساء.

(٢) رواه مسلم. وانظر: «الحلال والحرام» للقرضاوى، ص ١٧٢. ومعنى «فَرَكَ»: كَرِهَ وأَبْغَضَ، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ فى بَغْضَةِ الزوجين.

تكوين الأسرة

الأسرة هي المؤسسة الأولى في الحياة الإنسانية والكيان الاجتماعي، ولكي يتم تكوين الأسرة على أسس سليمة ونظام صحيح فإنه لا بد أن يكون هناك ارتباط بين طرفين (ذكر وأنثى)، بشرط أن يكون هناك إشهار، وولي، وشاهدان - قبل الارتباط - على أن تتوفر الإرادة الكاملة بين الطرفين عند الاقتران، لأن الأسرة القوية المتماسكة هي التي تُسهم في بناء المجتمع، ولهذا كان عماد الأسرة القوية الزواج الذي ينشأ عن عَقْدٍ تُباركه العناية الإلهية، وتزكّيه روابط المحبة والمودة، وإلى هذا أشار الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢١) (١).

وللزواج دوافع كثيرة أهمها - بعد الترابط الأسري - إيجاد الذرية التي يسعد بها الإنسان، لأن حب الأولاد شيء فطري في طوايا الشخص. ونظراً لميل الإنسان إلى أن يكون له ولد تتجدد به حياته وتمتد، فقد نَوَّه الله بقيمته وأقسم به في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿ لَا أَسْمِيْكُمْ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَالدَّ (٣) ﴾ (٢). ويقول الأحنف بن قيس: الأولاد ثمر قلوبنا وعماد ظهورنا. ويقول آخر: أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض.

فحُبُّ الوالد لولده شيء فطري متأصل بالمشاعر النفسية والأحاسيس العاطفية، وهذا شيء لا دخل للإنسان فيه، لأنه فطري جُبِلَ الإنسان عليه.

(١) سورة الروم.

(٢) سورة البلد.

الأولاد نعمة:

نِعْمُ اللهُ عَلَى الْعِبَادِ كَثِيرَةٌ: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾^(١)، ومن أَجَلَ النِّعَمِ وَأَعْظَمَهَا إِنْجَابُ الْأَوْلَادِ، وقد جعل الله ذلك آية من آيات فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ عَلَى النَّاسِ، فيقول الله في بيان هذا: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾^(٢)، والحفدة: أولاد الأولاد.

كذلك أخبرنا أنه من دعاء الصالحين أن يهب الله لهم الذرية الطيبة الصالحة، من ذلك: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾^(٣)، ويقول سبحانه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٤)، كما أنهم مَنْحَةٌ اللهُ وَعَطِيَّةٌ لِبَنِي الْإِنْسَانِ، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾^(٥). كما أخبرنا أن الأنبياء تطلعت نفوسهم إلى الولد، وتمنى كل واحد منهم أن تكون له ذرية، فقد جاء في القرآن الكريم عن سيدنا زكريا عليه السلام قوله: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾^(٦).

وكان من دعاء الصالحين: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾^(٧). وامرأة عمران عندما رزقت بالسيدة مريم دعت ربها قائلة: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٨). ونعمة الله تستحق الشكر، وشكر الله على إنجاب الأولاد رعايتهم رعاية كاملة، وتهيئة المناخ الاجتماعي لهم ليعيشوا سعداء في حياتهم، وهذا شكر الله سبحانه وتعالى.

(١) سورة إبراهيم، من الآية ٣٤.

(٢) سورة النحل، من الآية ٧٢.

(٣) سورة الفرقان.

(٤) سورة الكهف، من الآية ٤٦.

(٥) سورة الشورى.

(٦) سورة آل عمران.

(٧) سورة الأحقاف، من الآية ١٥.

(٨) سورة آل عمران.

الأولاد أمانة

لكى تتحقق للإنسان سعادته فى الدنيا بأولاده فقد نبّهنا الإسلام أن تكون لِبِنَاتِ الأُسرة قوِية متماسكة، لأن دين الله جاء لتكوين المجتمع الفاضل والارتقاء بشأن الإنسان مادياً وأدبياً، لأن الدين جاء لإسعاد الفرد والجماعة، وتوطيد دعائم المجتمع، لينهض الفرد لبناء الدنيا وإصلاح الآخرة، مع القوة التى يتحلى بها الشخص: صحة فى بدنه، وسلامة فى عقله، لكى ينهض بالرسالة التى كُفِّ بها على أرض الله وتحت سمائه، فالمؤمن القوى خَيْرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف.

ولكى نمضى راشدين فى سبيل رعاية الأولاد بحكمة وتبصّر علينا أن نتوسط ونعتدل فى حياتنا فى الإنجاب، ونتخذ سبيل الحكمة فى إنجابهم لنتمكن من رعايتهم، فهم هبة الله وعطيته وأمانته فى أيدينا، لا نضيق بهم إنثاءً ولا نفرح بهم ذكوراً، وإنما نحمد الله على عطائه وفضله، وإذا كان لكل شىء أساس فإن أساس الطفولة السعيدة هو البيت الذى يجد فيه الطفل الملاذ والأمان والاستقرار، ويجد فيما يحيط به القدوة الصالحة فى التعامل والرعاية الكريمة التى تعمل على تزكية ميوله الفطرية، وتدريب حواسه، ومنحه حرية الملاحظة ليصل إلى المعرفة التى تؤهله ليتحمّل الأمانة التى يُؤَهَّلُ لها، ذلك لأن الطفل ينمو فى رحاب الأسرة وتتكون عاداته فى ظلها، حيث يقضى فترة الطفولة ومرحلة الشباب، ويتعود على العادات، ويتدرب على الخلق الاجتماعى، وتتأصل فى نفسه سلوكيات البيئة فى كنفها، ويتعلم الشعائر الدينية والتقاليد الاجتماعية... فى أحضانها ينمو عقله، وتزكو نفسه، لذلك حث الإسلام على الاهتمام بتكوين الأسرة على أساس سليم، وفى مبدأ الأمر الذى تتكون فيه الأسرة يستلزم سبق التخطيط لها، وحسن الاستعداد لتكوينها من منظور إسلامى، من حيث اختيار كل فرد من الزوجين للآخر، تأسيساً على المفهوم العام فى التوجيه عند الاختيار، لكى تنهض الأسرة بما هو على عاتقها من الاهتمام بالولد، لأنه بين يدي الأسرة أمانة الله الغالية على الأبوين أن يرعاها رعاية كاملة، وأن يسهر على راحة المولود، بحيث تقوم الأم بإرضاعه

والعناية به، والأب يحسن اختيار اسمه، وَيُنشِئُهُ منذ الصغر على الجدِّ والمثابرة، وأنَّ يَعْلَمَهُ الكتابة والقراءة، ويدربه على الرياضة، ففي الحديث الشريف: «حَقُّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُعَلِّمَهُ الْكِتَابَةَ وَالسَّبَاحَةَ وَالرَّمَايَةَ، وَأَلَّا يَرْزُقَهُ إِلَّا طَيِّبًا».

إنَّ الرَّجُلَ كَلِمَا أَحْسَنَ إِلَى وَلَدِهِ فِي الصَّغَرِ، وَنَشَأَهُ عَلَى سُلُوكِ حَسَنٍ، مَعَ تَوْفِيرِ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ لَهُ، فَإِنَّ الْوَالِدَ عِنْدَمَا يَكْبُرُ يَتَذَكَّرُ جَمِيلَ وَالِدِهِ إِلَيْهِ، فَيُقَابِلُ الْإِحْسَانَ بِالْإِحْسَانِ، لِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ وَالِدًا أَعَانَ وَلَدَهُ عَلَى بِرِّهِ».

وقد ضرب الله لنا مثلاً بلقمان الحكيم وهو يُوجِّهُ الوصية إلى ولده وينصحه برفق ولين، لأنَّ الوالد السوي يرى نفسه مسئولاً عن ابنه، فيعمل على هدايته وإرشاده، يقول الله تعالى على لسان لقمان وهو يوجِّهُ النصيحة لولده: ﴿يَبْنِي أَقِيمِ الصَّلَاةَ وَامْرَأً بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْتَ مِنَ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)﴾ (١). إنَّ الوالد يريد من ابنه أن يتعود على الاستقامة والتزام الفضائل ليسعد به في الدنيا ويفوز به في آخرته، وصدق الله العظيم الذي يقول على لسان الأولاد الطيبين في دعائهم لأبائهم: ﴿رَبِّ أَرْحَمَهُمَا كَمَا رَبَّنِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ (٢)، لأنَّ من زرع خيراً جنى خيراً، فإنَّ تعليم الآباء لأبنائهم في الصغر له أثرٌ طيب، فكان دعائهم للآباء بالرحمة والرضوان، لأنَّ من يزرع الخير لا يعدم جَوازِيَهُ.

الأولاد قد يكونون نقمة:

إذا كان الأولاد نعمة وأمانة فإنَّ إهمال شؤونهم والتفريط في تربيتهم وعدم رعايتهم وتهيئة البيت السعيد لهم والمناخ الاجتماعي أمامهم ليشعروا بالهناء والاستقرار، إذا لم يكن ذلك فإنَّ الوالد يكون قد ضيَّعَ الأمانة، وفَرَّطَ في الحفاظ على النعمة، وخان ما كُفِّفَ به مِنْ قِبَلِ اللَّهِ، وقد نُهِينَا عَنْ ذَلِكَ، حيث يقول الله

(١) سورة لقمان.

(٢) سورة الإسراء.

تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتُخَوِّفُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَخَوِّفُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٧) ﴿١﴾.

إن الإسلام أوجب على الآباء رعاية الأولاد، وأن على الوالد أن يقدر ظرفه المعيشى، وحالته الاجتماعية، وقدرته السكنية، وحالته العامة، ثم ينظم إنجاب الذرية بقدر ما يتلاءم مع دخله وظروف سكنه وحياته الاجتماعية، لأنه أحياناً يقول: أنا أنجب أولاداً والله ضامن لى الرزق، حيث قال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٢٢) ﴿٢﴾، ونحن نوضح له ذلك ونقول: إن رزق الله مُخَبَّأً فى الأرض، ومحتاج منك أن تعمل وتسعى، وأن تكتسب المال من حلال بالجد والاجتهاد، وأن تتعد عن كسب المال من حرام، لأن الله طَيِّبٌ لا يقبل إلا طيباً، والله تعالى قال لنا: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (٣).

فانظر إلى قُدرتك الجسدية، وما هو دخلك؟ لأن السماء لا تُمطر ذهباً ولا فضة، وإنما المال يصل إليك بالعمل لترعى أولادك، وخاصة أن الولد فى المجتمع المعاصر يحتاج إلى الكثير من الأشياء حتى يتحصن ضد الفقر والجهل والمرض والتخلف، فليس من المعقول أن ينجب الإنسان أولاداً ثم يرمى بهم فى الشارع، أو يحرمهم من أيام الطفولة ويزج بهم فى مواطن التعاسة والشقاء والحرمان، فينظر الولد إلى أبيه نظرة حقد، بل يتمنى موته ليحل محله ويسكن فى مكانه، لأن الأب لم يخرس خيراً فى نفس الولد، وفاقد الشيء لا يعطيه، والابن فى كل جريمة يرتكبها يقول: (هذا ما جناه أبى على).

ونذكر هنا قصة أحد أطرافها سيدنا «عمر» عندما جاءه رجل يشكو ولده، وقال له: إن ولدى يعقنى، فهو إن طلبتُ منه درهماً سَتِنِي، وإن مَدَدْتُ يَدِي إلى طعام ضربنى، إن طلبتُ كساءً طردنى من البيت. فأرسل «عمر» إلى الولد وقال له: كيف تسبُّ والدك وتضربه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ

(١) سورة الأنفال.

(٢) سورة الذاريات.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

لَهُمَا قَوْلَا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴿١﴾؟

فقال الولد لعمر: يا أمير المؤمنين، إن الله الذي أمرني أن أحسن إلى أبي ألم يأمره بالإحسان إلي؟ قال عمر: نعم. قال الولد: إذن أنا أضربه لأنه لم يحسن إلي! لكن كيف أمر الله أبي أن يحسن إلي؟ يا أمير المؤمنين؟ قال: في أمور ثلاثة:

١ - أمره أن يختار أمك من بيت طيب، وأسرة سالحة.

٢ - أن يحسن اسمك.

٣ - أن يعلمك القراءة والكتابة.

فقال الولد: يا أمير المؤمنين، أبي لم يفعل شيئاً من ذلك، فقد اختار أمي وكانت تجمع «الروث» من الشوارع، وليس لها أسرة، ولم يحسن اسمي وسماني جُعلاً (دوية صغيرة)، ولم يعلمني القراءة والكتابة. فنظر «عمر» إلى الرجل وقال له: ثم عنى لقد أسأت إلى ولدك قبل أن يسيء إليك!

إن وسائل الإعلام اليوم تطالعنا بكثير من القصص التي تشير في مضمونها إلى أن بعض الأبناء يعتدون على الآباء، إمّا بالضرب، أو الطرد من الشقة، أو القتل، أو الإساءة بأي لون، ونحن - كمسلمين - نقول بأن الآباء هم الذين أساءوا إلى أولادهم، فأهملوهم، أو دَلُّوهم، أو بخلوا عليهم فلم يعلموهم، أو أكثروا في إنجاب الأولاد دون رعاية لظروفهم الاجتماعية، أو انفصل الأب عن الأم فانقلبت النعمة إلى نقمة، لأن الآباء قصَّروا فلم يهيئوا لأولادهم الحماية، ولم يوفِّروا لهم المسكن الذي يليق بهم، والملابس التي تتناسب مع ظروفهم، والمصروف المادي الذي ينعمون به في حياتهم كما ينعم أمثالهم الذين هم في مثل سنِّهم، وكل ذلك سوء تصرف وعدم تقدير للمسئولية الاجتماعية الناشئة عن عقد الزواج الذي به تمَّ الإنجاب في هذا المناخ.

إن الأب الذي ينجب الأولاد ولم يأخذ بالأسباب ويراعى مقتضى الحال ثم

(١) سورة الإسراء.

يهرب من تربيتهم ويجلس مع زملائه على المقاهى يتسلى، لأن البيت يضج بالأولاد، فلا يُشرف عليهم، ولا يتابع خطاهم، ويحتج بأن البيت فيه ضجة، فلا يذهب إليه إلا بعد نوم الأولاد، ويتناوم فى الصباح حتى لا يُطالبوه بالمصروف، مثل هذا الأب إن قَصَرَ ابنه فى بَرِّه ورعايته فمن حقه، لأن أباه أساء إليه وتراخى فى رعايته، لهذا حذرتنا ربنا من هذا عندما قال: ﴿إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾^(١) أى تولوا رعايتهم وتهيئة البيئة الصالحة لهم، لأن فسادهم بسببكم أنتم، فانتبهوا واعتبروا يا أولى الأبصار.

إننا عندما نقول ذلك لا نحارب الذرية، أو نبث روح الكراهية للأولاد، ولكننا نحب أن نفهم أن القرآن بيّن لنا بصريح العبارة ووضوحها أن كثرة الأولاد لا تجلب السعادة للإنسان، يقول الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ سُبْحٰنُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٢). ويقول جلّ وعلا: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِمَخْلَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِمَخْلَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِمَخْلَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾^(٣).

إن إنجاب الأولاد شيء عظيم، بشرط القدرة على الرعاية، أمّا إذا لم تكن هناك قدرة على الرعاية فإن الأولاد يكونون نقمة، فانتبهوا يا أولى الأبصار ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(٤). إن الظروف الاجتماعية قد تغيّرت، والبيئات قد تبدّلت، ففي الزمن القديم كانت الظروف الاجتماعية تدعو الإنسان إلى الاستكثار من الذرية ليتخذها سنداً عندما يدخل فى المعارك، ويظهر أمام الأعداء بكثرة العدد، أو فى البيئة المحلية التى تحتاج إلى الأيدي الكثيرة والعضلات البشرية لتساعد الأب وتعاونه فى الحرف والمهن، لكننا اليوم نرى أن

(١) سورة التغابن، الآية ١٤.

(٢) سورة المؤمنون.

(٣) سورة التوبة.

(٤) سورة الأنفال.

الأمور قد تغيّرت، واختلفت الصُّور، فأصبحت الآلات الحديثة تُغني عن الأيدي الكثيرة، والإنسان هو الذي يُكَيِّفُ حياته ويضع قدمه في المكان الثابت الذي يضمن له الاستقرار، مع حب الأولاد والقدرة على رعايتهم، لأن العدد في الأفراد إذا كان هزيلًا لا يُغني شيئاً، وإنما القلّة مع القوة خَيْرٌ وَأَحَبُّ لخوض معركة الحياة. يقول الله تعالى في كتابه العزيز على لسان ابنة شبيب وهي تخاطب أباهَا: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ آسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (١).

إن المطلوب في الذرية أن تكون قوية سليمة، تتمتع بالعافية والقدرة على الحركة والإنتاج ولو كانت قليلة، لأن الكثرة الهزيلة لا تنتج ولا تعمل، ولا تؤسس حضارة، بهذا تكون الذرية الكثيرة الهزيلة الضعيفة مُصِيبَةً على الأمة، ونكبة على الإسلام، وإلى هذا أشار الرسول ﷺ عندما قال: «يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، وَلِيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ قُلُوبِ أَعْدَائِكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلِيَقْدِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ». قالوا: وما الوهنُ يا رسول الله؟ قال: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكِرَاهِيَةُ الْمَوْتِ». قالوا: أَوْ مِنْ قِلَّةِ نَحْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «لا، وَلَكِنْكُمْ عُثَاءٌ كَعُثَاءِ السَّيْلِ» (٢). فتأمل في هذا الحديث الذي يُبَيِّنُ أن المجتمع الكثير العدد، الهزيل الضعيف، يكون سبباً في طمع الأمم الأجنبية إلى احتلال البلاد، واستنزاف الخير، واستعباد العباد، أمّا الذرية القوية فهي التي تُحرِّرُ البلاد، وترقى بالإنتاج، وتُحوِّلُ الطاقات إلى عمل بناء.

إن العبادات التي فرضها الله تعالى على العباد تحتاج إلى قوة جسدية، فهذه الصلاة فيها قيام، وركوع، وسجود، وحركة بنشاط. والصيام يحتاج إلى قوة ليقوى الإنسان على المجاهدة والمُثابرة والجَلْد. والزكاة تحتاج من الإنسان أن يعمل ويسعى في مناكب الأرض ليحصل له المال الذي يُنْفِقُه على نفسه والأولاد، ويصرف منه على الأهل والجيران. والحج مشقّة بين طواف، وسَعْي، ورَمْيٍ للجمرات، وهكذا، كلما ذهبت إلى بحث العبادات تجد أن الإنسان السليم القوى

(١) سورة القصص.

(٢) رواه أبو داود، وابن حنبل.

هو الذى يؤدّيها بهمة وعزيمة ونشاط، وأساس ذلك الطفولة التى تنشأ من أول الأمر فى مناخ صحى جيد، يتسم بالنظافة والهدوء والاستقرار، داخل سكن ترفرف عليه أعلام السعادة المنشورة على قوائم الحب، والمؤسسة على التعاون بين الزوجين، حيث يشعر كل واحد بمسئوليته. فالرسول ﷺ يقول: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَوْلَادِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا»^(١).

وهكذا تتحدّد المسئولية ليستشعر كل واحد مسئوليته تجاه الذرية والبيت، ورعاية الأولاد. إن الدنيا تتطور، وفى تطورها تحتاج إلى العقول المفكّرة المبتكرة، وفى الوقت نفسه تحتاج إلى الأجسام القوية، والأيدى العاملة، فإن الحقّ تحميه القوة، والإنتاج يحميه العمل الذى يحتاج إلى القوة والابتكار فى أسلوب الأداء.

فإلى العمل بهذا المبدأ، ورعاية الحق، والاعتدال فى الإنجاب، لنعيش فى بلادنا أحراراً، فإن مَنْ لا يملك قُوته لا يقدر على حماية حُرّيته، والحرية لا تدوم إلا إذا حرسها القوة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾^(٢).

حسن اختيار الزوجة

ذكرنا أنّ الأولاد نعمة إذا قام الأب برعاية أمرهم، وتدبير شئونهم، والإنفاق عليهم، وتهيئة المناخ الاجتماعى المناسب لظروفه أمامهم. هذا، وقد نبّه الإسلام إلى أن الأولاد يكونون ثمرة زواج صحيح يتم على أساس من حُسن اختيار الزوجة، لأن الولد نبت يتقلّب فى رَحِمِ أمّه، كلما كانت صالحة كريمة عفيفة نشأ المولود على نهجها، يقول الله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾^(٣)، لذلك على الإنسان عندما يرغب فى الزواج أن يبحث عن

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن حنبل.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٦٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٥٨.

المرأة الصالحة، لتصون شرفه، وتحفظ عرضه، وترعى بيته، وتؤدّب أولاده، فيعيش الإنسان في الدنيا سعيداً هادئ النفس، مستقرّ الحال، يقول الله تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾^(١).

والإنسان وهو يبحث عن مقصده لا يهمله الغنى ولا الفقر، وإنما يبحث عن الخلق والدين، لأن المرأة المتديّنة في ميزان العرف الاجتماعي أفضل من ملايين الجنيات، والإنسان إذا تزوج بالمرأة الفقيرة المتديّنة أغناه الله، وهياً له أسباب الخير والتقدم والرفق، يقول الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمُ وَإِمَائِكُمُ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾^(٢). ويقول: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ بِوَلَائِهِ مَوْمِنَةً خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾^(٣). وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ»^(٤). وقوله كذلك: «تُنكِحُ الْمَرْأَةَ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسْبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاطْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»^(٥). ويقول أيضاً: «مَنْ تَزَوَّجَ مِنْ امْرَأَةٍ لِعِزِّهَا لَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلَّا ذُلًّا، وَمَنْ تَزَوَّجَهَا لِمَالِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلَّا فَقْرًا، وَمَنْ تَزَوَّجَهَا لِحَسْبِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلَّا دَنَاءَةً، وَمَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لَمْ يُرِدْ بِهَا إِلَّا أَنْ يَعْضَّ بَصْرَهُ وَيُحْصِنَ فَرْجَهُ أَوْ يَصِلَ رَحِمَهُ، بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا وَبَارَكَ فِيهِ»^(٦).

إن اختيار الزوجة إذا تمّ من منظور ديني واجتماعي أخلاقي فإنه يكون سبباً في استقرار الأسرة وفعاليتها في التنمية الاجتماعية والبيئية، وكانت هذه الأسرة من أسباب رقيّ المجتمع ونهوضه، أمّا إذا تمّ اختيار الزوجة بعيداً عن القيم الدينية والعرف الاجتماعي المؤسّس على الأخلاق فإن هذا الزواج يُحدِثُ نتائج سيئة، وهزّات عصبية لها أثرها الاجتماعي على الأسرة، وينعكس ذلك على المجتمع

(١) سورة النساء، الآية ٣٤.

(٢) سورة النور، الآية ٣٢.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٢١.

(٤) أخرجه الترمذي.

(٥) رواه البخاري.

(٦) رواه الطبراني في «الأوسط».

سلباً، لذلك نوصى ونوجه أن يكون الدين هو العامل الأساسي عند اختيار الزوجة، لنضمن أولاداً صالحين تُبنى على أكتافهم حضارة أمة ومستقبل جماعة، ويكون لهم دور بارز في الكيان الاجتماعي الذي يُسهم في تطور الحياة ورقيها، وبهذه الأسرة يهنأ الإنسان، ويهدأ نفساً، ويستقرّ وجداناً، ويعيش من أسعد الناس في حياته.

الزواج بعيداً عن القيم الدينية

إذا تمّ الزواج بعيداً عن القيم الدينية والعرف البيئي المبني على الخلق الكريم والتكافؤ الاجتماعي المؤسس على العواطف السليمة، وتمّ - أي الزواج - على أساس المال والحب الجسدي والنسب، فإن الأسرة تصاب بالهزات النفسية ويضطرب كيانه، لأن الحياة تُغرى كلاً من الطرفين في إشباع دوافعه وملذاته الجسدية التي أسس عليها قيمه عند الزواج، لهذا يختل التوازن الأسري، ويقع كل شخص تحت تأثير مضاد لتأثير صاحبه في الاتجاه، فيصاب الشخص بحالة من الحيرة والتردد، ولا يستطيع أن يحدّد اتجاهه، فينشأ التذبذب، ويحل الصراع، وهذا ما أشار إليه ربنا عندما قال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ أَءَايْتُنَا فَنَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُغْفِرُ لِمَنْ نَشَاءُ (١٢٦) ﴿ (١) . إن الوقاية خير من العلاج، لهذا جاء التنبيه إلى حسن الاختيار من أول الأمر حتى لا يكون الخلل الذي بسببه تُصاب الأسرة بالتصدع والانهيار، وتتفكك الأسرة، ويتشرد الأولاد، وتكون الطامة الكبرى في الكيان الاجتماعي الذي يُصاب بالخلخلة والانهيار.

الزواج والقدرة المالية

إن تكوين الأسرة يتطلب قدرة مالية لدى الزوج، لأنه هو المُطالب بتأسيس البيت وتهيئة المناخ العام الصالح لتكوين الأسرة، يقول الله تعالى: ﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ

(١) سورة طه.

مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُتَّقِ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴿١﴾ . فالإسلام - من منهج القرآن وتوجيهه - يبيّن لنا أن عند بناء الأسرة وتكوينها لا بدّ أن يكون عند الإنسان قدرة مالية حتى يستطيع تهيئة المناخ الصالح لأسرته، ليعيش سعيداً، فإن لم يتيسر ولم تكن لديه قدرة مالية، فعليه ألاّ يُقَدِّمَ على الزواج، حتى لا يكون سبباً في ضياع أسرة، أو إهدار كرامة إنسانة ارتبطت به بعد أن خدعها وغشها ودلّسَ عليها حتى اقترن بها، فهو بهذا يكون قد ارتكب إثماً عظيماً، وخطأً اجتماعياً عندما دلّسَ على أولاد الناس، يقول الله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (٢).

فالإنسان الذي لا يملك المال يؤجل الزواج حتى يتيسر الأمر أمامه، ويفتح الله له أبواب الخير، ويجمع المال الذي يهيئ تكوين أسرة يهنأ بها، ويجد في ظلها الراحة النفسية. إننا نعلم أن الإسلام ذمّ العزوبية، ونقّر من الرهبانية، وشرع الزواج تلبية للفطرة البشرية، واستجابة للغريزة الطبيعية، وكل ذلك مرهون بالقدرة المالية، فإذا لم يتمكن الشاب من ذلك ولم يتهيأ له، فإن الإسلام فتح أمامه باب الوقاية من التردى في مهاوى الرذيلة. لذلك أمر الرسول ﷺ الشباب بالزواج، فإن لم يقدرُوا فعليهم أن يصوموا، لأن الصيام تهذيب للنفس، وسدّ لمنافذ الشيطان من أن تتسرب وساوسه إلى داخل الإنسان، يقول عليه الصلاة والسلام: «يا معشر الشباب، من استطاعَ منكم الباءةَ فليتزوّج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطعْ فعليه بالصوم، فإنه له وجاء» (٣).

إن تعليمات الإسلام وَضَّحَتْ الأمورَ، وحددتِ المفاهيم، ووضعت أمام عيني الإنسان معالم الطريق الذي يجب أن يسلكه ليكون أسرةً تكون سببَ سعادته، كما تكون سبباً في رقي المجتمع.

(١) سورة الطلاق، الآية ٧.

(٢) سورة النور، الآية ٣٣.

(٣) رواه الجماعة.

إنجاب الأولاد

إن على الإنسان أن يُراعى ظروفه الاجتماعية وحياته المعيشية حينما يفكر في إنجاب الأولاد، فقد يكون الاكتفاء بولدٍ واحدٍ يربّيه ويهيئ له حياة معيشية طيبة أفضل من أن ينجب عدّة أولادٍ تضيق بهم سُبُل الحياة ولا يقدر على الإنفاق عليهم، وتكون هذه الذرية سبباً في ضيق المعيشة عليه وعلى أولاده، وهذا شيء لا يرضاه الدّين، ولا تُقرّه التقاليد الاجتماعية، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعًا فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰٓ أَلَّا تَعْلَمُوا ﴿٢﴾﴾^(١). يقول الإمام الشافعي شرحاً لقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا ﴿٢﴾﴾: أي أَلَّا تَكْتُرُ عِيَالَكُمْ.

وانظر إلى ما جاء عن الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان وهو يُوجّه الوصية لتلميذه ويقول له: «ولا تتزوج إلا بعد أن تعلم أنك تقدر على القيام بجميع حوائج المرأة، فاطلب العلم أولاً، ثم اجمع المال من الحلال... ثم تزوّج، فإنك إن اشتغلت بطلب المال في وقت التعلّم عجزت عن طلب العلم... وإيّاك أن تشتغل بالنساء قبل تحصيل العلم، فيضيع وقتك، ويجتمع عليك الولد، ويكثر عيالك، فتحتاج إلى القيام بحوائجهم وتترك العلم»^(٢).

ويقول عمرو بن العاص في خطبة له بعد فتح مصر: «يا معشر الناس، إيّاكم وخلافاً أربعاً، فإنها تدعو إلى النصب - أي التعب - بعد الراحة، وإلى الضيق بعد السعة، وإلى الدلّة بعد العزة: إيّاكم وكثرة العيال، وإخفاض الحال، وتضييع المال، والقليل القال من غير دركٍ ولا نوال»^(٣). إن عمرو بن العاص يريد بهذه الكلمات الأربع أن يعالج مشكلة تضخم السكان قبل أن تستفحل، لأن كثرة الأولاد تؤدي إلى التعب والقلق والفقر، وإلى أن يمدّ الإنسان يده إلى غيره ليأخذ منه سُلْفَةً مالية، ولعل كلمة إخفاض الحال تقابل في مجتمعنا المعاصر (انخفاض مستوى

(١) سورة النساء.

(٢) الدكتور الشرباصي، كتاب «الأئمة الأربعة».

(٣) كتاب «النجوم الزاهرة»، ج ١، ص ٧٢.

المعيشة)، لأن كثرة العيال مع انخفاض مستوى المعيشة تُرهق الإنسان، وتشقّ عليه، فيعجز عن النهوض بتبعاتها، ويُقصر في أداء الواجبات، وإلى هذا أشار عبد الله بن عباس عندما قال: «إن كثرة العيال أحد الفقرين.. وقلة العيال أحد اليسارين»، ذلك لأن مستوى المعيشة ينخفض ويكون ذلك نكبة على المجتمع، لأن المطلوب من الإنسان أن يحتفظ لنفسه وأولاده بمستوى معيشى لائق به وبهم، وهذا يتطلب إنتاجاً ضخماً، واستثماراً واسعاً، وتنظيماً مُحكماً لتهيأ للإنسان الحياة الكريمة التي تجعله ينتج ويدّخر لورثته، لأنه جاء في الحديث الشريف: «إنك إن تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدْعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»^(١).

ومن أمثال الحكماء: «العيال أرضية المال»^(٢). وجاء عن رسول الله ﷺ: «جَهْدُ الْبَلَاءِ كَثْرَةُ الْعِيَالِ مَعَ قِلَّةِ الشَّيْءِ»^(٣). وقيل: «العيال سُوسُ الْمَالِ». وعوتب الكسائي في ترك الزواج، فقال: «وجدتُ مكابدةَ العزبة»^(٤) أيسر من مكابدة العيال»^(٥).

إن الذى يتأمل ما جاء فى القرآن الكريم وعلى ألسنة الناس الصالحين وتوجيه القادة والأدباء، يلحظ أن الإنسان العاقل هو الذى يحدّد وضعه الاجتماعى، ويرتب أمره، وينجب من الأولاد ما يتلاءم مع ظرفه الاجتماعى ودخله المالى، ويعمل حسابه كى يُيسّر على أولاده بالإنفاق عليهم من ماله ليجعلهم يعيشون سعداء ويتفرغون للعلم، وقليل عظيم ناجح خير من كثير فاشل راسب.

العناية بالطفل جنيناً

يولى الإسلام عناية كبيرة بالطفل قبل أن يخرج للحياة، ونلاحظ ذلك عندما

-
- (١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) كتاب «شرح البلاغة»، ج ٥.
(٣) «الجامع الصغير» للسيوطى.
(٤) العزبة: عدم الزواج.
(٥) كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة، ج ٤.

نُبِّهنا إلى حُسن اختيار الزوجة الفاضلة المتديّنة الأصيلة، التي تكون بزوجها أَلصَقَ، فإذا تمّ لها الحَمْلُ فإن توجيهات الإسلام للأب أن يقوم على رعاية أمرِ زوجته، وينفق عليها، ويعمل على راحتها، لأن أى إزعاج لها يؤثر فى حالة الجنين الذى يتكوّن فى أحشائها، لهذا يقول الله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا نَضَارُوهُنَّ لِنُضِيقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (١).

كما أن علماء المسلمين وضعوا قواعد لحماية الأم الحامل، فالرئيس الطبيب ابن سينا له أرجوزة شعرية فى الطب عدد أبياتها ١٣٢٦ بيتاً، خصّص منها أربعين بيتاً عن الأم والطفل، تحدّث فيها عمّا يجب على الحامل من الاحتياط فى تناول الطعام، وينصح بعدم إعطائها أدوية إلاّ بعد استشارة الطبيب، ويأمر لها بغذاء كامل، وأن تكون لها (قابلة) تجرى لها تمرينات مع التدليك. ولابن القيم أيضاً كتاب بعنوان «تحفة المودود فى أحكام المولود» تحدث فيه عن العناية بالجنين. وكثير من علماء الإسلام تناولوا هذا الموضوع وأسهبوا فيما يجب أن يكون عليه الوالدين من الاهتمام بالجنين قبل أن يولد.

وهكذا نجد أن الإسلام وجّه العناية إلى الطفل قبل أن يخرج إلى الحياة، لأن حياته فى بطن أمه وهو فى طور النموّ ذات أهمية كبيرة، ولذا يوجّه الإسلام العناية والاهتمام بصحة الحامل، بما يوفر من ضمانات للجنين، حتى نجد أن تعليمات الإسلام تُيسّر عليها، فتبيح لها الفطر وهى حامل فى شهر رمضان، وذلك من باب التيسير.

العناية بالمولود:

إننا نفهم فى ضوء تعاليم الإسلام أن على الإنسان الذى يقدم على الزواج أن يكون عنده استعداد نفسى، بحيث يكون سليماً فى جسمه، معافى فى بدنه، حتى لا يتسبب لشريكته فى الإيذاء، وحتى لا يكون المولود مصاباً بعلة مَرَضِيَّة تُنقل إليه

(١) سورة الطلاق، الآية ٦.

عن طريق الوراثة التي لها أثر في نقل الأشياء من الآباء للأبناء، اللهم إلا بعض الأشياء، وقد تختلف القاعدة، وكل ذلك بأمر الله ومشيئته.

إن الزواج ليس مجرد متعة أو تسلية، وإنما هو تَبَعَةٌ ومسئولية، ومن أول ولد ينجبه تبدأ التبعات والواجبات، فعلى الرجل أن ينهض بهذه الواجبات وهي:

١ - الأذان في أذنه اليمنى بصوت ضعيف، والإقامة للصلاة بصوت ضعيف كذلك في أذنه اليسرى.

٢ - حُسن اختيار الاسم، وخير الأسماء ما حُمِّدَ وَعُبِّدَ، ولا داعى لأسماء «الدَّلَع».

٣ - العقيقة، وهي ذبح شىء من الضأن يوزعه على الفقراء والمساكين، على حسب قدرة الأب المالية، وتوزع على الفقراء، وتقام منها موائد يُدعى إليها الأصدقاء فرحاً واستبشاراً.

٤ - الرضاعة، بحيث تكون هذه الرضاعة من صدرِ الأم، لأنها الرافد الأول لغذاء الطفل. وعلى الوالد أن يقوم بدفع تكاليف المرأة التي تقوم بإرضاع ولده (أى النفقة عليها)، يقول الله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾^(١). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بِتَنَكُّرٍ مَعْرُوفٍ وَإِنْ نَعَسْتُمْ فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى ﴾^(٢) لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾^(٣).

الرضاعة الطبيعية

إن رضاعة الطفل الصغير من صدر أمه من الأمور بالغة الأهمية، لأن على لبن الأم يتوقف مصير ومستقبل حياته، حيث ينمو نموًا طبيعيًا بالرضاعة الطبيعية، ويتضاعف وزنه، وتتكامل قواه. ومن مزايا لبن الأم:

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣٣.

(٢) سورة الطلاق.

١ - أنه سهل الهضم .

٢ - يحتوى على سائل الكولستروم وهو السائل الذى يفرزه صدر الأم فى الأيام الأولى بعد الولادة، وهو يُكسب الجسم مناعة، ويعطيه حصانة ضد الأمراض .

٣ - أن ثدىّ الأم نظيفٌ ومأمون للرضيع، حيث يخرج اللبن مُعَقَّمًا للطفل مباشرة، ولا يحتاج إلى تعقيم .

٤ - أن كمية لبن الثدي تتكيفُ عادةً طبقاً لحاجة الطفل، مع ملائمة اللبن للجوّ، فيتَّسم صيفاً بالرطوبة، وشتاءً يكون دافئاً .

إن «الميكروسكوب» يبيّن أن لبنَ الأم يبدأ الإفراز من مرحلة انتقالية حيث تصل من ١٠ - ٤٠ يوماً، يُفرز «اللبن» الغنى بالبروتين ١٠٪ وينقل للطفل الوليد الأجسام المناعية، ثم يقلّ «اللبن» تدريجيّاً ويحل اللبن الطبيعى الذى يحتوى على قيمة حيوية عالية . وحبوبات الدهن الموجودة فى لبن الأم أسهل هضمًا للطفل، كما أن «الكالسيوم» الموجود فى لبن الأم سهل الامتصاص فى الأمعاء . ويحتوى لبن الأم على كمية قليلة من الحديد، وكل ما هو صالح للطفل وسهل الهضم، لهذا جاء التوجيه الإلهى إلى الأم أن تقوم بإرضاع ولدها عامين كاملين تأييداً لإتمام المدة، وتحقيق الفائدة التى تعود على الطفل فى بناء جسمه وتقوية أعصابه وبناء أنسجته، وفى ذلك فائدة للأسرة والمجتمع من وجود أفراد أقوىاء أصحّاء، ليكون الولد زينة لحياة أبوية، وقُرّة عين لهما . كما أن الطفل وهو يرضع اللبن من صدر أمه يكون أكثر استقراراً نفسيّاً، لأن نموه أفضل، فليس هناك لبن يعادل لبن الأم باتّفاق جميع الآراء .

ويرضع الولد من أمه العطف والحنان والرحمة، لأنه يكتسب من صفاتها الخلقية فى حالة الرضاعة، لهذا فطن علماء التربية والتهذيب إلى ما فى الرضاعة الطبيعية من خير للطفل وللأم، حيث تشعر الأم بأمومتها، وتسعد بما تقدمه لطفلها وبما توفره لوليدها من سعادة نفسية وهدوء حال، فينعكس ذلك عليها وعلى المولود، فيكون الخير للطرفين، لهذا اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون الرضاعة

لمدة سنتين، ولا يتمّ فطام الطفل إلّا إذا تراضى الزوج والزوجة وتشاورا فيما بينهما، لينشأ الرضيعُ نشأةً صحيحةً في مناخ سليم.

إنّ الأمّ هي المنبت الطبيعي الذي نبت فيه الطفل، والنبت لا يصلح إلّا في أرضه، لهذا فإنّ الأمّ وهي تقدم صدرها لولدها فهي تغذّيه بالعواطف الإنسانية النبيلة، وأعظمها الرحمة المتأصلة فيها، وذلك عندما تضمه بيدها إلى صدرها وتحنو عليه، لأنّه فلذة كبدها، وقرّة عينها، إنّ بكى تتألم لبكائه، بل إنّها أحياناً تقوم من على طعامها لتغيّر له ملابسه بنفس راضية وقلب حنون.

إنّ المرأة التي تترك رضاعة ولدها لأنها تحاول أن تحافظ على رشاقتها، لأنّ خبراء الجمال أقنعوها بأنها إذا أرضعت وليدها فإنّ صدرها يكبر، ويترهل جسدها، أو أنّ تترك ولدها لخروجها إلى العمل، فإنّ مرّد ذلك أنّ تجف العاطفة في الأولاد، وأنّ تموت المشاعر الطيبة في الأمّ، وتتبدل الأحاسيس بين الاثنين، وإننا نهيب بكلّ أمّ ألاّ تلجأ إلى البدائل الصناعية من الألبان المصنّعة، لأنّ ذلك يُقلّل المناعة عند الأطفال، فتكثر لديهم الأمراض، ويتفشّى الضعف العام بينهم.

كما أنّه ليس أحسن للطفل ولا أدفاً لجسمه من الأمّ، فقد منحها الله خاصية ليست في الرجل، فهي التي حملته في بطنها جنيناً، وهي الأستاذة الأولى له في الحياة التي تلقّنه المبادئ الصحيحة والعادات السليمة، فتجعله بطلاً مقداماً، أو باحثاً علامة، أو صانعاً ماهراً، أو زارعاً ناجحاً، وتعمل على:

- ١ - تنمية القوى والاستعدادات الطبيعية في الطفل.
- ٢ - العمل على توازن الاستعدادات النفسية فيه.
- ٣ - تثقّفه عقلياً عندما تناغيه وتلاغيه.
- ٤ - تغرس فيه الثقة بالنفس من خلال التوازن الجسمي والعقلي، لأنّ العقل السليم في الجسم السليم.

النهى عن اغتيال الطفل

الأمّ المرضع عليها أن تعمل على تأخير حملها مدة لا تقل عن ثلاث سنوات، لأنها إذا حملت وهي تُرضع فإنّها تكون قد حكمت على الرضيع والجنين

بالهلاك والدمار، فرضيعها يحتاج إلى أن تُهَيَّئَ وتُعدَّ نفسها وصدورها لغذاء ولدها الذي يرضع منها، فإذا حملت فإن جنينها كذلك يطالب بأن تُعدَّ نفسها أيضاً بقدرٍ ممكن من غذائها ودمها ليستمد الجنين غذاءه من ذلك، فتحار الأم بين إرضاع الرضيع وغذاء الجنين، فلا يكفي جسدها لهذا ولا ذاك، فيُصاب كُلُّ منهما بالضعف والهزال، وتصاب هي كذلك بنفس الأمر، ويكون ذلك سبباً في إرهاق نفسها، لذلك قال رسول الله ﷺ: «لا تقتلوا أولادكم سرّاً، فإن الغيل يدرك الفارسَ فيدَعُثْرَهُ»^(١)، ومعنى الحديث: أنه إذا حملت المرأة وهي ترضع فقد اغتالت أحدهما: إمّا الذي يرضع، أو الجنين، وكانت العرب تكره ذلك وتَتَّقِيهِ، لأنه يترتب عليه إضعاف المولود.

ويقول ابن الأثير: الغَيْلُ: لبن المرأة المرضع إذا حملت، وسُمِّيَ هذا الفعل قتلاً لأنه قد يفضى به إلى القتل، وذلك أنه يضعفه، ويرخي قواه، ويفسد مزاجه، فإذا كبر واحتاج إلى نفسه في الحرب ومُنازَكة الأقران عَجَزَ عنهم وضعف، فربما قُتِلَ، إلا أنه لمّا كان خفيّاً لا يدركه جعله سرّاً.

ويقول الزمخشري في أساس البلاغة: من الكلام العربي المأثور: إذا أرضعتِ ولدك غَيْلاً فكأنما قتلتيه غَيْلَةً... أي إذا أرضعتيه في أثناء الحمل فقد اغتلتيه غَيْلاً... وأورد الزمخشري كلام المرأة العربية عن ابنها وهي تفاخر به.. تقول المرأة عن ولدها: «ما سقيته غَيْلاً، ولا حرمته قَيْلاً... والقَيْل - بفتح وسكون - هو شراب القائلة، وهي نصف النهار... تقصد أنها لم تحرمه من رضعه نصف النهار»^(٢).

إن الله سبحانه وتعالى - وهو الخبير الحكيم - جعل مدة الرضاعة حولين كاملين، فإذا أضفنا إلى الحولين تسعة أشهر، فكأن المرأة بين الحَمْل والحَمْل لا تقل عن ثلاث سنين، وهذا ما يجب أن نتبّه له ولا نقتل أولادنا سرّاً، لأن المرأة

(١) «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير، ج ٢. والغيلة، بكسر الغين: الاغتياال، والغَيْل: اسم لبن المرضع إذا أتيت وهي حامل. ويدعثره: يهدمه ويطحطحه إذا صار رجلاً.
(٢) «أساس البلاغة» للزمخشري.

الحامل يفسد لبنها من سوء أثره في بدن الجنين وتكوين عظامه، فيكون ذلك سبباً في إفساد مزاج الطفل الرضيع وإرخاء قواه، فيصاب بالهزال، وضعف الإبصار، ولين العظام، وهذه من الأشياء التي يجب أن نبتعد عنها، لينشأ الطفل سليماً قوياً في بدنه، فالمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

وعلى الأم أن تتبين أمرها والأب يراعى ظروفه ضماناً لصحة المولود، وحفاظاً لحياة الجنين، وبعد الحمل والإرضاع تكون هناك مدة لا تقل عن سنة راحة للأم واستكمالاً لقواها، وتهيئة الجو للمولود، لتمكن من مُداعبته وملاعبته ومن تكيّف حياته الجديدة في مناخ اجتماعي سليم. ونوصي الأب والأم معاً أن يكونا قدوة صالحة أمام الطفل في هذه المرحلة، لأن أعمالهما وحركاتهما وأقوالهما تنعكس على الطفل وتنطبع في ذهنه، ويلازمه ذلك طيلة حياته ويتأثر به، وكما قيل: «الطبع يغلب التّطبع» لهذا ننصح الآباء والأمهات بهدوء الأعصاب، ولن يتم ذلك إلا إذا كانت الأسرة دَخلها المالي يكفيها، وعيشتها طيبة، ومسكنها ملائم.

تنظيم الأسرة:

إن ما قدّمناه يدل بصريح التعبير ووضوح الرؤية على أن الإسلام أباح لنا تنظيم الأسرة، بحيث يكون هناك تباعد في الحمل، نظراً لما قدّمناه من أدلة لا تحتاج إلى تأويل، والإسلام عندما أجاز هذا حتى يكون مجتمع المسلمين معتزاً بقوّته، ويباهى الأمم بأبنائه الذين ينعمون بهدوء البال واستقرار الحال، ووفرة الإنتاج، مع التربية العلمية والتربية الدينية من الآباء إلى الأبناء، وإلى هذا أشار حديث رسول الله ﷺ: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعِ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرِ، وَفَرَّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»^(١).

كذلك على الآباء أن يُدربُوا أولادهم على الرياضة البدنية، فمن نصائح عمر

(١) سنن أبي داود، ج ١.

رضى الله عنه: «عَلِّمُوا أَوْلَادَكُمْ السِّبَاحَةَ وَالرَّمَايَةَ وَرُكُوبَ الْخَيْلِ، وَمُرُّوهُمْ أَنْ يَثْبُوا عَلَيْهَا وَثَبًا». والنص المأثور عن عمر بن الخطاب: «ورووهم ما يجمل من الشعر». كما أنه لا يجوز شرعاً تكليف الأطفال بالأعمال الشاقة، وإنما يحسن تمرينهم على الأعمال على قدر طاقتهم، وبما يتناسب مع أعمارهم وقدراتهم البدنية، وأن نُهَيِّئَ لَهُمْ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ لِلْعِبِّ وَاللَّهُوِ.

والإسلام عندما أباح التنظيم، نأخذ ذلك مِمَّا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فقد كان الصحابة - على عهده - يُؤَجِّلُونَ الْحَمْلَ، وكان القرآن ينزل، ولم يَرِدْ فِيهِ نَهْيٌ، ففي الحديث عن جابر: «كُنَّا نُعْزِلُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْقُرْآنَ يَنْزِلُ». وعن جابر أيضاً، قال: «كُنَّا نَعْزِلُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَنْهِنَا، وَلَوْ كَانَ شَيْئاً يَنْهَى عَنْهُ لَنْهَاهَا عَنْهُ الْقُرْآنُ»^(١).

وذكر ابن القيم: «أن الأحاديث المصرحة بجواز العزل جاءت منسوبة إلى عشرة من الصحابة الأجلاء»^(٢). وذكر الشوكاني: «أنه لا خلاف بين العلماء في جواز العزل، بشرط أن توافق الزوجة الحرة على ذلك، لأنها شريكة في المعاشرة الزوجية»^(٣).

ويذكر الإمام الغزالي النوايا الباعثة على العزل، ومنها: «استبقاء جمال المرأة لدوام التمتع، واستبقاء حياتها خوفاً من خطر الطلق... وقد يكون الباعث الخوف من كثرة الأولاد، والاحتراز من الحاجة إلى التعب في الكسب، ودخول مداخل السوء»^(٤).

وقد أفتى الشيخ عبدالعزيز بن باز نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة أن ذلك بجواز ذلك، وعَلَّله لأسباب، بشرط عدم تحديد النسل^(٥). وللشيخ

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) «زاد المعاد».

(٣) كتاب «نيل الأوطار».

(٤) كتاب «إحياء علوم الدين».

(٥) مجلة «الحج»، عدد ١٦ شعبان سنة ١٣٨٤ هـ.

سيد سابق رأيه فى جواز العزل، أو اتخاذ دواء يمنع من الحمل، أو بأى وسيلة أخرى من وسائل المنع^(١).

فليس فى التنظيم إذاً ما يخالف الإسلام، ونحن نعلم أن الدخل الحقيقى للفرد يتأثر بالموارد المتاحة، خاصة إذا كان حظ السكان من العلوم والفنون وقدرتهم على التجديد والابتكار وإنتاج السلع والخدمات ليس متاحاً أمامهم، ولم يستطيعوا التحكم فى الثروة الباطنية والقوة المحركة فى الأرض وليس لديهم المال الثابت، وليس عندهم الفكر المتجدد المبتكر، وكفاية المشرفين على عملية التخطيط والتنفيذ، فتبقى الموارد الاقتصادية على حالها بدون تغيُّر مع زيادة السكان، فإن الشخص يتأثر دخله، وتظهر الحاجة إلى التنظيم بدقة وأمانة مراعاة لمقتضى الحال، خاصة إذا كان مع ذلك ضيق السكن، بل عدم توفره بما يتناسب مع دخل الإنسان.

اعتراض

إننا عندما نتحدث عن تنظيم الأسرة عند وجود الظروف التى تتطلب ذلك، ومع أننا نأتى بنصوص من القرآن والسنة، فإننا نجد من يعترض ويقول: كيف تقولون ذلك؟ والغرض من الزواج إنجاب الذرية، والأولاد زينة الحياة الدنيا، والحديث عن رسول الله ﷺ: «تناكحوا تناسلوا فإنى مُباهٍ بكمُ الأمم يوم القيامة»^(٢). والحديث يفهم منه أن الرسول عليه الصلاة والسلام يحث أُمَّته على الزواج، ويحثها على التناسل والتكاثر، ونوضح أن الرسول ﷺ عندما قال ذلك كان المسلمون يومئذ قلة، وغير المسلمين كثرة، فكان المجتمع بحاجة فعلاً إلى النمو والتكاثر، وكانت الأحوال المادية أمامهم متاحة، والاتساع فى المساكن أمر موفور، والحياة ليست معقدة، والاعتماد على الإنسان فى كل شىء (صناعة وزراعة) هو الأساس. لكننا اليوم - وفى ظل المناخ الاجتماعى الحديث - بدأت

(١) «فقه السنة».

(٢) ذكره السيوطى فى «الجامع الصغير».

الآلات تؤدي دوراً كبيراً بدل الأفراد، وأن ما ورد من استكثار النسل ليس من باب الوجوب، وإنما هو ترغيب يستجيب له الشخص إذا توافرت له الأسباب في القدرة والمال، فإذا لم تتوافر فإنه يُخشى أن تكون كثرة الأولاد مصيبة على الإنسان، لأن التنظيم جعل الحمل في أوقات متباعدة، مراعاةً للدواعي التي تدعو إلى ذلك، كما أن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يفاخر بالعدد الهزيل، ولا يباهى بالكثرة الضعيفة المريضة الجائعة المتخلفة الجاهلة، وإنما يُفاخر الرسول عليه الصلاة والسلام بالقلّة القوية، السليمة البدن الصحيحة الجسد، التي تتعلم وتعمل وتجد الإنتاج، ولهذا قال لأصحابه: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف». ونحن نقرأ في القرآن الكريم: ﴿كَمْ مِّن فِتْكَ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَهُ كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ﴾^(١). ويقول سبحانه: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ﴾^(٢). إن الرسول عليه الصلاة والسلام يفاخر بالكم والكيف معاً، والكيف في نظر الرسول عليه الصلاة والسلام أهم من الكم، والحديث الذي يدعو إلى التنازل والكثرة حديث مُرسَل، وهو ما سقط منه الصحابي، وهو أقل درجة من الحديث المرفوع، فالحديث لا ينهض دليلاً، خاصة بعد ما قدّمناه من شرح.

كذلك يسوق البعض قول الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ويقف الشخص عند هذا النص، ولو أكمل الآية وقرأها كاملة فسوف يجد: ﴿وَالْبَقِيَّتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾^(٣). يقول الإمام البيضاوي في تفسيرها: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: يتزين بها الإنسان في دنياه، وتَفَنَّى عَمَّا قَرِيبَ، ﴿وَالْبَقِيَّتُ الصَّالِحَاتُ﴾: أعمال الخيرات تبقى لها ثمرتها أبد الآباد.

ويقول الراغب الأصفهاني: «الزينة الحقيقية ما لا يشين الإنسان في شيء من أحواله، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فأما ما يزينه في حالة دون حالة فهو من وجه شَيْنٍ، والزينة بالقول المجمل ثلاث: زينة نفسية كالعلم والاعتقادات الحسنة،

(١) سورة البقرة، الآية ٢٤٩.

(٢) سورة المائدة، الآية ١٠٠.

(٣) سورة الكهف.

وزينة بدنية كالقوة وطول القامة، وزينة خارجية كالجمال والجاه»^(١). فليست الزينة إذن محمودة في كل الأحوال، ومن جهة أخرى نحن جميعاً نتمنى أن يكون الأولاد زينةً للحياة الدنيا فعلاً، وليس ثقلاً فيها ولا حملاً عليها، وبالله عليك، كيف يكون الأولاد زينة للحياة وهم مرضى جهلاء فقراء؟

وهناك من يعترض ويقول: إن الرسول ﷺ قال: «سَوْدَاءُ وَلُوذُ خَيْرٌ مِنْ حَسَنَاءٍ عَقِيمٍ». ونقول له: إن الرسول ﷺ لم يأمر، بل أرشَدَ وَوَجَّهَ، ويبقى الأمر في دائرة الإباحة، ولو أننا أوجبنا على كل رجل ألا يتزوج ولوداً فما هو مصير النساء اللواتي يقل أولادهن بسبب تكوينهن الجسمي أو بسبب آخر لا حيلة لهنّ فيه؟

ونختم هذا بقول ابن تيمية عندما ذكّر في تفسيره أن سلمان الفارسي كتب إلى أبي الدرداء يقول: «ليس الخَيْرُ أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك، ويعظم حلمك، وأن تبارى الناس في عبادة الله عز وجل، فإن أحسنت حمدت الله، وإن أسأت استغفرت الله عز وجل»^(٢). ثم إننا نجد من يعترض على التنظيم ويقول: كيف ننظّم؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (١)﴾^(٣). ويقول هذا الشخص إن الله تعالى قد تكفل بأن يوصل إلى كُلِّ حَيٍّ رِزْقَهُ في أي مكان وعلى أي وضع. ونزود على هذا القائل ونقول: إن الله تعالى أوجد في الكون الطاقات والإمكانات التي تكفي إذا استغلت للأحياء الذين يمشون على الأرض، وذلك عن طريق السعي والعمل، والاكْتِسَابِ وَالادِّخَارِ، والمحاولة الجادة لتجنّب النكبات والنوازل.

جاء في تفسير المنار عند الكلام على هذه الآية: ليس معناها أن الله قد كفل لكل دابة أن يخلق لها ما تتغذى به ويوصله إليها بمحض قدرته، سواء أطلبت بباعث غريزتها أو ما يهديها إليه العلم من أسباب كسبها أم لا، وإنما معناها ما فسرناه به من خلقه تعالى لكل منها الرزق الذي تعيش به، وأنه سَخَّرَهُ

(١) كتاب «مفردات القرآن الكريم».

(٢) أخرجه أبو نعيم عن أبي الدرداء.

(٣) سورة هود.

لها وهداها إلى طلبه وتحصيله. كما قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (١).

ويتبين لكل ذى عقل أن الذين يعترضون على التنظيم ليس عندهم الأدلة الكافية التي تؤدي ما ذهبوا إليه، لهذا فإننا من باب العلم الذى اتضحت صورته أمام أعيننا، والأدلة الكافية نقول بأن التنظيم يتفق مع الفهم الإسلامى، ونحن نرفض التعقيم الذى بسببه لا تلد المرأة، أو تحديد النسل، وإنما ننادى بالتنظيم بأى وسيلة من الوسائل التى تتفق مع المرأة وتكوينها الجسدى. ويكون لتنظيم الإنجاب ثلاث فترات:

١ - فترة التأجيل.

٢ - تباعد الحمل.

٣ - التوقف عن الإنجاب عند عدد معين من الأولاد بتعاطى أدوية، بحيث لو توقفت المرأة عن هذا الدواء تحمل وتلد.

ويتطلب الأمر تعريف النساء بهذه الطرق المتاحة، وتُرشدنا إلى المزايا التى نَبَّه الإسلام إليها من الرضاة الطبيعية، والقيام على أمر المولود، والتباعد بين فترات الحمل لتختار هى ما يلائمها مع الاتفاق مع زوجها ليكونا على بيئة بهذا التنظيم الذى رَغَبْنَا فيه الإسلام، وتدفعنا إليه الحالة الاقتصادية الضاغطة فى الوقت الحاضر، كذلك السكن الذى أصبح لا يتسع للأسر ذات العدد الكبير. والإنسان العاقل المتدين هو الذى يستجيب لتوجيهات القرآن الكريم والرسول عليه الصلاة والسلام ليعيش سعيداً فى دنياه، راضياً بما أعطاه الله، حتى يتمكن من تربية أولاده تربية يفخر بها فى حياته، وتكون سبباً فى إسعاده فى الدنيا والآخرة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (٢).

(١) سورة طه.

(٢) سورة الأحزاب.

الخلاصة

إن الإسلام لا يمانع في التنظيم بأي وسيلة من الوسائل الطبية التي يقررها الأطباء، لأنهم أهل الاختصاص في تحديد ما يلائم الجسم، وإن المرأة والرجل عليهما أن يتعاونوا معاً في سبيل التنظيم، حتى نضمن لأولادنا مكاناً في المدرسة، ومكاناً في شقة مناسبة، وأن يعيشوا في الحياة الدنيا يتمتعون بأيام طفولتهم، ولا نرُجُّ بهم في أعمال ترهقهم ونُكَلِّفهم ما لا يطيقون.

كما أننا نوصي بالرضاعة الطبيعية، لأنها المنهج السليم والطريق الصحيح لتنمية قدرات الطفل، وبناء جسمه وتحصينه ضد المرض الذي ينشأ عن تلوث أماكن الرضاعة الصناعية، ونأمل أن يكون الخير لأمتنا، التي نرجو لها جيلاً سليماً يحمل أمانة المسؤولية بقوة واقتدار، وقد حصَّن نفسه ضد الفقر والجهل والمرض والتشرد والتصدع. وندعو الله سبحانه وتعالى أن يُهَيِّئَ لنا من أمرنا رشداً، وأن يأخذ بيدنا إلى طريق الخير، إنه نِعَمَ المولى ونِعَمَ النصير.

تعدد الزوجات

تعدد الزوجات في الإسلام شغلَ بال العلماء والمفكرين والمثقفين قديماً وحديثاً، واستغلها أعداء الإسلام من المستشرقين غير المنصفين، والذين تناولوا هذا الموضوع بالبحث، حيث اعتمدوا على جهد شخصي وتفكير ذاتي، ولم يرجعوا إلى النصوص الدينية والتاريخية ليعرفوا أن الله سبحانه ما كان ليقرر أمراً إلاً لحكمة يعلمها الدارسون المتخصصون، ومثل هذا الموضوع كان الواجب على غير المنصف أن يقف طويلاً أمام النصوص ليستخرج منها الحقيقة الغائبة عن فهم المُغرضين. وتعالوا بنا أولاً في رحلة تاريخية نعبر فيها الزمان والمكان لتتصَّحَّح الماضي حتى نُؤصِّل المنهج العلمي، لتكون الأمور واضحة لا لبسَ فيها ولا غموض.

الإنسان البدائي

لم يُكشَف النقاب عن علاقة الرجل بالمرأة خلال الفترة البدائية، وإن كان علماء الاجتماع كشفوا لنا شيئاً من أسرار تلك العلاقة بعد ذلك، حيث أثبتوا أن الشيوعية الجنسية كانت الأساس في العلاقة بين الذكر والأنثى، لأن الذكر مدفوع بطبيعته إلى الأنثى تحت عامل الغريزة المتسلطة عليه، ولأنه لا يعرف الحياء بعد، ونتيجة تلك العلاقة ثمرة من الأولاد الذين لا يعرفون آباءهم، وقد لا يعرفون أخوتهم، لأنه لم تكن هناك ضوابط أو نُظُم، ممَّا أدَّى إلى الفوضى والهمجية^(١).

إن الناس كانوا على الفطرة، ولم يعرف الإنسان خُلُق الحياء إلا بعد مرور

(١) يراجع في ذلك كتاب محمد حافظ صبرى «مقارنات ومقابلات»، ص ٣١٧ وما بعدها.

سنين طويلة، ثم تعلّم الإنسان السّير عندما تعلم الفروسية والنزال والغلبة على الأعداء، وكان الغالب يحاول أن يستأثر بما حصل عليه برمحه وسيفه، ومن بين ذلك المرأة التي حصل عليها وضّمّها تحت رعايته، وله أن يستمتع بها أو يبيعها لمن يرغب فيها كما يُباع الصيد وخلافه، وهنا بدأ الإنسان يزود برمحه عن ماله وممتلكاته، ومن بين ذلك النساء. وقد صار سبب المرأة من الأمور المهمة، لأن القوى الذي أخذها بسيفه يستخدمها في رعى الإبل وعمَل المنزل، من طهى للطعام وغسل للثياب وما إلى ذلك.

إن النساء في بدء الزمن كُنّ طليقات، ولم يكن لأحد سلطان عليهن، ولم يشعرن بالإثم أو الذنب من جراء ما يفعلن، إلى أن جاء الملك «سويتا كينو» - وهو من الصين - ف قضى على هذه الفوضى، ووضع قاعدة مؤدّاها: من يريد المرأة فعليه أن يتزوجها. وقد وضع لهذا الزواج قواعد. ويرى المؤرخون أن الإنسان البدائي كان لا يختلف عن الحيوان، فهو يهيم على وجهه في الغابات والأحراش، وكانت النساء ملكاً للجميع، المولود لا يعرف له أباً، وإنما يُنسب إلى أمّه. وجاء الإمبراطور الصيني «فورهي» ف قضى على هذه الشيوعية الجنسية المباحة، وسنّ الزواج.

ويقول بعض المؤرخين: إن الملك «ككرويس» اليوناني قضى كذلك على الفوضى الجنسية وجعل الزواج رابطة بين الرجل والمرأة^(١). هذا، وقد كان العالم كله ينسج على هذا المنوال، المرأة مباحة ولا تَرُدُّ يَدَ لَمِسٍ، والغالب يأخذها بالقوة ويبيعها كما يُباع المتاع، إلى أن نهض المفكرون ووضعوا نظام الزواج لأسباب أهمها:

١ - شعور كل واحد إلى الآخر، حيث يتبادلان المساعدة، وهي أكثر فائدة لكل منهما في ظل التعاون بينهما.

٢ - الشعور الطبيعي بأن كل واحد من الذكر والأنثى مُتَمِّمٌ للآخر، وكل واحد في حاجة إلى الآخر.

(١) يراجع في ذلك كتاب «عادات الزواج وشعائره» لأحمد الشتناوى.

٣- الحفاظ على الأولاد ورعايتهم، لحاجة كل واحد منهما - الرجل والمرأة - إلى رعاية الأولاد لهما لمعاونتهما إذا أقعدهما المرض، والولد هو الذى يرعى مصلحتهما عند تقدّم سنّهما، فلا بد من رعايته صغيراً، ومن ثم لا بد أن يتم الارتباط بالمولود تحت رعايتهما.

٤- التخلص من الفوضى الجنسية، حيث بدأت المرأة تشعر بأنها مُهانة، تكون تحت من يريدها حتى ولو لم يكن لها رغبة، فالقوة تُجبرها، فأرادت حماية نفسها برجل تكون له ويكون بينهما الولد، ولا يعلو عليها غيره^(١).

التعدد فى دول الشرق

الصين: من أقدم البلاد التى عرفت نظام التعدد، حيث يُباح للزوج أن يشتري فتيات يستمتع بهن، وتكون الزوجة الأولى لها الرئاسة على أى عدد بعدها من الزوجات، وكانوا يفعلون ذلك من أجل تحسين النسل، لأن الرجل يشتري الفتيات من قبائل متعددة ومناطق بعيدة عن موطنه. وكان الزوج يطلب من هذا العدد الذى تحت يده ألا يتزوجن بعده، بل كُنَّ يحرقن أنفسهن إذا مات الزوج تكريماً له، ووفاءً له بالعهد، وحتى يكون الرجل مستريحاً فى أخراه فلا يعلو غيره زوجته.

الهند: هى الأخرى عرفت نظام التعدد، وكان الرجل يختار واحدة من زوجاته كى تشرف على الزوجات الباقيات، وتضع كل واحدة فى مكانها طبقاً لمناخ أسرتها الاجتماعى قبل الاقتران بها، وتحدد لها عملها. وكان الهنود يعتبرون الزوجة مصدر عار، لأنها تضلل الأحمق، وتغوى الحكيم، وتخضعه لشهوته، وتمسك بزمامه، لذلك كانوا يعتبرون المرأة مصدر شر بصفة عامة، فإذا ارتبط بها الرجل وصارت زوجة له يعاهاها - أو يعاهاهن عند التعدد - وهو أمر شائع، على أن الزوجة تحرق نفسها بعد مماته حتى لا تتزوج غيره. ومما يذكر أن ملكاً هندياً

(١) يراجع فى ذلك - غير ما تقدم - «المرأة فى مختلف العصور» لأحمد فاكى، و«الأسرة والمجتمع» للدكتور عبد الواحد وافى، و«تعدد الزوجات فى إفريقيا» للدكتور محمود سلام الزناتى.

تزوج باثنتي عشرة ألف زوجة ليكنَّ مقرَّبات له، على شرط أن يحرقن أنفسهن مختارات بعد موتهن، وقد وافقن، واعتبرن أن ذلك شرفاً عظيماً لهن^(١).

الفُرس: كانوا يتصرفون في المرأة كالسلعة، وأحياناً كانوا يحكمون عليها بالموت^(٢). وكان التعدد مباحاً عندهم، فللرجل أن يختار مَنْ يشاء منهن. وقد أقرَّت تعاليم «زرادشت» هذا التعدد. وللرجل أن يتزوج بأى عدد، فالذى له زوجة يُفَضَّلُ على من لا زوجة له، والرجل الذي يعول أسرة يُفَضَّلُ كثيراً على من لا أسرة له، والذي له أبناء يُفَضَّلُ كثيراً على من لا أبناء له، وهكذا^(٣).

مصر القديمة: مصر حباها الله بالأمن والاستقرار على ضفاف النيل، فغالباً ما كان الرجل يكتفى بواحدة، وإذا تزوج بثانية فإنه كان يتخذ لها بيتاً خاصاً بها ويزورهما بالتناوب، لكن القانون المصرى لم يكن يمنع التعدد، ولم تكن الزوجات متساويات في الحقوق، ففي بعض النقوش ترى الزوجة الثانية خلف الزوجة الأولى، في حين ترى الزوجة الأولى جالسة على مقعد مرتفع وفي مكان الصدارة، وقد وضعت يدها على كتف الزوج أو حول وسطه^(٤).

وكان الملك والأمير والكاهن يعددون الزوجات، وهؤلاء بلا شك هم القدوة للجماهير. وأحياناً كان يُنصُّ في عقد الزواج شرطٌ يُحرِّم على الزوج (الذى هو من بيئة معينة عرف عن أهلها عدم العدل وإلحاق الأذى بالنساء) ألا يتزوج بأخرى، وإن فعل يدفع غرامة مالية للزوجة الأولى لترفع من مستواها المالى. وقد وُجد في أوراق البردى المكتوبة باللغة الآرامية التى وُجدت في الكاب وأسوان عقد زواج ينصّ على تعهّد الرجل بالألّا يتزوج من امرأة أخرى غير زوجته، وإن فعل دفع لها غرامة^(٥). ومع ذلك فإن الوثائق تؤكد أن الأمير «ميرى-رع» وُجدَ في النقوش

(١) «قصة الحضارة»، ترجمة د. زكى نجيب محمود.

(٢) «تحرير المرأة» لقاسم أمين.

(٣) «قصة الحضارة»، المرجع السابق.

(٤) «المرأة في تاريخ مصر القديمة» لوليم نظير.

(٥) «النظم السياسية والاجتماعية» لمحمد جمعة، ص ٧٤.

محاطاً بست زوجات، بينهن «إيس» تحمل لقب الشرف وهي بجواره تضع يدها على كتفه.

ورمسيس كان له زوجتان، ثم تزوج من بنت ملك الحيثيين عندما عقدوا معاهدة معه، وهذه هي الزوجة الثالثة. وتحتمس الرابع، وأمنحتب، وأمنحتب الثالث، عدّدوا زوجاتهم. وكانت الزوجات تشاركن أزواجهن في الحكم. وأمينوفيسى الثالث لم يكد يدرك عامه الثالث في الحكم حتى تزوج بزوجته الكبرى «تى»، وكان قصره غاصّاً بألوان من الزوجات من مختلف بقاع الأرض، ثم تزوج بأخت «أرطاما» صاحب النهرين، ثم عاود وطلب يد ابنته وتزوجها، وزُفّت إليه وفي ركبها ٣١٧ (ثلاثمائة وسبع عشرة) جارية من أجمل نساء آسيا، وكان له حقّ معاشرتهن.

اليونان: كانوا يتزوجون لإنجاب الذكور، ومن حق الرجل أن يُطلق زوجته إذا كانت عقيماً، ومن حق الزوجة أن تجتمع بالشبان بحرية كاملة، وكانت ترقص مع من تشاء في المناسبات^(١).

لكن الزوج بدأ يُضيق على زوجته، فنهاها عن مغادرة المنزل إلا بإذنه، أمّا الزوج فله أن يتخذ الخليلات ويعاشرهن. ولهم شعار مُلخّصه: «إننا نتخذ العاهرات لِلذّة، والخليلات لصحة أجسامنا اليومية، والأزواج ليلدّن الأولاد الشرعيين، ويعنّين بيوتنا عناية تنطوى على الأمانة والإخلاص، والذكر بطبيعته أصلح من الأنثى للرياسة». كما أن التعدد كان مباحاً عندهم - خاصة بعد الحروب - وسقراط تزوج باثنتين، وكان أولاد الزوجة الأولى هم الشرعيين، والزوجة الثانية إذا فارقتها الجمال أصبحت جارية في المنزل^(٢).

الرومان: كانت المرأة عندهم لا شخصية لها، ولا تتمتع بأية أهلية، والأنثى تُعامَل مثل الصغير والمجنون، لأنها ناقصة الأهلية، وهي تخضع للأب إذا لم تكن

(١) يراجع كتاب «عادات الزواج وشعائره» لأحمد الشنتاوى.

(٢) يراجع كتاب «قصة الحضارة»، المرجع السابق.

متزوجة، ولزوجها إذا تزوجت، وينوب عنها الأب أو الزوج في مباشرة أى تصرف لها، وإذا تصرفت فى أى شىء فقد ارتكبت جُزماً يحاكمها عليه زوجها، وفى مقدوره أن يحكم عليها بالإعدام إذا خانته أو سرقت مفاتيح خزائن خمره.

وكانت الإباحية منتشرة، ومن السهل أن تلقى أى امرأة عندما تريد، وفى أى مكان، فإنهن لم يكنَّ أقل عدداً من نجوم السماء - كما يقولون - وكان التعدد نظاماً اجتماعياً معروفاً وسائداً، غير أن القانون كان يُخضع الزوجة الثانية لنوع من التسرّي، وأولادها لا يرثون لأنهم ليسوا من أفراد الأسرة، والحق كان للزوجة الأولى وأولادها، ولأنها الأولى فلها الصدارة والرياسة على الثانية وأولادها.

عند أهل الأديان: يقصد بأهل الأديان أهل الكتب السماوية التى نزلت على الأنبياء، والذي يمكن الاعتماد عليه هو ما وردَ فى الشريعة الموسوية وشريعة عيسى - عليهما السلام - لأن ما قبل ذلك من الأنبياء الذين نؤمن بهم وبكتبهم لم يصل إلى أيدينا شىء منها يمكن الاعتماد عليه. وأصحاب الشريعة الإسلامية يؤمنون بكل الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم، وبالكتب السماوية كلها، فنحن نؤمن بما أنزل على سيدنا محمد، وبما أنزل من قبله، امثالاً لقول الله تعالى: ﴿ءَاْمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاْمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ (١).

وتشير الكتب المقدسة إلى أن آدم تزوج بحواء، وكان الزواج بواحدة، لأن تعادل الإنجاب والعدد بين الذكر والأنثى يكاد يكون متساوياً. والشريعة الموسوية أقرت عادات التعدد، لأن أول من عدَّ الزواج «لامك»، فقد تزوج واحدة تسمى «عادة»، والثانية «صلة»، وتبعه «العيس»، فقد تزوج «عدا» بنت أيلون، وتزوج «أهوليامه».

وسارت الأسرة العبرية على نظام التعدد، وكان نظاماً عاماً بين البطارقة وملوك إسرائيل، والتوراة - وهى الكتاب المقدس الذى نزل على موسى عليه

(١) سورة البقرة.

السلام - قد أبحاث التعدد^(١). وننقل هنا ما جاء في كتاب «شعار الخضر» في الأحكام الشرعية الإسرائيلية ما نصه: «إن اليهود في القرون الوسطى كانوا يُعدّدون زوجاتهم تبعاً لحاجاتهم، ثم إنَّ العلامة «جرسون» حرّم التعدد بمادة ٣٩٥ مقارنات. ومادة ٥٤ للعلامة «ماي» تمنعه كذلك، وتقضى بتحليف الرجل ألاّ يتزوج على امرأته. ويقول أيضاً: إن تعدد الزوجات جائز بشرط عدم الإضرار بالإقبال على واحدة والإعراض عن الأخرى إحصاناً، بل العدل واجب بينهما، كما يجب في غيره من نفقة وكسوة». وحدّد اليهود التعدد بأربع لا أكثر، ولو كانت ميسرة الرجل تسمح بالزيادة.

أمّا الذي حدّا بالعلامة «جرسون» إلى تحريم التعدد فإن مرَدّه - كما فصله كتاب شعار الخضر الخاص بالأحكام الشرعية الإسرائيلية - كان للأسباب الآتية:

١ - ضيق المعيشة، حيث أصبح الأمر بقيام زوجة واحدة غير هيّين، بل كان عبئاً ثقيلاً على كاهل الرجل.

٢ - تعادل نسبة المواليد من الذكور والإناث، بحيث إذا حدث تعدد فإن هناك من لا يجد زوجة.

٣ - أخذ اليهود ينظرون إلى التعدد على أنه مُضِرٌّ بالزوجة الأولى، ويُباح فقط إذا كانت الأولى عقيمة، حيث قالوا: إن الرجل إذا عقلت زوجته ومضى عليها عشر سنوات واشتاق للذرية فله أن يُعدّد الزوجات، واستدلوا على ذلك بسيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، فقد تزوج بهاجرَ لأن سارة - زوجته الأولى - كانت عقيمة، وأنجبت السيدة «هاجر» سيدنا إسماعيل عليه السلام. كذلك سيدنا يعقوب، تزوج «يلهاء» وكان قد تزوج قبلها براحيل... إلى غير ذلك^(٢).

والتعدد عند المسيحيين يكشف عنه ما تمّ عام ٦٥٠ م، حيث أصدر مجلس

(١) يراجع في ذلك «سفر اليكومين - إصحاح ٣٦»، وكتاب «النظم السياسية والاجتماعية» لمحمد جمعة، ص ٦٨.

(٢) انظر كتاب «عادات الزواج» لأحمد الشنتاوى.

الفرنكيين قراراً يُجيز للرجل أن يُعَدَّ زوجاته، بناء على ما تبين للمجلس من نقص عدد الرجال بسبب الحروب.

ولم يتعرض «مارتن لوثر» - زعيم حركة الإصلاح المسيحي - للتعدد، ولم ير فيه ما يدعو إلى التحريم. ويقول «وسترماك»: إن التعدد - باعتراف الكنيسة - بقي إلى القرن السابع عشر الميلادي. وقد سنَّ الإمبراطور «فلافيوس فالنتيان» قانوناً يبيح التعدد، وكان ذلك في منتصف القرن الرابع الميلادي، وجعل التعدد مباحاً لرعاياه، فلهم أن يتزوجوا بمن شاؤوا ولم تحتج الكنيسة^(١).

والمتصفح لمجموعة الأناجيل ورسائل الرسل لا يعثر على شيء يصح أن يكون سنداً ودليلاً لمن يقول إن الشريعة المسيحية تُحرِّم تعدد الزواج.

إفريقيا: شعوب إفريقيا عرفت التعدد حتى أصبح لا تخلو منه أسرة، وكان البعض عنده أكثر من عشر زوجات، وكانت الزوجات يفرحن عندما يتزوج أزواجهن بأخرى جديدة، لأنها سوف تشاركهن في العمل، لأنهن كنَّ يعملن لحساب الزوج، وبوجود أخرى يقل العمل عن الباقيات ويخف. والوضع الاقتصادي يدعو إلى أن يكون للرجل زوجات، لأن الرجل يحتاج إلى الذرية لتشد عضده وتكون عوناً له ومُساعداً على المعيشة، لأن الحصول على لقمة العيش في هذ البلاد صعب جداً، والمعروف عن المرأة الإفريقية قلة الإنجاب، ويلاحظ موت الأطفال بكثرة في سن مبكرة، وذلك لكثرة الأمراض، والحشرات القاتلة، والحيوانات المفترسة التي تقتل الأطفال، فكان الرجل يتزوج النساء ويكثر منهن.

العرب: عرف العرب في الجاهلية تعدد الزوجات، وكان الرجل الثرى منهم يحتاج إلى كثرة النساء ليقمن على خدمته، ثم إن الرجل العربي كان في حاجة إلى الذرية لتشد صلبه، وتكون عوناً له على الشدائد. ثم إن الرجل كان يفتخر بكثرة أولاده، ويتخذهم أنصاراً أعواناً يشدون أزره. ويتخذ العربي من تعدد الزوجات كثرة المصاهرة، وهي قوة تنفعه عند الحرب. وعبد المطلب جدَّ النبي ﷺ تزوج

(١) يراجع كتاب «مركز المرأة في الإسلام» للسيد أمير على هندي، ص ٤٢.

بست^(١)، وسفيان بن حرب تزوج بست، وصفوان بن أمية كذلك، أمّا المغيرة بن
شعبة فقد تزوج بسبعين^(٢).

الخلاصة في موضوع التعدد

إننا نرى رجالاً كـ «شوبنهاور» وقد اشتهر بعدائه للمرأة يقول: «إن حظر التعدد
استبداد شنيع». وكذلك فعَل «نوريل»، يعجب ن حظر رجال الكنيسة التعدد
ويقول: «إن وحدانية الزوجة التي فرضتها الكنيسة الرومانية فرضاً لا يتفق مع
الفطرة». وفي عام ١٩٤٣ م نشرت جريدة «الأهرام» حديثاً للعالم الإنجليزي
«مستر جواد»، وقد أجاب فيه على سؤال بخصوص تعدد الزوجات، فقال: «إن
النظام البريطاني الجامد الذي يمنع تعدد الزوجات نظام غير مُرضٍ، فلقد أُضِرَّ بنحو
مليونى امرأة ضرراً بليغاً، حيث صيرهنَّ عوانس، وأدّى بشبابهن إلى الذبول،
وحرمن من الأولاد، وبالتالي ألجأهن (أو جُلَّهنَّ) إلى نبذ الفضيلة».

ولقد ثبت أنه بعد الحرب العالمية الثانية أن زاد عدد النساء على الرجال فى
إنجلترا بنحو ثلاثة ملايين ونصف، كما ثبت أنه وُجِدَ فى بعض المناطق الألمانية
رجل لكل سبع نسوة، بل ثبت أيضاً وجود فائض من النساء فى كل أمة بعد
الحروب، حتى علت الأصوات من الفلاسفة والمفكرين بوجوب إباحة التعدد حفظاً
لكيان الأسرة، وذوداً عن حمى الفضيلة، فإن ستين ألف بنت فى مدينة واحدة
سُفِكَ دم شرفهن بسبب التضخم النسائى والاقتصار على زوجة واحدة. كما أنه فى
سنة ١٩٤٩ م استصرخت النساء الجزائريات اللجنة التشريعية فى الجزائر لانتشالهن
من الوهدات التى وقعن فيها بتحتيم تعدد الزوجات، مما جعل الكثيرات من نساء
الجزائر فى موقف حرج ومُخزٍ.

إنه من المعلوم أن التعدد كان له الأثر العظيم فى كثرة النسل إبان الفتوح فى
صدر الإسلام وموت الكثير من المجاهدين، حتى إنه كان لسعد بن أبى وقاص من

(١) سيرة ابن هشام، ج ١.

(٢) «مجمع الأمثال» للميدانى، ج ١.

أولاده ست وثلاثون، وكان لعبد الرحمن بن عوف ثمانٍ وعشرون. يقول الكاتب الفرنسي «هنرى»: لقد وقفنا طويلاً لهؤلاء المسلمين فى كل طريق لنقضى عليهم، ولكننا فشلنا، لأنهم يتناسلون بسبب تعدد الزوجات. وكذلك ثبت من مراجعة الإحصاءات أن عدد النساء عندنا يزيد على عدد الرجال، ولا يتبادر إلى الذهن أن الإسلام عندما أباح التعدد جعله فوضى، بل اشترط العدلَ وحُسن المعاملة، وأن تكون أحوال الزوج المعيشية يؤمن معها قيامه بحُسن العشرة، والإنفاق على زوجاته وأولاده، ومن تجب عليه نفقتهم.

النظام الإسلامى والتعدد

أشرقت أنوار سيدنا محمد ﷺ عندما نزلت عليه آيات القرآن ندية جليلة تُخَيِّم موات النفوس، وتنير ظلام القلوب، وتهذب الأخلاق، وتسمو بالإنسان الذى أباح له الإسلام أن يتزوج بأربع عند القدرة، مع شرط العدل بين زوجاته فى المسكن والمأكل، والملبس والمشرب والمبيت... العدل الكامل بين زوجاته حتى يكون أهلاً لكى يَرْقى فى مدارج الكمال بأحاسيسه وغرائزه، وليحتل فى دنيا الناس مكانَ الطُّهر والنظافة والعفاف، وفى الآخرة جنات تجرى من تحتها الأنهار. وإذا كنا نسمع من يقول: إن تعدد الزوجات الذى أباحه الإسلام أوجد فوضى فى الأُسْر، وخللاً فى بُنيانها، فإننا نقول لهم: إن الإسلام ليس بدعاً فى ذلك، فلقد رأيتم أن التعدد قديم الأثر، وأن المفكرين من الأمم الغربية يوجِّهون الدعوة إلى الرجوع للتشريع الإسلامى فى إباحة التعدد بعد أن رأوا من الفساد ما رأوا، ثم من فائض النساء ومن اتخاذ الخليلات مع الزوجة، وهو فى الواقع تعدد شاذ، إلا أنه مستتر، يؤدى إلى انهيار المجتمع، وشيوع الفساد، وهو ضررٌ اجتماعى بالمرأة، وتصدُّعُ للأسرة. إن الإسلام عندما عالج قضية التعدد عالجها بضوابط قوية، وأحاطها بسياج أخلاقى، ليأمن على المجتمع من أى ضرر يصيبه، ويقضى على الفساد الأخلاقى فيه.

إن الإسلام هو دين الإنسانية جمعاء، فهو يعالج المسألة من خلال تقدير

المصلحة العامة، ولذلك نسأل الذى يمنع التعدد ويبيح المُخاللة والمعاشرة واتخاذ العشيقات: هل نتغاضى عن هذا الطوفان من الفتيات اللواتى يطلبن زوجاً وينشدن العفة؟ أيهما فى منطق الإنسانية أكمل: أن تكون المرأة زوجة مع أخرى أو تحيا مع زوج خائن يُعاشِر غيرها عشر نسة أو أكثر؟ وهل ترضى أن تحيا فى بيت خائن أو تكون زوجة ختُوناً؟ هل تبيح سفك دم الفضيلة على عتبات الرذيلة أم ترضى أن تشارك أختها حياة العفة والطهارة؟ إن المؤمنين إخوة يحب الواحد منهم لأخيه ما يُحبه لنفسه.

هل نُحرِّم التعدد ونبيح الفحشاء ونحن نعلم أن هناك زيادة فى النساء وهن يتعرضن لمساوىء الكبت أو رجس الفاحشة؟ إن الفتاة - كما نعلم - صالحة للزواج من سن السادسة عشرة وما قبلها، - حسب النضج الجنسى المبكر عند البعض - فإذا قَدَرْنَا سنّ الزواج فى المتوسط بالنسبة لها عشرين عاماً، فماذا تترك السنوات العشر، وهى الفرق بينها وبين الرجل الذى يتزوج فى الثلاثين؟ لا شك أن النسبة العددية فى ذاتها أكثر عند النساء منها عن الرجال، فضلاً عمّا يتعرض له الرجال من خطر دائم فى الحروب وغيرها، ممّا يقلل عدد الرجال ويزيد فى عدد النساء.

وهل أفلح قوم منعوا التعدد؟ وهل استطاعوا أن يمنعوا تعدد العشيقات والخليلات وإنجاب الأولاد غير الشرعيين واللقطاء؟ وماذا نفعل لو أن الرجل أحب زوجته وأخلص لها ثم تبين أنها عاقر وقد حال ذلك بينها وبين الإنجاب... هل نقول للرجل: طَلِّقْهَا وتزوّج غيرها، وربما تكون قد فقدت كل عائل لها سواه، وفى هذا ما فيه من الجفاء والتنكّر للعشرة، وهو يريد الولد وهى عاجزة عن تحقيق رغبته بأمرٍ خارج عن إرادتها، ولن تستطيع، فماذا يفعل الرجل فى مثل هذا الموقف؟

وما هو الحال لو أن المرأة أُصيبت بمرض يمنعها من القيام بأداء عملها كزوجة يُصان بها عفاف الرجل وتتم حصانته، هل نقول له: طَلِّقْهَا وتنكّر لعشرتها السابقة وتزوّج غيرها، أو ابتعد عنها وعزّب، وقد تكون كذلك لا عائل لها بعد الله إلا هو، حيث فقدت الأب والأخ والعم والخال؟

إن الإسلام عندما صان المرأة وكرَّمها وضع الضوابط التي تلازمها حتى لا يعبت العابثون بشخصية المرأة وينالوا منها ويحطِّموها ويقتلوا إنسانيتها... إن قلنا للرجل طَلَّقْ، فقد جافينا فضيلة الوفاء، وأهدرنا التكافل الاجتماعي، وقطعنا حبل المودَّة، وإن قلنا له عَرِّبْ فقد أبحنا الفسوق وتعدده مع منعنا لتعدد الاستقامة والطهر والعفاف، وإن قلنا له هذا قسمك فارض به، فقد حمَّلناه فوق طاقته، إذن فالحل الوحيد هو إباحة التعدد بزواج يستقيم به سلوك الرجل وتُعصم به الأنثى من بنات حواء، ويبقى للزوجة الأولى الحب والإكرام بتوجيه زوج كريم يملك زمام الأمور، ويضعها في نصابها، ويقوم العدل بين من في البيت، ولا يجعل أمَّ الولد تتسلط على الأخرى، لأن رجولته تأبى عليه ذلك، وقيم الإسلام وأخلاقه لا تغيب عن النساء والرجال على السواء.

إن الإسلام عندما أباح التعدد فقد رسم خط الوفاء الذي يربط بين الناس برباط الأخوة والمحبة، ولتحقيق المصلحة بين الناس، وتقدير شئون المجتمع، ورعاية المصلحة العامة للبشرية، لأنه دين الكون كله - وإن اختلف الزمان والمكان - فإن تشريعاته وُضِعَتْ للإصلاح.

إن الذين يتناولون على دين الله باسم الحضارة يسوقون قضية التعدد، وهم يخدعون المرأة ويوهمونها بأنهم يعملون لمصلحتها وصيانة كرامتها. وما أكثر ما تخدع المرأة بهذا البريق الزائف! إنهم يضربون لها الأمثلة من الغرب، وأن أختها هناك لا تسمح بالتعدد... ونحن نقول لها بهدوء: يا أختاه، هل درستِ حال المرأة هناك لتحكمى بنفسك: هل تقبلين أن تكوني مثلها ملهأة لكل عابث، ومتاعاً مباحاً، لا ترُدِّين يدَ لأمسٍ؟ إن هذا يؤدي إلى بوارٍ يصلِّي معه المجتمع نار الفسوق والفجور، وما حديث «الإيدز» عنك ببعيد. إنَّ عليك أن تدركي أنك بنت الشرق، لك دينٌ وعُرفٌ وتقاليد، وإن قداسة الأسرة وطهارتها تعنى كرامة المرأة وشرفها وعفتها. إن عدم إباحة التعدد يؤدي إلى إتاحة الفحشاء للرجل، أو تعريض الرجل والمرأة لحياة ليس فيها أمنٌ أو راحة ضمير. إن المرأة المُصانة فجرها في سماء الشرق الذي يُنبئ بأن نورها سوف يملأ الكون لأنها تؤمن بأن عفتها في طهرها،

وكرامتها بتمسكها بدين الله، وحريتها الصادقة عندما تتمسك بتعاليمه، وهى بذلك سعيدة لأنها هيات لزوجها أسرة عفيفة، يجد الأبناء فيها دفء العاطفة، وشرف الأب المصان، وكرامة الخال والأسرة.

إننا نريد لأمهاتنا وبناتنا أن يعشنَ كذلك، وننكر عليهم أن يعشن فى ظلام التقليد وحماسة الإفراط والتفريط. إن التطاول على دين الله باسم المدنية والحضارة ما هو إلا كتنقيق الضفادع على شواطئ البحر الطهور وهو يُلقى بالزبد ويضمّ الجواهر النقى فى أعماقه، ويمد بالخير والنفع كل طاهر الذيل. إن على يد المرأة الطاهرة نشأ أنبياء الله موسى وعيسى ومحمد، وكانوا نماذج صالحة للبشرية، قأدوها إلى حياة الطهر والفضيلة والرقى والتقدم والازدهار. إن الرجال الذين أنجبتهم أمهات الشرق بالأمس هم عزة على جبين الدهر، ووسام الشرف فى تاريخ البشرية. فكونى يا أمّ اليوم كأمّ الأمس، حفيدة شرف وسليمة مجد. أنت قوام الأسرة، بك ومنك تمتد حياتها... فلتصن المرأة نفسها بمواريث أمتنا، لأنها ما عرفت نعمة الحرية الصادقة والكرامة البارّة، بل إنها ما عرفت معنى لإنسانيتها إلا يوم أن أشرقت شمس الإسلام، فأول مرة فى تاريخ الإنسانية يتردد فى أرجاء الكون وحيّ كريم وقرآن عظيم يتلوه محمد ﷺ على سَمع الزمان، ويتكفل الله بحفظه، يضع المرأة فى المكانة الإنسانية الفاضلة، ويتيح لها من الحرية والكرامة والحقوق ما تظفر به بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

إن المرأة سُلبت نفسها ورأيها، وحُرمت نصيبها من الوجود، ووُسِمَت بوسام الذل والهوان، لا تكون امرأة طاهرة، ولا تتكشّف عن أمة فاضلة، ذلك لأن المرأة إذا استشعرت المهانة من ذويها هانت عليها نفسها، ومن هانت عليه نفسه لا يمتنع عن دنيّة، ولا يعتصم عن نقيصة، فهى لا تصلح لأسرة، وبالتالي يضيع المجتمع، لأن الأسرة هى اللبنة الأولى فى كيان المجتمع وبنائه، ولا قيام للمجتمع إذا ضيّع الفرد فيه، وامتهنت كرامته فى أرجائه، وديست حرته على أرضه، لذلك حثّ الإسلام ونبّه على التمسك بالفضيلة، وأغلق الأبواب أمام أى ريح تهز شخصية المرأة المسلمة، أو تنال منها حتى بالكلمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ

الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿١﴾.

اختلاف التكوين الجسماني للرجل والمرأة

تختلف طبيعة الرجل عن المرأة من الناحية «السيكولوجية» النفسية، فالرجل أكثر طلباً للأنثى، ولذلك كان التعدد لتحسين الرجل أمراً مطلوباً، لأن الرغبة الجنسية قد تتغلب على الإنسان فتغلبه، فه فوق طاقته، والذي خلقها أعلم بما يُصلحها، فجعل لها متنفساً، فإذا تحكّمت بالشخص ولم يجد لها متنفساً انقلب إلى حيوان مسعور يفتك بكل ما تصل يده إليه، وأغلب حوادث القتل والمشاجرة سببها التفكير في الأمور الجنسية التي لم يجد الشخص لها متنفساً، فإذا ما تخلص من شهوته يعود إلى إنسانيته هادئاً، نادماً على ما صدر منه على غير إرادته. ثم إن الرجل عنده القدرة على الإنجاب طوال حياته، حتى ولو قارب المائة من عمره، وهناك حالات تشهد بذلك، لهذا كان التعدد له، أمّا المرأة فمن لطف الله بها أن جعل لها من كل جسدها متنفساً لغريزتها، فقد يكون المتنفس لها عند لمس أى جزء من جسدها، أو إدامة نظرها، وحتى في إرضاع طفلها عندما يمص ثديها، فقد جعل الله لها من كل ذلك متنفساً لغرائزها.

والمرأة وإن كانت تتفق مع الرجل في الحكمة من التقائهما لحفظ النسل، فإنها تكون مستعدة للحمل حتى سن الخمسين، بعدها ينقطع دم الدورة الشهرية، وتنعدم البويضات الخاصة بالتناسل، وهنا تقل رغبتها في اللقاء الجنسي، والعلة في عدم الاستعداد من المرأة لإنجاب النسل بعد الخمسين أن قوتها تتناقص، ويزداد ضعفها لما ألمّ بها من الحمل والولادة والرضاع^(٢)، لذلك جعل الله من تعدد الزوجات للرجل علاجاً لما أسلفناه.

إنه لا ينبغي لنا أن نُقلّ من الناحية الجنسية ونحاول إلاّ نعطي أهمية للعلاقة بين الرجل والمرأة، بل الحقيقة والواقع يؤكدان أن حياة الرجل منصرفة إلى المرأة،

(١) سورة النور، الآية ١٩.

(٢) انظر: «تفسير المنار» لرشيد رضا، ج ٤.

وفى سبيلها يضحى بكل ما يملك، فعامة اكتساب الرجال وإنفاقهم لما يملكون إنما هو مصروف على النساء، وعلى الأسباب المتعلقة بهن.

والمرأة فى سبيل جذب الرجل إليها تتخذ من الوسائل ما يجعلها تسيطر على قلبه، وتملك منه زمام نفسه، وتشده إليها، وتلفت نظره بالزينة الظاهرية، لأن الطبيعة هيأتها لذلك. ولها أساليب، منها: التميمص؛ نتف شعر الحاجب، والتطيب (مسّ الطيب)، والتطويس (التزيّن على الخدين والشفتين)، والتعريس (التحبّب برقة الصوت)، والتخضيب (وضع الحناء فى اليدين والقدمين)، والصبغ، والحلى، والكساء المزركش، وكل ذلك يكفى لجذب الرجل الذى يبدى كل الاهتمام بحفظها وحراستها، وخوف العار من خيانتها والجناية عليها، وكل ذلك يكلف الرجل المؤنّة^(١) العظيمة والمشقة الشديدة، وهو بذلك راضٍ، وهذا كله ناتج عن الرغبة التى طُبِعَ عليها الرجل، لأنه هو الذى يطلبها دائماً، لذلك حرص الإسلام على تهذيب هذه الرغبة حتى يكون المجتمع نظيفاً متعاوناً، يصعد إلى العُلا بعمل أبنائه وجدّهم واجتهادهم، ولا يظل الرجل يفكر طول يومه فى الرغبة الجنسية التى قد لا تكفيها ولا تكسر وحدتها المرأة الواحدة لِعِلَّةٍ من العلل، أو لسبب من الأسباب، سواء منها ما ظَهَرَ - كالمرض أو عدم الإنجاب - وما خفى - كالمانع الشرعى والعدر الشهري - وهو عندئذ يحتاج إلى زوجة ثانية، وسوف يكون مراعيّاً الشروط التى شرطها العباد، وهو أعلم بهم، فإن ذلك أنفع لنفسه وأُمَّته.

التباعد وتقوية الروابط

إن تعدد الزوجات قد يكون وراءه منافع اجتماعية، كأن تتعرض البلاد لموجة من الأمراض، أو يكون هناك حرب، والرجال هم الذين يتقدمون الصفوف ويخوضون المعارك ويتعرضون للموت، ويترتب على ذلك أن يقلّ عدد الرجال ويكثر عدد النساء، وهن بحاجة إلى ما يتعايشن به ومن يسعى عليهن ويذود عنهن

(١) المؤنّة: القوت والمثونة.

ويحمى الدار والعرض، فيسمح للرجل أن يعول أكثر من زوجة، لأنه إذا لم يتم ذلك فإن النهاية معروفة، حيث ينقلب المجتمع إلى فوضى أخلاقية ووباء وبلاء.

وقد يكون الرجل كثيرَ الأسفار، ويضطره عمله إلى الإقامة في البلد الآخر مدة طويلة، وهو أدري بنفسه، فإن كان لديه قدرة على التعدد فلا مانع، حتى لا يتعرض لشيء لا يتفق مع القيم والدين.

وقد يكون التعدد من ناحية صلة الرحم، لأن قريبةً له مات زوجها أو طُلقت وليس لها عائل إلا هو، وبحكم القرابة ستردد عليها إن كان لها بيت، أو يأخذها لتقيم معه، لأنه القريب الوحيد لها، هنا يتطلب الأمر أن يعقد عليها ويتردد عليها مكرماً، حتى لا تلوك الألسنة سيرتها، وتعيش هي مع أهل البيت مُعززةً مكرّمةً، وذلك رعاية لظروفها وبحكم صلة القرابة.

وقد يكون من أسباب التعدد ربط الصلات بعائلات أو شخصيات يحتاج إليهم في حياته، وهذا من باب تقوية العلاقات وتدعيم روابط التعاون والتآزر بين الناس للقضاء على خلافات أو منازعات بسبب حروب أو مشاحنات، ولتقوية الصلة تتم المصاهرة بعد المصالحة من أجل الوفاق وفضّ المنازعات.

إن قاعدة اليسر في الأمور ورفع الحرج لهي من القواعد الأساسية لبناء الإسلام، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(١)، وقال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾^(٢).

ولا يصح أن يُبنى على هذه القاعدة تحريمٌ أمرٍ تُلجئ إليه الضرورة أو تدعو إليه المصلحة العامة أو الخاصة، وهو ما يشق امتصاله دفعة واحدة، لا سيما على من اعتادوا المبالغة فيه، كتعدد الزوجات، كذلك لا يصح السكوت عنه وترك الناس وشأنهم فيه على ما فيه من المفساد، فلم يبقَ إلا أن يقلل العدد، ويُقَيّد بقيد ثقيل، وهو اشتراط انتفاء الخوف من عدم العدل بين الزوجات، وهو شرط يعز

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

(٢) سورة المائدة، الآية ٦.

تحققه، وَمَنْ فَقَّهَهُ واختبر حال الذين يتزوجون بأكثر من واحدة يتجلى له أن أكثرهم لم يلتزم الشرط، ومن لم يتلزمه فزواجه غير إسلامي.

وجملة القول في هذه المسألة أن القرآن أتى فيها بالكمال الذي لا بد أن يعترف به جماهير الأوربيين ولو بعد حين، يعترف به بعض فضلائهم وفضلياتهم الآن، وأمّا المسلمون فلم يلتزموا هدايته، فصاروا حُجَّةً على دينهم، ونحن أحوج إلى الرَّدِّ عليهم والعناية بإرجاعهم إلى الحقِّ مِنَّا إلى إقناع غير المسلمين بفضل الإسلام، مع بقاء أهله على هذه المخازي والآثام، إذ لو رجعوا إليه لما كان لأحد أن يعترض عليه.

أقوال في تعدد الزوجات

يقول الشيخ محمد رشيد رضا في كتابه «نداء للجنس اللطيف» ما نصه: «... أمّا ما أشرنا إليه من اقتراح بعض كاتبات الإفرنج من تعدد الزوجات فهو ما أودعناه مقالة عنوانها «النساء والرجال» نُشرت في (ص ٨١، م ٤) من المنار، وهاك المقصود منها: لما تنبّه أهل أوربا إلى إصلاح شئونهم الاجتماعية وترقية معيشتهم المدنية اعتنوا بتربية النساء وتعليمهن، فكان لذلك أثر عظيم في ترقيتهم وتقدمهم، ولكن المرأة لا تبلغ كمالها إلا بالتربية الإسلامية، وأعنى بالإسلامية ما جاء به الإسلام لا ما عليه المسلمون اليوم ولا قبل اليوم بقرون، فقد قلت آنفاً: إنهم ما رعوا تعاليم دينهم حق رعاياتها، ولهذا وجدت مع التربية الأوربية للنساء جرائم الفساد، ونمت هذه الجرائم فتولدت منها الأمراض الاجتماعية والأمراض المدنية، وقد ظهرت آثارها بشدة في الدولة السابقة إليها، وهي فرنسا، فضعف نسلها، وقلّت مواليدها قلةً تهددها بالانقراض، والذنب في ذلك على الرجال. حذّر من مغبة هذه الأمراض العقلاء، وحذّر من عواقبها الكُتّاب الأذكياء، وصرّح من يعرف شيئاً من الديانة الإسلامية بتمنى الرجوع إلى تعاليمها المرضية، وفضائلها الحقيقية، وصرّحوا بأن الرجل هو الذي أضلّ المرأة وأفسد تربيتها، وأن بعض فضليات نساء الإفرنج صرّحنَ بتمنى تعدد الزوجات للرجل الواحد، ليكون لكل امرأة قيّم وكفيل من الرجال» أ.هـ.

أرأيت كيف اهتم الإسلام بهذا الموضوع؟ وكيف وضع الضمانات حين أباح التعدد الذى قصد به صَوْن المرأة وصيانة الرجل؛ إذن ليس من المعقول أن نغلق أبواب الحل، وأن نوصد نوافذ الطُّهر أمام المرأة ونضع القيد فى يديها ورجليها ثم نلوم عليها لأنها لا تتحرك، فيكون مثلها كمن قيل فيه:

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتَوْفًا وَقَالَ لَهُ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالمَاءِ

إن الإسلام وضع القواعد للمرأة كي تعيش حرية الطهر والشرف المصان، ويبعدها ويبعد عنها حرية الانطلاق البهيمى الذى يترتب عليه جرح شرفها وإهدار كرامتها... إن الإسلام ينشد لها حرية الإنسان فى أكرم معانى الإنسانية، لا حرية الحيوان فى أحط غرائزه. إن انحراف الأخلاق لا تصلح معه عدالة حُكم أو نزاهة تقدير، فالأخلاق المنحرفة كثيراً ما تتحايل على الأحكام وتتستر وراء القوانين. إن المدار على الأخلاق التى تجعل الإنسان يزن الأمور بميزان العدل، ويتأملها بعين الصدق، ويتقبل ما يتقبل فى حدود «الكرامة والاعتدال».

هل يُجدى إذن أن نحسم الأمر بالتحريم بعد ما سُقناه من أدلة واضحة؟ ليس تحريم التعدد مع قيام دوافعه وضروراته إلاَّ حُلَّة فى صورة منكرة، وفاحشة مستترة لكى تصبح المرأة وتمسى وهى ذليلة مُهانة، تتقلب فى العبودية وتعيش فى القيود، لذلك فنحن نطالب بالتربية - تربية البنين - على تعشق الفضيلة وحُسن مراقبة الله عزَّ وجلَّ، وغرس القيم الأخلاقية فى نفوسهم.

إن مع كل ما يثار حول التعدد ليس مشكلة، لأن حالات التعدد عندنا من الضلالة بحيث لا تذكر أبداً بجانب البوار أو طالبات الزواج. إن علينا أن نبحث عن حَلٍّ لنهْيِّ الفرصة للمحجمين عن الزواج لكى يتزوجوا ليصونوا فتيات اليوم وأمهات المستقبل، لأن الأسرة تعنى طهارة المرأة وصَوْن شرفها. والإسلام قد أعطى المرأة حق القبول أو الرفض فى الزواج، ولا يمكن لأى رجل أن يجبر فتاة على الزواج من شخص لا ترغبه أو أن تكون شريكة لامرأة أخرى، بل الرضا والقبول هما الأساس الأصيل للزواج السعيد.

وشهد شاهد منهن

نشرت جريدة الأهرام^(١) تحت عنوان «مزاولة المرأة لأعمال الرجل خطأً، وتعدد الزوجات تكريماً لها ولأولادها» للكاتبة اليابانية «مريم يونس»، حول التشويه الغربى لموقف الإسلام من المرأة، كتبت تقول: «إن الغرب يثير نقطة إباحة زواج الرجل من أربع نساء... ونقول: إن الرجل لا يفعل ذلك مرة واحدة، ولكن على التوالي، ووجود المرأة مع زوجها بعد زواجه من امرأة أخرى أكرم لها ولأولادها، بالإضافة إلى أن تعدد الزوجات مشروع بالعدل كما أوضح القرآن الكريم». وأضافت: «إن القرآن ذكر ذلك العدد منذ ١٤٠٠ سنة، ولم يزد هذا العدد وإنما هو ثابت. وتعدد الزوجات أكرم للمرأة من وجود عشيقات للرجل، فقد كان لأحد النبلاء فى اليابان ١٨ ثمانى عشرة امرأة عشيقة، بخلاف زوجته». وتتساءل مرة أخرى: «أليس الزواجُ المعترف به يُعَدُّ تكريماً للمرأة وصيانة لها؟ نعم إنه ليس إهانة لها، وإنما إهانتها والإساءة إليها أن تكون عشيقة بلا بيت ولا أسرة ولا أولاد. إلا يُعَدُّ هذا العمل التشريعى المُقَنَّ من حسنات الإسلام؟» أ. هـ.

هذا رأى أنثى، وهى بنات جنسها أعرف، ومع ذلك هذا كلامها قررته ليكون فيه الرد على كل متشدد لا يفهم الإسلام ولا يعرف الحقيقة التى دعا إليها، فهل آن الأوان أن نعرف الحقيقة، ونعلن بأمانة بأن الذى خَلَقَ الخلق أعرف بما يُصلح شأنهم ويحقق السعادة لهم والسلام لأمتهم والأمن لمجتمعهم؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٢)؟ أ. هـ.

ونشرت الكاتبة الشهيرة «مس إترود» مقالة مفيدة فى جريدة (الإسترن ميل)^(٣) نقتطف منها ما يلى:

«لأن يشتغل بناتنا فى البيوت خوادم وكالخوادم خَيْرٌ وأخفُّ بلاءً من اشتغالهن فى المعامل، حيث تصبح البنت ملوثة بأدران تذهب برونق حياتها إلى الأبد. ألا

(١) الصادرة بتاريخ ٦ فبراير ٩٧.

(٢) سورة الملك.

(٣) فى عددها الصادر فى العاشر من مايو سنة ١٩٠١ م.

ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة والعفاف والطهارة. فالخادمة والرقيق: يتنعمان بأرغد عيش، ويُعاملان كما يُعامل أولاد البيت، ولا تُمسُّ الأعراض بسوء... نعم إنه لعارٌ على بلاد الإنكليز أن تجعل بناتها مثلاً للذائل بكثرة مخالطة الرجال، فما بالناس لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل على ما يوافق فطرتها الطبيعية، من القيام في البيت وترك أعمال الرجال للرجال سلامةً لشرفها؟».

وقالت الكاتبة الشهيرة «اللادى كوك» بجريدة (ألايكو) ما ترجمته: «إن الاختلاط يألفه الرجال، ولهذا طمعت المرأة بما يخالف فطرتها، وعلى قدر كثرة الاختلاط تكون كثرة أولاد الزنى، وهنا البلاء العظيم على المرأة، فالرجل الذى علقته منه يتركها وشأنها، تتقلب على مضجع الفاقة والعناء، وتذوق مرارة الذل والمهانة والاضطهاد، بل الموت أيضاً، أمّا الفاقة فلأن الحمل وثقله والوحم ودواره من موانع الكسب الذى تحصل به على قوتها، وأمّا العناء فهو أن تصبح شريرةً حائرة، لا تدرى ماذا تصنع بنفسها؟ وأمّا الذل والعار فأى عار بعد، وأمّا الموت فكثيراً ما تبخع^(١) المرأة نفسها بالانتحار وغيره، هذا الرجل لا يلمّ به شيء من ذلك، وفوق هذا كله تكون المرأة هى المسئولة وعليها التبعة، مع أن عوامل الاختلاط كانت من الرجل».

وتستأنف كلامها قائلة: «أما أن لنا أن نبخث عمّا يخفف هذه الآلام؟ أو عمّا يزيل هذه المصائب العائدة بالعار على المدنية الغربية؟ أمّا أن لنا أن نتخذ طُرُقاً تمنع قتل الآلاف من الأطفال الذين لا ذنب لهم، بل الذنب على الرجل الذى أغرى المرأة المجبولة^(٢) على رِقَّة القلب المقتضى تصديق ما يوسوس به الرجل من الوعود، ويؤمنى به من الأمانى، حتى إذا قَضَى منها وطراً تركها وشأنها تقاسى العذاب الأليم».

«يا أيها الوالدان لا يغرثكما بعض دُرَيْهَمات تكسبها بناتكما باشتغالهن فى المعامل ونحوها ومصيرهن إلى ما ذكرنا... عَلِّمُوهُنَّ الابتعاد عن الرجال،

(١) تبخع: تهلك.

(٢) المجبولة: المخلوقة والمفطورة.

أَخْبِرُوهُنَّ بِعَاقِبَةِ الْكَيْدِ الْكَامِنِ لِهِنَّ بِالْمَرْصَادِ . لَقَدْ دَلَّنَا الْإِحْصَاءُ عَلَى أَنَّ الْبَلَاءَ النَّاتِجَ مِنْ حَمْلِ الزَّوْنِيِّ يَعْظُمُ وَيَتَفَاقِمُ حَيْثُ يَكْثُرُ اخْتِلَاطُ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ . . . أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ أَكْثَرَ أُمَّهَاتِ أَوْلَادِ الزَّوْنِيِّ مِنَ الْمَشْتَغَلَاتِ فِي الْمَعَامِلِ ، وَالْخَادِمَاتِ فِي الْبُيُوتِ ، وَكَثِيرٍ مِنَ السِّدَاتِ الْمَعْرِضَاتِ لِلْأَنْظَارِ؟ وَلَوْلَا الْأَطْبَاءُ الَّذِينَ يَعْطُونَ الْأَدْوِيَةَ لِلْإِسْقَاطِ لِرَأْيِنَا أَوْضَعُ مَا نَرَى الْآنَ . لَقَدْ أَدَّتْ بِنَا هَذِهِ الْحَالُ إِلَى حَدٍّ مِنَ الدَّنَاءَةِ لَمْ يَكُنْ تَصَوُّرُهَا فِي الْإِمْكَانِ ، حَتَّى أَصْبَحَ رِجَالٌ مِقَاطِعَاتٍ مِنْ بِلَادِنَا لَا يَقْبَلْنَ الْبِنْتَ زَوْجَةً مَا لَمْ تَكُنْ مَجْرُبَةً! أَيْ عِنْدَهَا أَوْلَادٌ مِنَ الزَّوْنِيِّ يَنْتَفِعُ بِشِغْلِهِمْ!! وَهَذِهِ غَايَةُ الْهَبُوطِ بِالْمَدْنِيَّةِ . . . فَكَمْ قَاسَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ مِنْ مَرَارَةٍ هَذِهِ الْحَيَاةَ حَتَّى قَدَّرَتْ عَلَى كِفَالَتِهِمْ ، وَالَّذِي عُلِقَتْ مِنْهُ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَوْلَادِ الْأَطْفَالِ وَلَا يَتَعَهَّدُهُمْ بِشَيْءٍ . وَيَلَاهُ مِنْ هَذِهِ الْحَالَةِ التَّعَسَةُ! تُرَى مِنْ كَانَ مَعِينًا لَهَا فِي الْوَحْمِ وَدَوَارِهِ ، وَالْحَمْلِ وَأَثْقَالِهِ ، وَالْوَضْعِ وَأَلَامِهِ ، وَالْفِصَالِ وَمَرَارَتِهِ؟! .

ذَلِكَ مَا قُلْنَا فِي وَجْهِ الْحَاجَةِ تَارَةً ، وَالضَّرُورَةِ إِلَى تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ تَارَةً أُخْرَى ، وَيُزَادُ عَلَيْهِ مَا عَلِمَ مِنْهُ ضِمْنًا مِنْ كَثْرَةِ النَّسْلِ الْمَطْلُوبِ شَرْعًا وَطَبْعًا ، فَإِذَا كَانَ مِنْهُ التَّعَدُّدُ - وَلَا سِيَّمَا فِي أَعْقَابِ الْحُرُوبِ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ - يَفْضَى إِلَى كَثْرَةِ الزَّوْنِيِّ ، وَهُوَ مَا يَقْلُّ النَّسْلُ ، كَانَ مَا يَلِيقُ بِالشَّرِيعَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْمُرْغَبَةِ فِي كَثْرَةِ النَّسْلِ وَالْمَشْدُودَةِ فِي مَنَعِ الزَّوْنِيِّ أَنْ تَبِيحَ «التَّعَدُّدِ» عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ لِأَجْلِ ذَلِكَ ، مَعَ التَّشْدِيدِ فِي مَنَعِ مُضْرَّاتِهِ . وَقَدْ صرَّحَ بَعْضُ عُلَمَاءِ أَوْرِبَا بِأَنَّ تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ مِنْ جَمَلَةِ أَسْبَابِ انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ فِي إِفْرِيقِيَا وَغَيْرِهَا ، وَكَثْرَةُ الْمُسْلِمِينَ . وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ ضَرَرٍ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ فَهُوَ لَا يَبْلُغُ ضَرَرَ قَلَّةِ النَّسْلِ الَّذِي مُنِيتَ بِهِ فَرَنْسَا بِانْتِشَارِ الزَّوْنِيِّ وَقَلَّةِ الزَّوْجِ ، وَسَتَّبَعَهَا إِنْكَتَرًا وَغَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي عَلَى شَاكِلَتِهَا فِي التَّسَاهُلِ فِي الْفَسْقِ .

الإسلام يدعو للفضيلة

إذا رأيت الرجل يَغشى مواطن السوء، فَأَشْفِقْ على زوجته أن يُصيبها بعض ما يلمّ به هارج بيتها، لأنه ما يقول القائل: «دَقَّةُ بدقة ولو زدنا لزدنا السَّقَا»، ذلك لأن سيرة الرجل فى نفسه هى الجزء الأكبر من عرضه، ومن فَرَطَ فى النصيب الأوفر أوشك أن يتنازل عن الأقل، ومن لا أمانة له فى نفسه لا أمانة به فيما سواه، وإن تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ ما يقول الرجل: إن الله اصطفاه وفضَّله على المرأة، فالرجال قَوَّامُونَ على النساء، وله من رياضة النفس وسيطرة الهوى ما يجعله يفعل ما يشاء! وهو بذلك يخطئ الرأى، لأنه يجرى وراء الهوى الكذوب، وأصبح لا عاصمَ له من عقل أو دين، فإذا نال مأربه وحقق ما يريد طاش لُبُّه، وانخلع قلبه، ولبس قناع العار على وجهه، فأساء إلى نفسه وأهله، حيث تنكَّب الطريق السوى، فَسَرَتْ جرائم الانحلال فى جسده، ووصلت إلى أسرته، ووهنت إرادته، فعمَّت النكبة، وتوالت المصائب على رأسه، لأنه كما يقول القائل: «بَشْرُ الزَّانِي بالخراب ولو بَعْدَ حين». وكما يقول القائل: «مَنْ يَزْنِ يَزْنِ به، ولو بجدار بيته»، إن كنت يا هذا لبيبا فافهم.

إنَّ الرجل الذى يتعقب النساء فى مسارهن، ويجعل همَّه ابتغاء المهينات منهن، رَجُلٌ ساقط الهِمَّة، مضمور العرض، لا نصيبَ له من المروءة، جبان الشخصية، لا مروءة له، ولا حياء عنده، نجس الإزار.

إن المسلم تأمره تعاليم دينه بالعفة، وغيضَ الطَّرْفِ عن المحرّمات، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَ لَهُمْ﴾ (١).

(١) سورة النور، الآية ٣٠.

ويقول الرجل الشريف:

وَأَغْضُ طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاهَا

ويقول الآخر:

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجَتْ حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي الْخِذْرُ
مَا ضَرَّ جَارِي إِذْ يُجَاوِرُنِي أَنْ لَا يَكُونَ لِبَيْتِهِ سِتْرُ

ومن أمثال العرب: «كل شيء مَهَةٌ ما خلا النساء وذكُرهن» أي: إن كل شيء يسيرٌ يحتمله الحرُّ، إلا أن تُذكر النساء وتُحكى القصص عنهن، وتذاع أخبارهن.

إزاء كل ذلك نقول للرجل - كما نقول للمرأة - حَصِّنْ نَفْسَكَ بِالْعَقَّةِ، وَزَيِّنْ نَفْسَكَ بِالطَّهَارَةِ، وَتَحَلَّ بِالخُلُقِ الْكَرِيمِ، وَعَلَيْكَ إِنْ وَجَدْتَ عِنْدَكَ غَرِيْزَةَ تَصْرِيخٍ فِي جِسْمِكَ فَذَكِّرْ نَفْسَكَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ﴾ (١) إِلَّا عَلَيَّ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٢) فَمَنْ أَبْغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣) (١).

وعلاجك يا أخي حَدِّدْهُ رَسُوْلُ اللَّهِ ﷺ فيما رواه البخاري عن عبد الرحمن بن يزيد، قال: دخلتُ مع علقمة والأسود على عبد الله، فقال عبد الله: «كنا مع النبي ﷺ شباباً، لا نجد شيئاً، فقال لنا: «يا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مِنْ اسْتِطَاعِ الْبَاءَةِ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضَى لِلْبَصْرِ، وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ» (٢). إن الإنسان قد تفوق على غيره في تحرُّره من الغرائز إلى حدِّ كبير، ذلك لأن الرغبة الجنسية عند الإنسان تُبنى على أساس عضوي مرتبط بالهرمون الذكري الذي يزيد هذه الرغبة عند الرجال وعند النساء على السواء، وإن كانت النساء تحتاج إلى مقدار العُشْر مما يحتاج إليه الرجال من الهرمون الذكري لهذا الغرض، ويرتبط ذلك بالنشاط العصبي في المخ، هنا يأتي الصوم لمن لا يقدر على الزواج ليكون وقاية للفرد من الوقوع في الجريمة الخُلُقِيَّةِ، علماً بأن الصوم لا يُضعف الرغبة الجنسية من خلال إضعاف الجسد عموماً بالتجويع والعطش، فالصوم وِجَاءٌ

(١) سورة المؤمنون.

(٢) المراد بالوجاء: دَفْعُ الشَّهْوَةِ.

حتى ولو تسخر الصائم سحوراً طيباً بحيث لا يتتقص من غذائه شيئاً، والصوم وجاء حتى ولو أضر الصائم متعجلاً على أشهى الطعام وأفضله من حيث القيمة الغذائية.

إن الصوم لا يقتل الرغبة الجنسية في الإنسان، وقد كان الجماع محرماً في شهر الصوم، حتى في الليل، فوقع كثير من الصحابة في المخالفة لعدم قدرتهم على منع أنفسهم، فقال الله لهم: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(١). إن الوجداء الذي يحدثه الصوم في الشخص هو يقظة الضمير، وصحوة الإرادة، وإرهاف الحس، ويكون ذلك سبباً لطرد الوسوسة الشيطانية من ذهن الفرد، والصائم أقدر على أن يركز في الطاعة لله واللجوء إليه، فهو يغض بصره، وينمى معارفه بقراءة القرآن والذكر لله، وبهذا يعيش الشخص على مائدة الطهر والعفة، مع ضبط النفس وإلزامها الأدب مع الله. إن غير الصائم يلعب الشيطان به فيزيّن له المرأة ليتجه إليها يتابع خطاها، وضميره لم يستيقظ، فيشغل بالنظر، فتتحرك غرائزه، وتثار عواطفه، وربما أدى ذلك إلى ما لا تُحمد عقباه. ففي الحديث الذي رواه ابن ماجه: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيْبُهُ مِنَ الزَّيْنَى، فَهُوَ مُدْرِكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ: فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظْرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الْاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْحُطْيُ، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ أَوْ يُكْذِبُهُ»^(٢). إن الصائم تكون نفسه اللوامة نشطة، فيحيا معها في سعادة وهناء، لشعوره بالأمن النفسى والاستقرار العاطفى، وهذا هو العلاج. ومنه أيضاً الانصراف إلى ممارسة الرياضة البدنية بأى نشاط، وكذلك القراءة فى الكتب العامة ووسائل الإعلام المختلفة، بحيث يشاهد فى التلفزيون نشرات الأخبار والتحليلات السياسية أو الاقتصادية، أو متابعة البرامج الدينية أو الرياضية، أو حضور الاجتماعات والندوات فى الأندية، أو المساهمة بالعمل

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٧.

(٢) «الترغيب والترهيب» للمنذرى، ج ٣، ص ٢٧.

التطوعى فى الجمعيات، إلى غير ذلك مما يقطع به الشخص الوقت فى عمل مفيد، لأن الإنسان إن لم يشغله الحق شغله الباطل.

هناك علاج آخر حدده ربنا جلّ جلاله وعظم سلطانه، إنه غضّ البصر، لأن الرجل لو نظر إلى امرأة جميلة بالنظر إدراكاً، فإذا استقر إعجابه لها فإن ذلك وجدان، فإذا استشعر فى وجدانه ذلك فعَضَّ بصره واستعاذ بالله وطلب منه - سبحانه - أن يُعينه على مجاهدة النفس وغلبة الشيطان فإنه سيتحقق له ذلك. إنه عندما يغضّ بصره وهو يستشعر أنه لا طاقة به إلاّ بعون من الله الذى أمره بذلك، وقد فعل امتثالاً لأمره، فالحق سبحانه يُعينه على اجتياز هذه اللحظة، ورحمة الله تحيط به، لذلك قال رسول الله ﷺ لعلّ: «يا على، لا تُتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة»^(١). وفى الحديث القدسى عن رب العزة: «النظرة سَهْمٌ من سهام إبليس، مَنْ تركها من مخافتى إيماناً يجد حلاوته فى قلبه»^(٢).

إنّ المؤمن وقّف عند حدود الله، ورجّاع إلى الحق، والرجوع إلى الحق فضيلة، والإنسان يصرف طاقته إلى الخير، إمّا عملاً أو تفكيراً، وهو يؤمن بأنه ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣). ودائماً يستعيد بالله الذى يعتمد عليه، ويطلب منه الهداية: ﴿وَمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٤).

ولهذا حدّد الله سبحانه وتعالى علاجاً ناجحاً لغلق باب الشر من أوله، وحتى لا يُصاب الإنسان بالتمزق النفسى والفكر المنحرف، فكانت القاعدة هى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾^(٥).

(١) أخرجه أبو داود، وانظر: «الترغيب والترهيب»، ج ٣، ص ٢٦، طبعة وزارة الأوقاف.

(٢) أخرجه الحاكم والطبرانى، وانظر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥.

(٣) سورة النساء.

(٤) سورة فصلت.

(٥) سورة النور.

إن معظم النار من مستصغر الشرر، ولعلنا ندرك أن النظرة شيء بسيط جداً ويسير، لكنها تُشعل نار القلوب، وتؤجج العاطفة المسعورة، وتدفع بالغريزة أن تفصح عن نفسها، لهذا يقول القائل: «نظرة، فابتسامة، فموعد، فلقاء». فقد بدأ الأمر بنظرة وانتهى باللقاء... ألم أقل: إن معظم النار من مستصغر الشرر؟

إننا نقدم هذه النصيحة لشبابنا ونقول لكل شاب: اصرف نظرك عندما ترى أى فتاة، ولا تجعلها تحتل منك بؤرة التفكير، واصرف فكرك بعد نظرك، وفكر في أى عمل أو أى شيء بعيداً عن الجنس الآخر... إن من استعان بالله أعانه، ومن توكل عليه كفاه، ومن يؤمن بالله يهد قلبه... لو أن الشخص فكر في يوم القيامة وتصور جهنم بما فيها والمصير الذى يتول إليه كل خائن أفك لما فكر الإنسان أبداً فى أى أنثى إلا فى حلال، أمّا الحرام فهيهات أن يقربه، فالممات دونه.

الزواج عصمة وفضيلة

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ (١).

إن الزواج قيد من قيود الاجتماع أوثقه الله بين الرجال والنساء لتتكسر به حدة الشهوة الطائشة، ومن ثمَّ فهو عصمة وفضيلة للإنسان، فإذا تعمَّ في العَلَن، وبيَّن الشهود وحضور الولي، ورضا الزوجة سمَّت الرُّوح، وصَفَتِ النفس، وانتصرت الفضيلة، وسار الناس إلى الكمال في نهج واضح، لذلك تجد المجتمع الفاضل هو الذي يدفع بأبنائه إلى الزواج وتأسيس الأسرة، تجد هذا المجتمع قويًا متماسكًا، تنشأ فيه المرأة ومعها نصيبها من عِزَّة الجانب، وحرية الرأي، فينزلها الرجل أسمى المواطن من نفسه ورأيه ومشورتهم، وبالتالي فهي تتمتع بالحسِّ الدقيق، ورسوخ قدمها في المَكْرُمات، وعلمها مرفوع ينبئ عن علوِّ قدرها، وعقَّة نفسها، وطهارة جسدها، وهي لديها قوة في حياء، وريَّة في مُضَاء، وذكاء في صفاء، وذمة ووفاء، وحب على الأزواج ورعاية للأبناء، لأن الله سبحانه ما أسبغ على امرئ نعمة أعظم أثراً ولا أسنى خطراً ولا أجمع لشتات النعم ولا أجلب لنعيم الحياة من المرأة الصالحة، فهي عند زوجها عِدَّة في الشدة وزينة في الرخاء، وهي منار أمل الرجل، فهو يستمد منها عزيمته، وإليها يعود للمشاورة، تلك هي المرأة الصالحة التي يفرح الرجل إليها إذا ألمَّ به خَطْبٌ، وقبل ذلك يسأل الله أن يوفِّقه للوصول إليها، وقد عَلَّمَنَا رَبُّنَا ذَلِكَ، حيث قال على لسان الصالحين: ﴿رَبِّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢).

(١) سورة الروم.

(٢) سورة البقرة.

فَحَسَنَةُ الدُّنْيَا هِيَ الزَّوْجَةُ الصَّالِحَةُ، الَّتِي إِذَا أَمَرْتَهَا أَطَاعَتْكَ، وَإِنْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا سَرَّتْكَ، وَإِنْ أَقْسَمْتَ عَلَيْهَا أَبْرَتَكَ، وَإِنْ غَبْتَ عَنْهَا حَفِظَتْكَ فِي نَفْسِكَ وَمَالِكَ. لَذَلِكَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ الْمُسْلِمِ بِأَنْ يَحْسِنَ الْإِخْتِيَارَ لَزَوْجَةِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَحَثَّهُ أَنْ يَخْتَارَهَا مِنَ الصَّالِحَاتِ الْمَتَدَيِّنَاتِ، وَحَدَّرَهُ مِنْ «خَضِرَاءِ الدِّمَنِ» وَهِيَ الْمَرْأَةُ الْحَسَنَةُ فِي الْمَنْبِتِ السَّوِّءِ.

إِنَّ الْفَتَاةَ الَّتِي تَنْشَأُ مِنْ أُمِّ كَرِيمَةٍ مَتَدَيِّنَةٍ وَأَبِي جَوَادٍ كَرِيمٍ مَتَدَيِّنٍ، تُزَوِّدُهَا أُمَّهَا بِزَادٍ مِنَ الْأَدَبِ وَالْفَضَائِلِ، وَالْقِيَمِ الدِّينِيَّةِ الرَّفِيعَةِ، وَيَحَلِّهَا الْأَبُ مَوْطِنَ الرَّعَايَةِ وَالْإِكْرَامِ، وَمِنْ ثَمَّ تَصْبِحُ زَهْرَةً طَيِّبَةً الْغُرْسِ، كَرِيمَةً الْمَنْبِتِ وَالْمُجْتَنِّي... مِثْلَ هَذِهِ الْفَتَاةِ تَكُونُ خَيْرَ سِنْدٍ لَزَوْجِهَا، وَتَصْبِرُ مَعَهُ عَلَى نَبْوَةِ^(١) الْخَلْقِ وَرَيْبِ الزَّمَانِ... كَمَا أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الزَّوْجَةِ لَا يَتَّجِعُ زَوْجِهَا إِلَى اتِّخَاذِ زَوْجَةٍ أُخْرَى مَعَهَا، لِأَنَّهُ مَا كَانَ لَهُ أَنْ يَدْعَ زَوْجَةً عَفِيفَةً، رَاعِيَةً لِبَيْتِهَا، أَمِينَةً عَلَى أَسْرَارِ زَوْجِهَا، مَرِيَّةً لِأَوْلَادِهَا، لِأَنَّهَا كَمَا فَعَلَتْ أُسْرَتُهَا مَعَهَا - مِنْ حُسْنِ تَرْبِيَّتِهَا وَإِمْدَادِهَا بِالْأَدَبِ الرَّفِيعِ وَالْقِيَمِ النَّبِيلَةِ السَّامِيَّةِ - تَفْعَلُ هِيَ مَعَ زَوْجِهَا وَأَوْلَادِهَا.

يَقُولُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾^(٢).

إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يَنْشُدُ الْمَرْأَةَ الصَّالِحَةَ يَخْطُبُ فِيهَا شَرَفَ النَّسَبِ، وَسِنَاءَ الذُّكْرِ، وَأَصْلَ الْعَشِيرَةِ. وَهُوَ حِينَ يَطْلُبُهَا لَا يَبَالِي بِامْتِلَاءِ يَدَيْهَا أَوْ فَرَاغِهَا، فَالشَّرْفُ عِنْدَهُ هُوَ الْغَايَةُ الَّتِي يَسْعَى إِلَيْهَا، فَفَرَاغُ يَدَيْهَا تَمْلِؤُهُ الْقِنَاعَةُ، لِأَنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ، وَلِأَنَّ الثَّرَاءَ أَوْ الْمَوْهَلَ أَوْ الْعَمَلَ قَدْ يُحْدِثُ عِنْدَ الْفَتَاةِ نَوْعًا مِنَ الصِّلَفِ وَالْكَبْرِيَاءِ، وَهَذَا مَا لَا يَرْضَاهُ الرَّجُلُ، لِأَنَّهُ يَخْطُبُ فِي الْمَرْأَةِ سَعَةَ الْحِيلَةِ، وَمِضَاءَ الذِّكَاةِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ تَرَاثًا لِبَنِيهَا، فَإِنْ مَلَكَتْ كُلَّ ذَلِكَ كَانَ خَيْرًا عَظِيمًا.

(١) التَّبَوُّة: الْجَفْوَةُ.

(٢) سُورَةُ الْفِرْقَانِ.

اختيار المرأة للزوج

كما أن على المرأة أن تختار لنفسها زوجاً من بيتها، يتمتع بالاستقامة، وحُسن السمعة، وصفاء الخُلُق، والأمانة، وغير ذلك من الصفات النبيلة المُستَحَبَّة. ولنا في السيدة خديجة بنت خويلد قُدوة وأسوة حسنة في هذا المقام وهي من هي بين قومها شرفاً ونسباً ومالاً ومركزاً اجتماعياً، وتقدم لها أكابر القوم يخطبون وِدَّها ويطلبون يدها، فأبت، لكن عندما وُصِفَ لها محمد بن عبد الله، وهو من هو، خُلُقٌ عظيم، وأدب جم، وطهارة سيرة، وعلاوة على نضج عقله، وصفاء ذهنه، وحُسن تصرفه، مالت نفسها إليه، فأرسلت إليه مَنْ ذَكَرَتْ له خديجة، فخطبها لنفسه، وكانت أكرم زوجاته عليه - رغم فارق السن - وأبقاهنَّ أثراً عنده، وأسناهن ذِكْراً في حياته. إن شرف الهِمَّة وحُسن السمعة لا بد أن يتوافر بين الطرفين، ولقد قلنا بأن الغنى غنى النفس، فالشاعر يقول:

ليسَ الجَمالُ بأثوابٍ تُزَيِّنُنا إِنَّ الجَمالَ جَمالُ النَّفْسِ والخُلُقِ

ويقول الآخر:

صُنِ النَّفْسَ واحملها على ما يَزِينُها تَعِشْ سالماً والقَوْلُ فيكَ جَميلُ

إن الحق سبحانه عندما وجَّه الشخص ليتزوج نَبَهَهُ إلى حُسن الاختيار، وبيَّن له أن الزواج إن تمَّ في ظل الدين وَوَفَّقَ منهجه فإن الفقير سوف يُغنيه الله سبحانه وتعالى، وجاءت الآيات صريحة بذلك، يقول الله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيِّمَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١). أما الذين لا يجدون النفقة ويخافون أن يُضَيِّعُوا بنات الناس فالله يقول لهم: ﴿وَلَسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (٢). والأَيِّمُ هي من مات زوجها أو طُلِّقَتْ بسببٍ خارجٍ عن إرادتها، وليس هناك ما يعيها (٣).

(١) سورة النور.

(٢) سورة النور، الآية ٣٣.

(٣) ويقول ابن السكيت: الأَيِّمُ مَنْ لم يكن لها زوجٌ، بِكْرًا كانت أو ثَيِّبًا [المصباح المنير - مادة: أيم].

فساد وتفريط في حقوق المرأة

كان العرب حتى آخر العهد الأموي يخلف المطلقة زوجٌ بعد زوج فلا ينقص ذلك مَنْ قدرها، فهي تُخَطَّبُ لسناء شرفها، وأصالة أسرتها، وعلو بيتها، ونبيل خلالها، لكن الناس شغلوا بلذات الشباب، واستمرءوا مَرَعَى الجوارى فانصرف بعض الناس عن الأبيكار، وبالتالي عن الأراامل والمطلقات، لأنهن وَجَدْنَ المرتع الخصب بين الجوارى والخَدَم والساقطات وما شاكل ذلك، وهذا خطر كان يهدد المجتمع وينذر بالويل والتعاسة لأفراده، ومن يسير على هذا المنوال.

وانظر إلى المجاهرة بالغدر، والمجابهة بمكنون النفس، يقول القائل:
يا رَبِّ مثلك في النساء كثيرةٌ بيضاء قد مَتَّعَهَا بطلاقِ
لم تَدْرِ ما تحت الضلوع وغرَّها منى تجمُّل شيمتى وخلاقي
ويقول الآخر:

إذا لم تكن طُرُق الهوى لى ذليلة تنكَّبها وانحزتُ للجانبِ السَّهْلِ^(١)
وما لى أرضى منه بالجورِ فى الهوى ولى مثله إلفٌ وليس له مثلى^(٢)
ويقول الآخر:

اذهى قد قضيتُ منك قضائى وإذا شئتُ أن تبينى فينى

ثم أعقب ذلك كاسدٌ وتفريط في حقوق المرأة، فمن ذا الذى يضمن بالرخيص المبدول، أو يصون البغيض المملول؟ خاصة بعد أن طُرحت فى مطارح الإهمال، فلا هى تزوِّدت بعلم، ولا تجمَّلت بأدب، ولا نشأت على دين، وليس عندها خُلُق، لذلك قالوا عنها آن ذاك: إن الذى يعلم المرأة كمنت يصقل السيف ليقتل به. وقالوا: لا تَسْقِ السَّهْمَ سُمًّا فترميك به يوماً. وقالوا: إذا وُصفت المرأة بالعقل فهى غير بعيدة عن الجهل. وقالوا: لا تَدَّعِ المرأةَ تضرب صبيًّا، فهو أعقل منها.

ولقد فشا هذا فى المجتمع آن ذاك وأرسلوه فى نوادرهم، وأذاعوه فى أشعارهم، ثم تبع ذلك أنهم أباحوا زواج المتعة أو الزواج الموقوت.

(١) تنكَّبها: تركتها وعدلتُ عنها.

(٢) الجور: الظلم. والإلف: الحبيب.

زواج المتعة

إذا رفضت المرأة وهانت على نفسها فإن الرجل يجعلها ملهأة لنفسه، يقضى معها نزوته تحت أى مُسمّى، وكان من ذلك زواج المتعة، وهو عقد بين الرجل والمرأة، يقول الرجل للمرأة: أتمتع بك أو أستمتع بك فترة، فتجيبه المرأة بالقبول، ويتم ذلك دون شهود، ويسمى بالزواج الموقوت، أو المؤقت، وهذا الزواج سري، ومحدد بزمن معين. وقد كان هذا الأمر مباحاً فى أول الإسلام. فعن ابن عباس رضى الله عنه، قال: «إنما كانت المتعة فى أول الإسلام، كان الرجل يقدم لبلدة ليس له بها معرفة، فيتزوج المرأة يقدر ما يرى أنه مقيم، فتحفظ له متاعه، وتصلح شأنه، حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ (١) إِلَّا عَلَاجَ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (٢)، فكل فرج سواها حرام.

هذا، وقد حرّم النبي ﷺ هذا الزواج - زواج المتعة - فى حجة الوداع، فعن سيرة الجهنى، أنه كان مع النبي ﷺ، فقال: «يا أيها الناس، إني كنت قد أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرّم ذلك إلى يوم اليامة، فمن كان عنده منهن شيء فليُحلّ سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً» (٣).

واشتد عمر بن الخطاب فى ولايته على من يحل ذلك، واعتبره زنى، و﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (٤)، ولذلك فهو حرام، لأنه اتسم بالسرية، ولا شهود، ولا ولى. . . إن الزواج سكن للنفس ومودة بين الأهل، وإعلان للناس حفاظاً على شرف المرأة وكرامتها وسمعة أبيها، وصيانة لماء وج خالها وعمها، يقول الله تعالى: ﴿فَأَنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفَّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ (٥). ويقول سبحانه: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَأْعِدُونَهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (٦). ويقول سبحانه: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾

(١) تينى: تُفارقى.

(٢) سورة المؤمنون.

(٣) رواه أحمد ومسلم.

(٤) سورة النور، الآية ٣.

(٥) سورة النساء، الآية ٢٥.

فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴿١﴾ .

أرأيت يا أخى هذ التوجيه الإلهى للزواج الصحيح (المهر، الإعلان، الشهود)؟ إنَّ كُلَّ هذا دعامات أساسية فى الزواج لتحقيق السكن والموثقة، فإذا انتفى شىء من ذلك فالزواج باطل، وتكون نتيجته إنجاب أولاد عاقين يضربون الأب، وقد يقتلونه، ويهينون الأم، وقد يطرّدونا، لأن ما بُنى على باطل فهو باطل، وكل جسد نبت من سُحت أنتج فساداً.

قيل فى المرأة

إن سكرة النعيم وكثرة الأموال دفعت بالمرأة أن تسير خلف الرجل، تقذفها يده إلى الهاوية فتتردى فى أعماقها بدون رحمة، وهو يُموّه عليها، فإذا الضلال هدى، وإذا الشطط قُصد مبین، وأرّخى لها العنان، وإذا ضلّ راح يلتمس لنفسه المعاذير، لهذا راح يعزو ما تورطت فيه المرأة إلى سوء فطرتها، ولؤم غريزتها، وقبح دخيلتها، وأنها أشر الشرر، وأسوأ السوء، وزوّر لها أحاديث نسبها إلى رسول الله ﷺ، وبین لها أن المرأة هى قرار اللؤم ومنبت الشرر ونبعته. كما نسبوا إلى فلاسفة اليونان والهند تشبيههم المرأة بالحية الرقطاء، وقالوا: سلاح إبليس النساء. وهن حبائل الشيطان. ولا تُشاور النساء فإن رأيهن إلى أفن، وعزمهن إلى وهن. ونسبوا إلى الإمام على كرم الله وجهه أنه قال: «لا تطيعوا النساء على أى حال، ولا تأمنوهن على مال، ولا تذروهن يدبرن العيال، فإن تُركن وما يُردن أوردن الرجل المهالك، وأزلن الممالك. يتهافتن فى البهتان عند لذاتهن، ولا عقل لهن عند شهواتهن، ينسبن الخير ويحفظن الشر، يتهافتن فى البهتان ويتمادّين فى الطغيان، ويتصيّدن للشيطان».

وورد أيضاً: «النساء عىّ وعورة، فداووا العىّ بالسكوت، والعورة بالبيوت». ونسبوا إلى سقراط قوله - وقد رأى امرأة تحمل ناراً فقال: «نارٌ تحمل ناراً، والحامل شرٌّ من المحمول». ثم رددوا قول القائل:

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣٥.

تَمَتَّعَ بِهَا مَا سَاعَفْتِكَ وَلَا تَكُنْ جَزُوعاً إِذَا بَانَتْ فَسَوْفَ تَبِينُ^(١)
وَإِنْ هِيَ أَعْطَتْكَ اللَّيَانَ فَإِنَّهَا لَغَيْرِكَ مِنْ خُلَانِهَا سَتَلِينَ^(٢)
وَخُنُّهَا وَإِنْ كَانَتْ تَفِي لَكَ إِنَّهَا عَلَى مَدَدِ الْأَيَّامِ سَوْفَ تَخُونُ
وَإِنْ حَلَفْتَ لَا يَنْقُضُ النَّأْيُ عَهْدَهَا فَلَيْسَ لِمَخْضُوبِ الْبَنَانِ يَمِينُ

تلك فترة من التاريخ، قيل عن المرأة ما قيل، وسمعت المرأة هجر الكلام
ومرّه، حتى جاء أبو العلاء المعرّي، فاتهم المرأة في ذمتها وأمانتها، ودينها
وخلقها، ولم يدع لها لَمَحَةً من الخير، ولا حجب عنها لَفْحَةً من الشر، ثم أعقبت
هذا فترة أرخى الرّجل على المرأة الحُجب، وأسَدَلَ دونها الأستار، وأبعدها عن
العيون ومحا كل أثر ينبئ عنها أنو يشعر بوجودها، وراح يتأوّل لذلك ما يراه يحقق
الهدف من رؤية المرأة، فقيل: تُمنع عن كشف وجهها، وصوتها عورة، حتى في
قراءة القرآن، أو إذا رَدَّتْ على طارق بابها. ولا يجوز أن يُذكر اسم المرأة بين
الرجال، لأن اسمها عورة يُعاب ذكره، وتلمس وجوه الكتابة عنه، ولهذا قال
قائلهم:

صَلَاةُ اللَّهِ خَالِقْنَا حَنُوطٌ عَلَى الْوَجْهِ الْمَكْفَنِ بِالْجَمَالِ^(٣)
عَلَى الْمَدْفُونِ قَبْلَ الْمَوْتِ صَوْتًا وَبَعْدَ الْمَوْتِ فِي شَرَفِ الْخِلَالِ

لقد فرضوا النقاب عليها - حتى على البنات الصغيرات - وحكموا على أن
تظل فيه حتى تموت.

وحين عَلِمَ الخليفة المستنصر - وهو من خلفاء بني العباس - بولاية شجرة
الدر أمر مصر وأن الشعب رَضِيَ بحكمها واطمأن إلى حُسْنِ تدبيرها، كتب في أول
الأمر إلى أحد المماليك يقول:

«أَعْلِمُونَا إِنْ كَانَ مَا بَقِيَ عِنْدَكُمْ فِي مِصْرَ مِنَ الرِّجَالِ مَنْ لَا يَصْلِحُ لِلسُّلْطَنَةِ
فَنَحْنُ نَرْسِلُ لَكُمْ مِنْ يَصْلِحُ لَهَا... أَمَا سَمِعْتُمْ أَنَّ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

(١) سورة الطلاق، الآية ٢.

(٢) الجزوع: الذي لم يصبر على ما نزل به.

(٣) الخُلَان: جمع خليل، وهو الصديق المقرب.

«لا أَفْلَحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ؟» ثم ختم رسالته بإنكار شديد ووعيد وتهديد ثم قال:

النساء ناقصاتُ عقلٍ ودين ما رأينا لهنَّ رأياً سَيِّئاً
ولأجل الكمالِ لم يجعلِ اللهُ تعالى من النساءِ نبيّاً

الإغراء بالفساد

إن كل ما كان حول المرأة يدفع إلى الإثم ويغري بالفساد، فقد أصبحت هي ميداناً فسيحاً تغمره اللذات، وتدفعه المحرمات، فعن يمينها الرجال يستحدثون كل يوم أسلوباً من اللهو، ويستجدون ضروباً من الشهوات، ساروا خفافاً تدفعهم المآرب والأوطار وتخدوهم الكئوس والأوتار، وأصبح القوم وألسنة بعضهم يغرون الرجال بالحرائر، ويشككون في عفة العفيفات، بل إن بشار بن بُرد اتهم الحرة في صيانتها وعفتها، وأطمع الرجال فيها، وذلك حيث يقول:

لا يُؤيسنك منح مُخَدَّرَةٍ قول تغلظه وإن جَرَحَا
عُسر النساءِ إلى مُبَاسَرَةٍ والشئ يسهلُ بعدما جَمَحَا

ثم استتبعه أبو نواس حيث يقول:

كان الشباب مَطِيَّةَ الجَهْلِ ومُحَسِّنَ الضَّحِكَاتِ والهزلِ
والباعثي والناس قد رقدوا حتى أزورَ حليلةَ البعلِ

إذا قرأت هذا فاشفق على قلبك أن يذوب أسي، وابتعد عن نفسك أن تذهب حسرات، يا ويح هؤلاء الناس! أبلغ الفساد وريقة الدين أن امرأة تعتب على زوجها انشغاله بالخدم والإماء وانصرافه عنها، فيجيبها في غير خجل:

لا تذكُرى لوعة إثري ولا جزعا ولا تُقاسينَ بعدى الهَمِّ والجزعا
بل اثسى تجدى إن اثسيتِ أسيَ بمثلِ ما قد فُجعت اليوم قد فجعا
ما تصنعين بعينِ عنكِ قد طمحت إلى سواكِ وقلبِ عنكِ قد نزعا؟
إن قُلتِ قد كنتِ في خَفْضٍ وتكرمةٍ فقد صدقتِ ولكن ذاك قد نزعا
وأى شيء من الدنيا سمعت به إلا إذا صار في غاياته انقطعا

وَمَنْ يَطِيقُ خَلِيعاً عِنْدَ صَبْوَتِهِ أُمَّ مَنْ يَقُومُ لِمَسْتَوِرٍ إِذَا خَلَعَا.

فهذا الشاعر يصارح امرأته الحُرَّةَ بانصرافه عنها إلى غيرها من الخدم والجواري، ويأمرها بالصبر عَمَّا أصابها من جَفْوَةٍ وهجران وهوان، ثم يقول لها: إن المستور إذا خرج إلى الفجور سار طَلَّقَ العَنَانَ، ترده قوة ولا يُثنيه بيان.

وإن تعجب فعجب ما حدث في دولة القرامطة، وهم من أهل فارس، أرادوا أن يوهنوا العرب في دينهم بعد أن أوهنوهم في قوميتهم، وهم لم يهاجموا الإسلام طعناً وتجريحاً، بل أظهروا للمسلمين أنهم لا يعدلون عن الإسلام، لكنهم تأولوا كل حقيقة من حقائق الإسلام، وكانوا يَتَّصِلُونَ بالناس يُخاطبونهم على حسب هواهم، فلأهل السُّنَّةِ كلامٌ، والمُعْتَزِلَةَ كلامٌ، وللمتصوفة حديث غير العوام. وكانوا يبيحون للغواة كل المَلَذَّاتِ، وجعلوا المرأة مشاعاً، حتى أباحوا للرجل أن يتزوج بابنته أو أخته. ومن كلامهم: «العجب من الرجل يكون له أخت أو بنت حسناء وليست له زوجة في حُسْنِهَا فيحرمها على نفسه وينكحها من أجنبي، ولو عقل لَعَلِمَ أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبي»^(١). وهذا شَرٌّ وَخُبْثٌ ودهاء، والأمرُ منه أنهم أباحوا للمرأة أن تتزوج بالكثير من الرجال، أسوة بالرجل، فالرجل يتزوج بأربع أو أكثر بعد أن يُطلق الزائدة إذا أراد، والمرأة كذلك لها عندهم هذا الحق، وقد ذكر الطبري في تاريخه الكثير من هذا الفساد والفجور.

فالقرامطة كانوا يجذبون قلوب الفتيان والفتيات إليهن بما يُزينونه لهم من ضروب المَلَذَّاتِ ومُتَقَارِفَةِ المَائِمِ. ولعلنا نذكر سَطَوَاتِهِمْ على البيت الحرام وَمَنْ يَلُوذُونَ به، فقد أحرقوا أستار الكعبة، وكسروا الحجر الأسود، ونقلوه إلى بلادهم، ومَلَأُوا زمزم بأجسام القتلى، وذبحوا من الحُجَّاجِ من لا يحصيهم إلا الله، فليس بعد الكفر ذنب.

أليس في ذلك ما يُوجب الأسى؟ وإذا كان المسلمون قد أبادوا هذه الفرقة إلا أن بصمتها على جبين الزمن باقية في ذاكرة التاريخ، خاصة ما ألحقوه من إهانة

(١) الحنوط: كل ما يُخَلَطُ من الطيب لأكفان الموتى وأجسادهم.

للمرأة عندما جعلوها حِلًّا مُشاعاً لمن أراد، حتى ولو كانت بنت الرجل أو أخته .
إننا نُذَكِّرُ الناسَ والذُّكْرَى تنفع المؤمنين، والذكرى جرس يرنّ في عالم النسيان،
فإننا نرى بوادِرَ ضَعْفٍ يقترب من ساحة المجتمعات الإسلامية، حيث المال،
واستخدام فئة من غير المسلمين لا عَفَّةَ لها ولا حصانة، وإنما همّها المال السهل
المبذول، واستتبع ذلك نسيان اللغة العربية وتعلُّم لغة هؤلاء الغرباء الوافدين للعمل
وغيره من تلك البلاد حتى صارت المتاجر والمصانع والمزارع تعلن عن نفسها بلغة
هؤلاء في البلاد العربية، وأصبح العربي يشعر بغربته بين بنى قومه، والمرأة هي
الأصل... فهل نتبه أم يجرفنا الانحلال تحت زعم التقدم وفي الحقيقة أنه هو
الانهيار بينه... أو كما يقولون: «الصعود إلى الهاوية».

جهاد المرأة المسلمة

النور يبدد الظلام

يقول الله تعالى لبنى البشر جميعاً: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١) صدق الله العظيم.

لا تجد قوماً أبعد مدى في الضلال ولا أقصر يداً عن الحقيقة من أناس أجازوا لأنفسهم الحكم على الإنسان وليسوا منه في قليل ولا كثير، وأباحوا لأنفسهم أن يكتبوا عن النساء في الإسلام فزعموا أنهن قعائد بيوت، لا رأى بُدِينه، ولا نصيب من الحرية يعتززن بها، وتلك نزعات أهوائهم تنكشف كل يوم عن ذلك الإيقاع المبتذل والأسلوب المرذول، وهم يعرفون الإنسان الإسلام ما شرع للمرأة أن تكون رهينة بيت أو سجينته، بل هي ربته، والقائمة بأمره، والمسئولة عنه، يعاونها الرجل فيه وتعاوننه هي فيما سواه. إنها عماد البيت ودعامته، كما أنها لم تدع موطناً عظيماً ولا مشهداً حافلاً ولا عملاً خالداً إلا وكانت عماد أمره، فهي سَعِدَتْ بالإسلام الذي حرر عقلها، وطهر نفسها، وصان شرفها، لذلك سارعت إلى رسول الله ﷺ وجلست بين يديه متعلّمة، ورافقت جيشه مُداوِية، وجالت بين يديه مُقاتلةً مستبسلة، وهاجرت بدينها إلى الحبشة والمدينة المنورة مع السابقين الأولين من المهاجرين، فأجزَلَ اللهُ في كل ذلك مَثُوبَتَهَا، وأحسن النبي مآبها، وأكبر المسلمون مواقفها.

(١) سورة المائدة.

هذا، وقد دَعَتْ وثبة الإسلام إلى أن يكون للمرأة دَوْرٌ في طلب العمل، واشتراكٌ في حضور الصلوات وحضور مناسك الحج، كما أنها لم تتأخر عن الخروج للجهاد. لقد هيأ الإسلام المرأة بما نزل في القرآن الكريم من آيات تُوجِّه إلى مكارم الأخلاق، وكانت هي سبَّاقةً للأخذ بها، لأنها نزعَت إلى خُلُقٍ فاضل، وبه كان وجودها، وبه أفاضت على القوم روح الحَمِيَّة، وحب التضحية، ووحى القبول، لذلك احتملت من العبء أثقله، ونالك من النصيب أقله، وربما تناولتها المصائب من كل جانب فلا تجد من حُسْنِ العزاء ما يطمئن قلبها بمثل ما فعل الإسلام، الذي رفعها إلى أبعد مما يطمح فيه خيالها، ويصبو إليه أملها، وساق لها من آي الذُّكْرِ الحكيم ما بَهَّرَ سناه بصرها، وملكت بحجته نفسها، واستفاد من بلاغته وحُسن بيانه قلبها، وأنصتت لما وصف به الله رحمته وعزته، وجنته وناره، وما أعد للصابرات والمحسنات من جزيل الأجر، فأثارَ ذلك عاطفتها، وأفاض وجدانها، وأثار بصيرتها، وكان لكل ذلك أثره في نفسها كأنثى تأثرت بالإسلام، وخير دليل على ذلك أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، التي هيأ الله لها من جلال الحِكْمَةِ ويَعْدُ الرأي، إلى زكاء الحسب وذكاء القلب، ما عَزَّ على الأكثرين من الرجال، فلم تأخذ الدين مُشايعة ولم تتلقاه مجاملة، بل أخذته عن تأثُر به، وظماً إليه، لهذا كانت مبعثَ غبطة للنبي الأمين. وقد أشعرته بالسكينة عند تدافع المِحْنِ، واشتداد الخطوب عليه، ثم أتبعها جمهور من النساء تأثرن بهذا الدين تأثراً هان دونه كل شيء، وكان أول مَنْ سبق إليه فريق الضُّعاف اللواتي فَقَدْنَ النِّصْفَةَ، وعثر بِجَدِّهنَّ^(١) الزمان، فابتدرن ورده، وتفيأن ظله، واستهنَّ بما أصابهن في سبيل من ظلم وعذاب، وتحملن الآلام بنفس راضية، وما حديث «سُمِّيَّة» أمَّ عَمَّار بن ياسر بغائب عنَّا، كان عُنَاةُ الكَفَّار يخرجون بها إذا اشتدت الظهيرة والتهبت الرمضاء ويُلْبسونها درعاً من حديد ويهيلون عليها الرمال المتَّقَدَةَ ويرضخونها بالحجارة، وكان زوجها «ياسر» وابنها «عمَّار» معها، فلما اشتد عليهما العذاب تفاداه «عمَّار»

(١) الجَدُّ: الحَظُّ والغِنَى. والنصفه: الإنصاف.

بظاهر ما يُرضى الكفار، وفيه نزل قول الله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(١)، أمّا «سُمَيَّة» فاعتصمت بالصبر ورضيت بالعذاب وأبت أن تُعطى القوم ما طلبوا^(٢)، فاشتد عليها العذاب حتى لقيت ربّها شهيدة مؤمنة صابرة^(٣).

وكان عمر بن الخطاب يتولى تعذيب امرأة مسلمة لبنى المؤمل^(٤)، وكان يضربها بالسياط ويتعب، ويترك عذابها ويقول لها: إني ما تركتك إلاّ تعباً، فترد عليه بقولها: «كذلك فعل الله بك»^(٥).

لم يقف النساء حيال ذلك العذاب موقف الواهن الضعيف، بل لقد اسعدبته واستهنّ به وهنّ يتعرضن له وينزعن إليه، لأنهن وجدنّ فيه الخلاص، فعذاب الجسد يهون، أمّا عذاب النفس فوانّ ومرارة ودمار وموت بطيء، لذلك - وبرغم ما نزل بهن - كنّ يبتشرن في البيوت لدعوة منّ بها إلى الإسلام، إعلاءً لكلمة الله.

وربّ قائل يقول: أولئك الإماء والعبيد والخدم، فنقول له: لا، لأن ذوات الشرف والحسب والمكانة لم يقصرن في اللحاق بهؤلاء، وبعضهن قد آمننّ مع من آمن من ذويهن وأزواجهن، ومنهن من آمنت وحدها واحتملت آلام الهجرة، ومن هؤلاء: أم كلثوم بنت عقبة، ولم يسلم أحد من بيتها، وفارقت خدرها ومستقر أمنها ودعتها، وهاجرت تحت جُح الليل فريدة شريفة، تطوى قدماها ثنايا الجبال. ثم أسلمت أمها وهاجرت مثلها وتركت شباب أهل بيتها وكهولهم وهم في ضلال يعمهون^(٦).

(١) سورة النحل، الآية ١٠٦.

(٢) طلب منها الكفار أن تكفر بمحمد وتذكر إلهه بسوء، وتؤمن بألهتهم وتذكرهم بخير، فأبت ذلك، وصمدت للعذاب، حتى طعنها أبو جهل لعنه الله بحربة، سقطت بعدها شهيدة صابرة، ولقى زوجها «ياسر» نفس المصير على أيدي الكفار، وكان الرسول ﷺ يمرّ عليهم وهم يُعدّبون - في بداية الإسلام - ويقول لهم: «صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة»، وكانت «سُمَيَّة» أول شهيدة في الإسلام، رضى الله عنها وعن زوجها وسائر شهداء المسلمين.

(٣) «إنسان العيون»، ج ١.

(٤) كان ذلك قبل أن يشرح الله صدره للإسلام.

(٥) سيرة ابن هشام، ج ١.

(٦) «الإصابة في أعلام الصحابة»، ج ٨.

وما كان ثبات المرأة وقوة نفسها ورسوخ يقينها واستهانتها بالموت في سبيل دينها ف فترة معينة من تاريخ الإسلام إلا الدليل القوي على الدور الخطير الذي قامت به في سبيل الحق، وثباتها على المبدأ، بل قد صاحبها ذلك في أطوار التاريخ، وخامراً لحمها ودمها في كل مراحل حياتها، فلقد تميزت المرأة بالثبات على رأيها ما دام ذلك في الحق، وما حديث أسماء بنت أبي بكر بغائب عنّا، فلقد سخرها الله يوماً لتكون آية لطفه الخفي، ووحى إرادته البالغة في أعظم حوادث الإسلام خطراً وأبقاها أثراً، عندما كان النبي ﷺ ومعه صاحبه في الغار، وكانت أسماء هذ تُمسيهما كل ليلة بالزاد والماء، ثلاثة أميال تقطعها الصبية الناشئة في جوف الليل ووحشة الطريق، بين أسنة الصخر، ومساحات الرمل، ماشية حافية، متخفية حذرة، ومثلها من الولدان يغدون إلى ملاعبهن، ويأوون إلى صدور أمهاتهم، وكانت هي حيث يعجز أشدُّ الرجال وأبطالهم... أي قلب ذاك الذي أودعه الله بين ضلوعها؟ وأية عزيمة تكل التي خفقت في نفسها؟ لقد كانت نموذجاً من النماذج التي استخلصها الله لدينه، واصطنعها لدعوته، ونفث فيها من روحهن، فكانت مستقر الكمال، ومجتمع أشتات الفضائل. ويمضي التاريخ يذكر من مواقفها الرائعة طوال حياتها، وفي ختام أيامها عندما خرج ولدها^(١) على الحاكم الظالم وشق عصا الطاعة ثم خذله الناس، فدخل عليها وهو مُتعب ليأخذ رأيها، فقالت: إن كنت على حق فامض في طريقك. فقال لها: أخاف إن قتلت أن يُمثّل بي بنو أمية! فقالت قولتها المشهورة: يا بُني، إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها.

ولك أن تتأمل في قرنين وبعض قرن كيف وثب المسلمون وثبة أذهلت العالم، وكيف ملأوا الأرض قوة وبأساً، وحكمة وعلماً، فراضوا الأمم، وركزوا ألويتهم في قلب آسيا وهامات إفريقيا وأطراف أوربا، وتركوا دينهم وشرعهم ولغتهم وعلمهم وأدبهم تدين لها القلوب، والعرب قبل الإسلام كانوا فرائق بدداً، لا نظام، ولا قوامة، ولا علم، ولا شريعة، ففي أي المدارس تخرّج هؤلاء؟... لقد قطع العرب تلك الفترة - التي وجم لروعتها التاريخ - وليس عندهم معهد ولا كلية،

(١) هو: عبد الله بن الزبير بن العوام.

وإنما كانت خيامهم ودورهم معاهد وجامعات، ولى أمر ذلك أمهاتٌ صدقِ أقامهن الله على رعاية الشُّرء، واستخلفهن على صنائعه من الأشبال الذين أصبحوا بعد ذلك قادة الأمة. لقد كُنَّ نِعَمَ الأمهات، قُمنَ بالواجب، وثبُنَ على العهد، ونهَضْنَ بالفادح الشديد، فَحَمَلْنَ الأمانة بجدارة.

إن الأمَّ بمثابة القلب، فهي غذاءُ أرواح أبنائها، ومَبْعَثُ عواطفهم، لذلك دفع الإسلام عن المرأة الظلم الاجتماعي، وأنصفها، ورفع شأنها، وهي بالتالي تمسكت بدينها، وثبَّتَ يقينها، وتحصَّنت بالعفة، واثترت بالطهارة، وتفرَّدت بتكوين الرجال والتأثير فيهم بما لها من قوة وشدة عزيمة على المضى في عملها والبلوغ بواجبها، ممَّا أوجبَ لها الحُبَّ والاحترام، وقد أصبح ذلك في الإسلام فرضاً محتوماً، لأن لها المقام الأوفى، والمنزلة التي ليس فوقها إلا الله ورسوله. وقد كان الرجل لا يجاوز رأى أمِّه، ولا يستشعر الغناء عن مشورتها ونهج سبيلها، مهما تطاولَ به العمر وأمعنت برأيه التجارب، وأكبر دليل على ذلك عبد الله بن الزبير مع أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق الذي مرَّ بك حديثها قريباً، وهاك هو بكامله: فعبد الله هذا لبث على إمرة المؤمنين ثمانى سنوات، ودانت له العراق والحجاز واليمن، ثم أخذ عبد الملك بن مروان يُقارعه، فانتقص منه العراق، ثم رماح بالحجاج بن يوسف الثقفى الذى أخذ طوى البلاد التى دانت له، حتى انتهى إلى مكة فطوَّقها، ونصب المجانيق على الكعبة وأهوى بالحجارة عليها، ودخل عبد الله بن الزبير على إثر ذلك على أمِّه أسماء، فقال لها: يا أمِّه، لقد خذلنى الناس، حتى أهلى وولدى، ولم يبقَ معى إلا اليسير، وقد أعطانى القوم ما أرذتُ من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت له: الله، الله، يا بنى، إن كنتَ تعلم أنك على حق تدعو إليه فامضِ عليه، ولا تُمكنَنَّ من رقبتك غلمانَ بنى أمية فيلعبوا لك، وإن كنتَ أرذتَ الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكتَ نفسك ومن معك، وإن قُلْتَ إني كنت على حق فلما وهنَّ أصحابى ضَعُفَتْ نِيَّتِي فليس هذا فعل الأحرار، ولا مَنْ فيه خير، كم خُلودك فى الدنيا؟ القتل أحسن ما يقع بك يا ابن الزبير، والله لَضَرْبَةٌ بالسيف فى عِزِّ أَحَبِّ إِلَيَّ من ضربة بالسَّوْط فى ذُلِّ. فقال: يا أماه، أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يُمَثِّلُوا بى ويصلبوني! قالت: إن الشاة لا يضرُّها السِّلخ بعد الذبح، فامضِ على بصيرتك واستعِنَ بالله، فقبَّلَ رأسها وقال: هذا والله رأى، والذى قمتُ به داعياً

إلى الله، والله ما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تُهْتِكَ محارمُهُ، ولكنني أحببتُ أَنْ أُطَّلِعَ على رأيك فيزدني قوة وبصيرة مع قوتي وبصيرتي. والله ما تعمدتُ إتيانَ مُنْكَرٍ ولا عملاً بفاحشة، ولم أُجْزِ في حُكْمٍ^(١) ولم أُغْدِرْ في أمان، ولم يبلغني عن عُمَالِي حيف فرضيت به، بل أنكرتُ ذلك، وما أقول ذلك تزكيةً لنفسي، ولكنني أقوله تعزيةً لأمي لتسلو عني. فقالت: والله إني لأرْجُو أن يكون عزائي فيك جميلاً إنْ تَقَدَّمْتَنِي احتسبتُكَ، وإنْ ظفرتْ شُرُرتُ بظفرك، أُخْرِجْ حتى أنظر إلامَ يصير أمرُك. ثم قالت: اللهم ارحم طُولَ ذلك القيام بالليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر مكة والمدينة، وبرّه بأُمَّه. اللهم إني قد أسلمتُ فيه لأمرُك، ورضيتُ فيه بقضائك، فأثيني في عبد الله ثوابَ الشاكرين. قال: يا أما لا تدعى الدعاء لي قَبْلَ قتلي وبعده. فقالت: لن أدعُهُ، فَمَنْ قُتِلَ على باطلٍ فقد قُتِلَتْها على حق. فتناول بها ليقبّلها، فقالت: هذا وداعٌ فلا تبعد. فقال لها: جئتُ مُودِعاً لأنى أرى هذا آخر أيامي من الدنيا. قالت: امضِ على بصيرتك واذنُ مني حتى أودّعك. فدنا منها فعانقته وقبّلته، فوَقعت يدها على الدرع^(٢) فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد؟ فقال: والله ما لبستها إلا لأشدَّ مَتْنِكِ. قالت: إنها لا تشد مني. فنزعها ثم درج لِمَتِهِ^(٣) وشد قميصه وجُبَّتِهِ، وقال لأصحابه: احمِلوا على بركة الله، وليشغل لك منكم رجلاً، ولا يلهينكم السؤال عني، فإني على الرعيل الأول. ثم جمل عليهم حتى بلغ بهم «الحَجُون»^(٤) وهناك رماه رجل شامي بحجر فأصاب وجهه، فأخذته منه رعدة، فدخل شِعْباً من شعاب مكة يستدمي^(٥)، فبصرت به مولاته فقالت: وا أمير المؤمنين! فتكاثر عليه أعداؤه عند ذلك فقتلوه، وصَلَبه الحجاج على الجذع عاماً كاملاً، حتى إذا أمر عبد الملك بإنزاله أخذته أُمَّهُ فغسَلَتْهُ بعد أن ذهبوا برأسه، وذَهَبَ البلي بأوصاله ثم كَفَّتَهُ وصَلَّتْ عليه، ودفتته^(٦). ذلك أمر ابن الزبير ومُقامه من أمه، ونزوله على رأيها والأخذ بمشورتها

(١) جازَ في حُكْمِهِ: ظَلَمَ.

(٢) الدَّرْعُ: قميص من حلقات الحديد متشابكة يُلبَسُ وقايةً من السلام (يُذَكَّرُ ويؤنَّثُ).

(٣) اللِّمَّةُ: شعر الرأس المجاور شحمة الأذن.

(٤) الحَجُونُ: جبل بمكة.

(٥) أي: يداوى جرحه الذي يسيل.

(٦) «بلاغات النساء»، ص ١٣٠.

حتى آخر ساعة من حياته . . . فهل رأيت امرأة عانت ولدها على التضحية في نُصْرَةِ الحق وبَذْلِ النَّفْسِ فِي حَوْمَةِ الشرف بمثل ما أعانت به أسماء ولدها؟!!

إن المرأة المسلمة اجتمع لها من وسائل التربية ومجالات العمل ما لم يجتمع لأخرى، حيث أقر الإسلام بحَقِّها مع الإمعان في احترامها، لأنها تمتعت برجاحة العقل، وسماحة الرأي، وتمكُّن من الفضيلة حتى بلغت الغاية القصوى من خلال الدِّين وفرط اليقين، مما جعلها أعرف خلق الله بتكوين الرجال والتأثير فيهم، والنفوذ إلى قلوبهم، وثبتت دعائم الخُلُق العظيم بين جوانحهم وفي مسارب دمائهم . . . إنهم الأُمَّهات اللواتي انبلج عنهن فجر الإسلام، وسَمَتْ بهن عظمتهم، وصدعت بقُوَّتِهِنَّ قوته، وعنهن وحدهن ذاعت مكارمه، ورسخت قوائمه. وإذا كان اليوم يُعَيَّرُ الرجل بأن يقال عنه: إنه «تربية أمِّه»، فذلك لأن الأم تخلفت عن رسالتها، وفقدت معالم دينها، ونضب الخُلُق الكريم في نفسها، فنشأ ابنها ضعيف اليقين، واهى العقيدة، ليس عنده مروءة ولا شهامة، يفرغ لأتفه الأشياء، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، لكن في الماضي كان الرجل يفتخر بأُمَّه، لأنها رُوح السُّمو في ذات نفس ولدها الذي أشرفت على تربيته، وكانت تفتدى بالصالحين . . . أما اليوم فأين القدوة؟ هل نبحت عنها في امرأة تقضى نصف النهار عند «الكوافير»؟ أو تبحت عن رقصة جديدة تتعلمها؟ أم تبحت في مجلات الأزياء لتعرف آخر صيحة في عالم الملابس والموضة؟ أو أين تقضى الصيف هذا العام، وعلى أي شاطئ، وآخر صيحة في عالم «المايوهات»؟ أو تبحت عن مُغْنٍ قادم من الخارج فتخرج مع النساء لعمل مظاهرة لاستقباله في المطار، وتقديم «الأوتوجراف» للتوقيع عليه، ومس يده، وسؤاله عن آخر أفلامه، وأحسن رقصاته، وأي «موضة» في الملابس يفضل، وأحسن تسريحة للشعر؟ يا لله!! إن العين لتدمعُ، والقلب يحزن ونحن نرى القدوة العكسية التي بسببها قتلَ الولد أباه وضرب أمُّه، حتى في يوم عيدها يذهب إليها بهدية في أول اليوم ويأخذها منها آخر النهار بعد أن يسقيها المرَّ أشكالا وألوانا، لأنها لم تعرف كيف تُرَبَّى، ومَنْ فعلَ ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(١).

* * *

(١) سورة النحل.

مزيد مما في ذاكرة التاريخ

تلك جولة تجولنا خلالها في ذاكرة التاريخ، حيث تبين لنا أن المرأة لم تتخلف عن مسايرة الأمر الواقع، وأنها تتبوأ مكانتها في المجتمع كإنسان له الحق في أن يدافع عن مكانته، وفي أن يفكر كالرجل تماماً، وليس من أحد ينكر دور السيدة عائشة رضي الله عنها وسعة علمها، خاصة فيما يتصل بشئون الدين، حتى روى في الأثر: «خُذُوا نَصْفَ دِينِكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُمَيْرَاءِ». ولن ينسى التاريخ دور السيدة سكينه رضي الله عنها، وهي بنت الإمام الحسين، حيث كان بيتها كعبة الشعراء والأدباء، وقد أثنى الكل عليها ووصفوها بالخلق الكريم، والأدب الجَمِّ، والحياء. وأسماء بنت أبي بكر الصديق وموقفها الرائع أيام الغار الذي نزل فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر عند الهجرة من مكة للمدينة، كما يرجع إليها الفضل في شجاعة أبناء الزبير بن العوام، لأنها بثت فيهم روح الشجاعة والجهاد في سبيل تثبيت العقيدة والدفاع عنها. وهل أذاك نبأ أم عبد الله بن عباس؟ حيث نشأت على تعشق المجد مع التقوى. وأم الشافعي التي أثرت فيه تأثيراً بليغاً، لأنها غذت عقله، وقوت روحه، وكانت حريصة على ألا يغلب على نسبه الهاشمي.

ويكفي أن تعرف أنه كان بالربض الشرقي في «قرطبة» بالأندلس مائة وسبعون امرأة يكتبن كلهن المصاحف بخطوط آية في الجمال. يقول الأستاذ «أولفر» - أستاذ بجامعة شيكاغو: «في الوقت الذي كان سكان بغداد ومصر والبلاد الإسلامية تحتل المرأة المركز المرموق اللائق بها، ثم لا تكلف إلا تربية الأولاد وتدبير المنزل، كانت نساء الرومان يزرعن الأرض، ويُرْعَيْن الماشية مع العبيد».

إن الإسلام الذي نؤمن به وندعو إليه كرم المرأة وأعلى شأنها وأجاز لها أن تدافع عن نفسها إذا أراد أحد أن ينتقص حقوقها أو يسئ إليها، وها هي امرأة

ترافع عن نفسها أمام رسول الله ﷺ، حيث طلقها زوجها وأراد أن يأخذ ولده منها، فقالت: يا رسول الله، إن ابني هذا كان بطني له وعاء، وثديي له سقاء، وحجري له حواء، وإن أباه طلقني ويريد نزع مني. فحكم لها رسول الله ﷺ وقال لها: «أنتِ أحق به ما لم تتزوجي».

وتخاصم أبو الأسود الدؤلي مع زوجته على ولد بينهما، فقالت المرأة: أنا أحق به لأنني حملته تسعة أشهر، ثم وضعته، ثم أرضعته، إلى أن ترعرع بين أحضاني كما تراه مراهقاً. فقال أبو الأسود: أيها القاضي لقد حملته قبل أن تحمله، ووضعتُه قبل أن تضعه. فقالت المرأة: إنه حمله خفاً وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة ووضعتُه كرهاً. ففضى القاضي لها بالولد. وهذه القصة تعطينا الدليل على أن المرأة يجوز لها أن تعمل بالمحاماة، بحيث تتولى الدفاع عن بنات جنسها، وبما حبذا لو كان القاضي امرأة كذلك، لأن عمل المحاماة مهنة شاقة تحتاج إلى مجهود، ولأن المرافعات تحتاج إلى جهد، لذلك أرى أنه بعد تشعب المشاكل وكثرتها، وأصبحت المرأة تمثل فيها جانباً كبيراً، فإنه لا مانع من أن تتولى المرأة عمل المحاماة أمام القاضي الذي يكون امرأة، حيث أباح الإسلام لها أن تتولى الإفتاء والقضاء، إلا في مسائل الدماء، لأنها عاطفية.

وقيم الدين تحرص على كيان المرأة وشخصيتها من الهزات العصبية والنفسية، لذلك يجب إعداد المرأة لهذا الدور الذي أصبح المجتمع في حاجة ماسة إلى مشاركة النساء في القضايا التي تتعلق بالأنثى ومن خصوصياتها، كمسألة البكارة والولادة، والاعتداء الجنسي، وما شاكل ذلك من المشاكل التي تفرض نفسها على الساحة الدولية في هذه الأيام.

في عام ١٩٤٤ قامت ضجة في مجلس النواب المصري، والموضوع كان حرمان المرأة من عمل المحاماة لما تتعرض من تمارس ذلك إلى مشاكل عديدة، وانتهت المناقشة على أخذ الرأي على الاقتراح بحرمانها من ممارسة هذا العمل، فلم يوافق المجلس. وفي مجلس الشيوخ المصري قدم أحمد رمزي بك طلباً بقصر المحاماة على الرجال، وعلل ذلك بالمصاعب والمتاعب، وقد تكون هناك خلوة والشرع يرفضها، لكن لم يسفر ذلك عن نتيجة أيضاً. لهذا نقول بأنه لا مانع من عملها فيما يتعلق بشئون بنات جنسها وما يدور في فلك ذلك.

لقد زارت السيدة «أليزابيث فراي» الإنجليزية سجن (نيوجيت) ورأت النساء شبه مجنوناتٍ مِمَّا يُقاسين من متاعب، ووجدت أبناءهن في حالة مفجعة، فوجهت النداء للنساء أن ينزلن إلى ميادين الخدمة العامة. ونحن نوجه النداء لكل مَنْ تجد في نفسها القدرة على العطاء ووقتها يسمح لها بتقديم المساعدة لبنات جنسها أن تبادر إلى ذلك، فمن الخير أن تدخل المرأة هذا الميدان وأن يكون لها دور في معيات تحسين الصحة، وكفالة اليتيم، والهلال الأحمر، ودور الحضانة، ومحاكم الأحداث، والنيابة الحسبية، ومؤسسات الرعاية الاجتماعية وحق الحياة، وبيوت الضريعات والأطفال التائهين، إلى غير ذلك مما له صلة بالأمومة، لأن هذا يتفق مع كيانها وشخصيتها وتكوين نفسياتها.

ممارسة الأعمال التجارية والوطنية

أباح الإسلام للمرأة أن تمارس التجارة بيعاً وشراءً، وكاتبة ومحاسبة، وعاملة ووسيلة إذا أعدت نفسها لذلك بالممارسة والتعليم، ولها أن تستأجر الرجال لينوبوا عنها في عملها، أمّا دخولها البورصة والمضاربة بالأسهم فمجازفة منها، لأن خبرتها في هذا المجال محدودة، وعند الخسارة الرهيبة قد تفقد أعصابها وتنهار، لكنها في التجارة تؤمن بالمكسب والخسارة البسيطة، لهذا نقول لها: اعلمي في المكان الذي أثبتت فيه شخصيتك، وظهر فيه نبوغك، وتفوقت فيه، ودعى عنك كلُّ ما يكون سبباً في هز عاطفتك أو إعاقتك عن العمل، وميدان الجهاد في سبيل نشر العقيدة والذود عن الوطن وحماية العرض، فكم في تاريخ الإسلام والعروبة من نساء خُصن غمرات الحرب، ورفعن رايات الجهاد، وبذلن صنوف التضحية في سبيل ذلك.

والإسلام لم يمنع المرأة من ذلك قطُّ، فهذه السيدة الفاضلة «خديجة بنت خويلد» أم المؤمنين الأولى في حياة النبي ﷺ، كانت أشبه بوزير داخلية في بدء الدعوة الإسلامية، كانت تنشر الأمن حول الرسول ﷺ، وتهدي من روعه، وتشير عليه بالذهاب إلى «ورقة بن نوفل»، وتشجعه على تبليغ الدعوة، وتعمل على أن تبلغ مداها المنتظر. وعندما قدم أهل يثرب لمبايعة النبي ﷺ «بيعة العقبة» كان في

الوفد نساء، وكان لهن دور عظيم. وأم سلمة التي أشارت على النبي ﷺ أن يَخْلُقَ ويتحلَّلَ وينحر الهدى، وكان ذلك في صلح الحُدَيْبِيَّةِ، عندما كتب النبي ﷺ «عهد الصلح» مع أهل مكة، وكان يمثلهم «سهيل بن عمرو»، وظن المسلمون أن شروطها مُجْحِفَةٌ، لذلك ظهر فريق معارض يتقدمهم «عمر بن الخطاب» رضى الله عنه، وتباطأ الناس في تنفيذ توجيهات النبي ﷺ، فأشارت عليه «أم سلمة»، فنزل على رأيها الذي كان خيراً وبركة. وقد أجاز النبي ﷺ للمرأة أن تُجِيرَ مَنْ تُجِيرُ من أهل قريش أو الأعداء، حتى قال لأم هانئ: «قد أجزنا مَنْ أجزتِ يا أمَّ هانئ».

وفى عهد «عمر» رضى الله عنه وقفت امرأة منه موقف المعارضة، وكان في مجتمع عام، فنزل على رأيها، وعتَمِلَ بمشورتها. وعائشة رضى الله عنها خرجت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وانضمت لصفوف محاربيه، لأنه - من وجهة نظرها - تهاون مع قَتَلَةِ عثمان رضى الله عنه جميعاً. والزرقاء بنت عدى الهمدانية المشهورة «بذات الهودج»، خرجت مُجَاهِدَةً مع علي في هود قاتم اللون، تثير العواطف، وتستحث القلوب وتدافع عن أهل البيت النبوي، وتنادى في الرجال: «ألا إن خضاب النساء الحنَّاء، وخُضاب الرجال الدماء»، وكادت الدائرة تدور على صفوف «معاوية» لولا ما لجأ إليه من حيلة التحكيم. ولما انتهت الفتنة وقُتِلَ الإمام عليّ كرم الله وجهه، رجعت الزرقاء وقلبها حزين جداً لما نزل بآل البيت النبوي، وكان «معاوية» يحقد عليها، إذ لا يزال أمام عينيه خيال «ذات الهودج» وصوتها يرنُّ في أذنه... ولقد استنكف معاوية عن أن يقتلها، وبعد فترة أرسل إلى واليه بالعراق أن يحملها إليه، فنصب الوالى هودجاً على ظهر جمل تذكيراً لها وسخرية منها، فلما مثلت بين يديه نظر معاوية إلى هودجها وأشار إليه وقال: أهكذا عرشك؟ قالت: كأنه هو!! فقال معاوية: الآن ظَهَرَ الحق. قالت: إن الله يفعل ما يشاء. قال لها معاوية: أفذكرين شيئاً من قولك وأنتِ مع علي؟ فصمتت. قال: يا زرقاء، أَلَسْتَ القائلة: «أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون»؟ فمن كُنْتُ تريدان بالمؤمنين والفاسقين؟ قالت وقد اندفعت بعزة الإيمان والثقة في الله: نعم أنا القائلة وأنت أعلم بمن كُنْتُ أعني! قال: إذن قد شاركتِ علياً في كل ذلم

سفكه. قالت: بَشْرِكِ اللهُ بالخير يا أمير المؤمنين. قال لها: أَوْسَرَكِ هذا؟ قالت: نعم، ومثلك من يبشر بخير. قال: أفلا تخشين أن أُلْحِقَكِ به؟ (أى أسفك دمك). قالت وقد اشتممت ريح الإيمان بالقضاء والقدر: أرجو أن يُشَرِّفَنِي اللهُ باللحاق به. قال لها: إنهم أشاروا علىّ بقتلك. قالت والعزة ملء إهابها، وقوة الحق على لسانها: لَوْمٌ منهم، ولو فَعَلْتَ لشاركتهم. فأطرق معاوية وقد أُخِذَ من كل جوانبه بروحانية الإيمان الذى ظهر عليها، ورباطة جأشها، وما تَفَجَّرَ على لسانها. وهنا رفع معاوية رأسه وقال للزرقاء: قد عَفَوْتُ عنك. قالت: لم أَجِنِ ذَنْباً تعفو عنه، خَفَّفُ عن نفسك. فلما لم يجد مخرجاً من هذا الحَرَجِ قال لها: اذكرى حاجتك. قالت: والله لقد آليتُ على نفسي ألا أسأل أحداً حاجة بعد علىّ. فزاد حرج معاوية وزاد إكباره لها لأنها ترى الموت يلعب على شفثيه فتتهزأ به وبكل ما يملك من صولة ودولة، وهى فقيرة وحيدة، وما عرف الكذب ولا الضعف إليها سبيلاً. ثم قال لها معاوية: إنَّ وِفَاءَكَ لعليّ بعد موته لأشدُّ من إخلاصك به فى حياته. ثم أمر بإكرام وفادتها.

إن العالم لو عرف هذه الأمور لتبين له سماحة الإسلام، لذلك تسابقت المرأة إلى فعل الخير الذى حثَّ عليه الإسلام، لأنه هو الذى صان كرامتها، ومنحها الحرية، وأعطاهما أكثر ما كانت تتمنى، فهذه «الخيزران» زوجة المهدي كانت تلبى حاجة كل مَنْ يقصدها، وكذلك «زبيدة» زوجة هارون الرشيد، لن ينسى التاريخ لها ما قدَّمته من جلائل الأعمال، ومثلها «بوران» زوجة المأمون، كانت لزوجها خير معين ونِعْمَ المُسَاعِدَةُ فى التعمير ورقى المجتمع، وهذه «قطر الندى» زوج المعتضد عُرِفَتْ بالحزن وسعة العلم، وعدلها فى القضاء إذا احتكم إليها أحد.

والأمر لا يسير هكذا نجاح مستمر، بل هناك خلخلة حدثت بسبب تدخُّل النساء، فنحن نذكر أن «مصطفى أتاتورك» رئيس الجمهورية التركية طَلَّقَ زوجته «لطيفة هانم» عندما أحس بتدخُّلها فى الشؤون السياسية درءاً لما يجرُّه هذا التدخل من فساد، لأنه قرأ تاريخ بنى العباس فى بغداد وعرف ما آل إليه الأمر عندما تدخلت النساء فى إدارة دَفَّةِ البلاد، وكذلك حال آل عثمان بالقسطنطينية، فالأمور ساءت، والأحوال اضطربت، وتصدعت الأمور. ولعل أبلغ شىء هو الذى حدث

فى «بلغاريا» عندما تدخلت الأميرة «بودكسيا» شقيقة الملك «بوريس» فى تسيير دفّة أمور البلاد، فالدولة انهارت، لأنها كانت تُسقط الوزراء وتُعيّنهم. ولن ينسى التاريخ أبداً ما كان من «شجرة الدر» زوجة الملك الصالح أيوب، لولا أن «عز الدين أيك» تدارك الأمر ونهض بالدولة بعد كبوتها. ولا يغيب عن البال أن هزيمة فرنسا أوائل الحرب العالمية كان على يد «الكونتس دى برت»، فهى التى سعت فى تأليف اللجنة الفرنسية الألمانية، وضم «فيجان» و«بول بودن» إليها لغايات نازية محضّة، ثم هى التى سعت إلى إسقاط وزارة «دلاديه» المعاون لإنجلترا وتولية «بول رينو» المعاون لألمانيا، ثم هى التى أخذت تخدّر أعصاب الساسة والقواد وتدخل الرعب فى قلوبهم من ألمانيا وقوتها، حتى ألقوا عددّ الدفاع المعنوية قبل أن يلقوها حقيقة، فأصيبوا بالهزيمة التى انتهت بضياح فرنسا.

ونحن نذكر السيدة عائشة رضى الله عنها - إحدى أمهات المؤمنين - لما ركبت الجمل مُطالبة بدم عثمان رضى الله عنه، أنكرت عليها السيدة أمّ سلمة - إحدى أمهات المؤمنين - وكتبت إليها تقول: «إن عمود الدين لا يثبت بالنساء إذا مال» فتقبّلت منها قولها بقبول حسن، وكتبت إليها تقول: «ما أقبلنى لوعظك، وأسمعنى لنصحك، وليس مسيرى على ما تظنين، ونعم المَطلع مطلع فرقت فيه بين فئتين متناجزتين، فإن أقدر فى غير حرج، وإن أخرج فلا غنى بى عن الازدياد من نصحك والسلام». ويقف المغيرة بن شعبة فى طريق الركب الذى مع عائشة، ويقول: «ارجعوا بأئكم خير لكم». ويقول سعد بن أبى وقاص لما بلغه خبر خروجها: «عفا الله عنها، لقد فعلت ما كان غيره^(١) أولى».

إلى غير ذلك مما يجدر بنا أن نعلمه، لأن الأمور تحتاج إلى فراسة وكياسة وحسن تصرف، ومن يتعلم ويأخذ عبرة التاريخ فالخير له، سواء كان رجلاً أو امرأة.

منصور الرفاعي عبيد

وكيل وزارة الأوقاف

للمساجد وشؤون القرآن

هذا، وبالله التوفيق.

(١) غيره: أى غير هذا الفعل.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
مقدمة	٦
هل صحيح أن تفاحة حواء هى التى أخرجت آدم من الجنة؟	١١
لحظة تأمل	١١
البداية	١٨
من نفس واحدة	٢٤
مَن السبب؟	٢٦
أول دم سُفِكَ على الأرض	٣٦
قصة وَلَدَيْ آدَم	٣٩
هل الذَّكَرُ كالأُنثى؟	٤٤
المرأة فى ذاكرة التاريخ	٦٣
بلقيس	٨٠
ملكة تدمر	٨٣
أسماء بنت دُرَيم وحُسن تصرفها	٨٤
وَأَفَقَ شَنْ طَبَقَة	٨٥
معاول هَدَمَ فى جسم الأُمَّة	٨٨
موقف من القرآن	٩٤
سيدنا محمد ﷺ وموقفُ له ما له	٩٥
مواقف مصرية	٩٧

١٠٢	عيّنات اجتماعية
١٠٧	السّببى
١١٠	الاسترقاق
١١٣	رَبّة الأسرة السعيدة
١٢٠	تكوين الأسرة
١٢١	الأولاد نعمة
١٢٢	الأولاد أمانة
١٢٣	الأولاد قد يكونون نقمة
١٢٨	حُسن اختيار الزوجة
١٣٠	الزواج بعيداً عن القيم الدينية
١٣١	الزواج والقُدرة المالية
١٣٢	إنجاب الأولاد
١٣٤	العناية بالطفل جنيناً
١٣٤	العناية بالمولود
١٣٥	الرضاعة الطبيعية
١٣٨	النهى عن اغتيال الطفل
١٣٩	تنظيم الأسرة
١٤١	اعتراض
١٤٥	الخلاصة
١٤٦	تعدد الزوجات
١٤٦	الإنسان البدائى
١٤٨	التعدُّد فى دول الشرق
١٥٤	الخلاصة فى موضوع التعدُّد
١٥٥	النظام الإسلامى والتعدُّد
١٥٩	اختلاف التكوين الجسمانى للرجل والمرأة
١٦٠	التعدُّد وتقوية الروابط

١٦٢	أقوال في تعدد الزوجات
١٦٤	وشهيد شاهد منهن
١٦٧	الإسلام يدعو للفضيلة
١٧٢	الزواج عصمة وفضيلة
١٧٤	اختيار المرأة للزوج
١٧٥	فساد وتفريط في حقوق المرأة
١٧٦	زواج المتعة
١٧٧	قيل في المرأة
١٧٩	الإغراء بالفساد
١٨٢	جهاد المرأة المسلمة
١٨٢	النور يبدد الظلام
١٩٠	مزيد مما في ذاكرة التاريخ
١٩٢	ممارسة الأعمال التجارية والوطنية
١٩٧	الفهرس

المؤلف في سطور

- وكيل وزارة الأوقاف الأسبق لشؤون القرآن والمساجد.
- خدم المؤلف في مجال الدعوة الإسلامية في الداخل والخارج.
- له مؤلفات تزيد على ٥٥ مؤلفاً.
- حصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى من الدولة.
- حصل على درع التفوق من وزارة الأوقاف في الدعوة الإسلامية.
- حصل على ميدالية العامل المثالي من وزارة القوى العاملة.
- عضو إتحاد الكتاب المصري.
- عضو شعبة الرعاية الإجتماعية بالمجالس القومية المتخصصة.
- عضو شعبة الشباب والرياضة بالمجالس القومية.
- شارك في العديد من المؤتمرات المحلية والعالمية.
- أسهم بنشاط وافر في العمل الإجتماعي.

هذا الكتاب

ثمة موضوعات شتى يحتويها هذا الكتاب بين دفتيه، وهي كلها محورها المرأة منذ حواء أم العالمين جميعاً حتى المرأة في العصر الحاضر. لقد جاء هذا الكتاب بمثابة دراسة تحليلية للمرأة عموماً في مختلف المجتمعات والأزمنة، فهو يتناول المرأة في العالم العربي والإسلامي، قديمه وحديثه، كما يتوقف عند المرأة في العالم الغربي على مر تاريخه أيضاً، موضحاً كل النواحي الدينية والاجتماعية، ومستقرئاً العادات والتقاليد والطقوس التي تعاقبت منذ القدم على المجتمعات البشرية كافة.

وفي الكتاب إشارة إلى القصص التاريخي الواقعي ذي الصلة بموضوع المرأة، ليكون شاهداً حياً على ما يرمي إليه الكتاب من وراء هذه الأقسام والأحداث، ولكي تعي المرأة خصيصاً أن من كرمها بحق هو الرسول الأكرم ﷺ، الذي أعلى شأنها، ورفع قدرها وحررها مما كانت تتخبط فيه، منذ العصور الغابرة، في متاهات الجهل وتُرّهات الأوهام. فلما جاء الإسلام الحنيف بنور الله، كان لا بد أن تنقلب المفاهيم وتبدل النظرة السابقة إلى المرأة، وهكذا انكسرت الأغلال التي كانت تعيقها عن العمل، فخرجت إلى ميادين الحياة وقد اعتنقها الإسلام السامع من قيود الجاهلية، لتندفع في توكيد ذاتها وتكريس حضورها في كل المجالات التي خاضتها.

وما على المرأة لكي تتأكد من ذلك إلا العودة إلى ما نادى به المصلحون والمجاهرون بحريتها، لتكتشف بنفسها الفرق الشاسع بين ما ينادي به هؤلاء، وبين الحقوق التي أسبغها الإسلام عليها فجعل منها مخلوقاً آدمياً يتمتع بكل خصائصه الإنسانية، بينما مازالت المرأة في الغرب تقاسى ألواناً من العبودية المقنعة، فهلاً أكبت على الإسلام تقروؤه من جديد على هدي التجارب وما يقدمه التاريخ من نماذج تستحق الاستقرار؟

الناشر